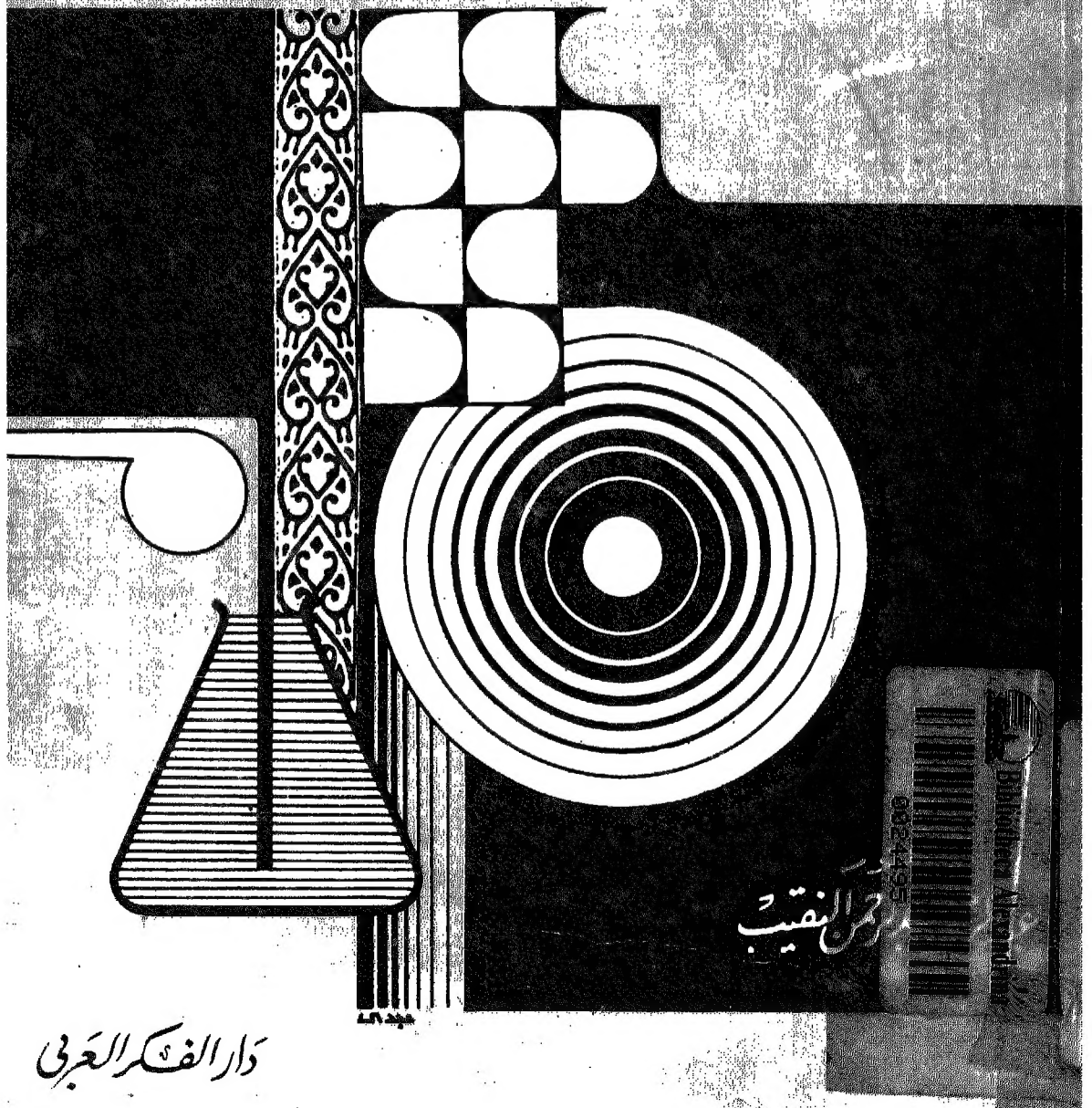


سلسلة آفاق البحث في التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

الابعد والتربوي والمهني للطبيب عند المسلمين

محمد النقيب

دار الفكر العربي

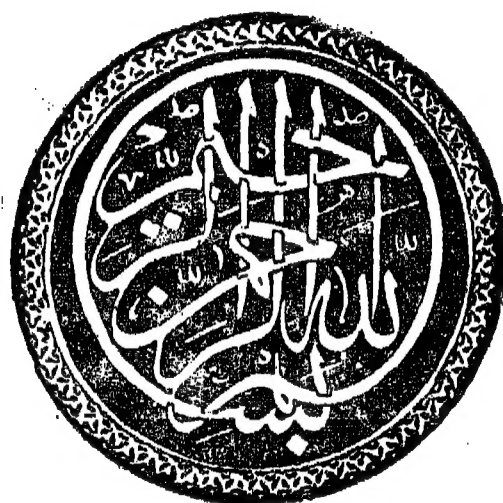


سلسلة من آفاق البحث في التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين

دكتور
عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب
كلية التربية - جامعة المنصورة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
11 شارع جواد صوفى / القاهرة
ص 130 - ت 76093



مقدمة البحث

ينخل اهتمام الباحث بموضوع تلك الدراسة ضمن اهتمامه الفصام بدراسة تاريخ التربية عند المسلمين - وهو اهتمام قديم يرجع الى سنوات دراسته لدبلومات التربية ، ثم يمتد الى مرحلة الماجستير التي كانت حول « الآراء التربوية في كتابات ابن سينا » * . فالى مرحلة الدكتوراه عن « الاصلاح التعليمي للأزهر في الفترة من عام ١٨٧٢ م - ١٩٧٢ م » ** . ولقد تضاعف اهتمام الباحث بهذا الاتجاه في الفترة الأخيرة كرد فعل لهذا التجاهل الطويل لدراسة تراثنا التربوي والنفسى والذي وصل أحيانا الى درجة الازدراء والتحقير وعدم الاعتراف . ورقم إيمان الباحث المطلق أن الفكر التربوي والنفسى المعاصر قد حقق تقدما هائلا مما يحتم على الدارسين أن يواكبوا هذا الفكر المعاصر ويدرسوه بعمق ، إلا أن معرفة الباحث الأولية بتراثنا التربوي والنفسى قد أكدت له الكثير من الجوانب المشرقة التي تستحق الدراسة والتأمل . وعلى سبيل المثال فإن سريان روح الخير العام في النظام التربوي الإسلامى ما زال معلما هاما من معالم هذا النظام تحاول البشرية بنظمها التربوية المختلفة أن تتلمس الطريق إليه فلا تكاد تصله إلا قليلا . ولا شك أننا كلما ازدادنا اطلاعا على هذا التراث ودراسة لأعلامه وأفكاره ومنجزاته التربوية والحضارية كلما ازداد تقديرنا لهذا الجهد ، ومعرفة بالطرق التي سلكها سلفنا في تدرجهم الى اكتشاف حقائق الأشياء وأرساء قواعد الترقى العلمى والتربوى . ولسنا نرى أن مثل هذه الدراسات خوض في فضول وتماد في « علم لا ينفع

* الباحث : الآراء التربوية في كتابات ابن سينا ، رسالة ماجستير ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٩ .

** The Educational Reform of AlAZhar, 1872 — 1972, Ph, D. Thesis Exeter University, 1980.

وجهل لا يضر » بل نعتقد أنها سبيلنا الوحيد لتأصيل فكرنا التربوي والنفسى ، وتحديد هويتنا الثقافية والحضارية التى ما زالت تسبح فى غيوم الضياع حتى اليوم .

ودرستنا الحالية عن الاعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين تقتصر على اعداد الطبيب البشرى Medical Doctor ولا تتعرض للعلاج النفسى أو « الطب الروحى » كما سماه العلماء المسلمون * . كذلك فإن دراستنا الحالية تركز على الاعداد التربوي المهني لهذا الطبيب دون أن تناقش منجزات الطب الاسلامى ، أو اسهامات الأطباء المسلمين فى تطور الطب العالمى ** اذ أن مثل هذه الدراسات تحتاج الى اخصائيين

* هناك دراسات تراثية يمكن الرجوع اليها فى هذا الموضوع مثل :
الطب الروحاني : للإمام الشيرازى ، مطبعة المقيد ، القاهرة ١٣٩٩ هـ ،
رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل : لابن حزم ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، **الطب الروحاني** : للحافظ بن الجوزى ، مكتبة القدس ، القاهرة ١٩٨١ ، **الجواب الكافى لأن سأل عن الدواء الشافى** ، **المسمى الداء والدواء** ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ١٩٧٢ ، **واحياء علوم الدين للغزالي** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، (بدون تاريخ) .. وغيرها .
 ** هناك دراسات عدة ظهرت فى هذا الميدان مثل :

بول غليونجى : **أبن النفيس** ، أعلام العرب ٥٧ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، **محمود الحاج قاسم محمد** : **الموجز لما أضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة به** ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ ، **مرسى محمد عرب** : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٥ ، **أحمد حسنين القرنى** : **قصة الطب عند العرب** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) ... الخ ، وإلى جانب هذه الجهود الفردية هناك جهود جماعية ومؤتمرات عقدت لهذا الغرض مثل :

إبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول ، والثانى ، عن الطب الاسلامى =

في الطب النفسى وفي علم النفس ، وفي الطب البشرى ، كما انها تخرج عن حدود مجال البحث والباحث . أن اهتمام الدراسة الحالية هو إبراز الجانب التربوى والمهنى من اعداد الطبيب عند المسلمين : كيف تربى هذا الطبيب ؟ وكيف أعد مهنيًا ؟ وكيف تم انتقاؤه ؟ وما هى حقوقه وواجباته ؟ مع تقييم هذا الأسلوب في الاعداد ، وإبراز بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة التربوية الاسلامية في ميدان التعليم والتمهين الطبيين .

ولقد قسم الباحث دراسته الى أربعة فصول : **الفصل الأول :** بعنوان « دور الاسلام وتعاليمه في ازدهار الطب الاسلامى » . وفي هذا الفصل مالج الباحث كيف كانت تعاليم الاسلام هى الدافع القوى لاقبال المسلمين على العلم والتعليم ومنها التعليم الطبى . فقد حثت تلك التعاليم على طلب العلم والحفاظة على صحة الانسان وطلب الدوام لكل داء . ولقد وضع الباحث اثر هذه التعاليم منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، وفند تاريخيا دعوى أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الاموية لم يختلف عن عصر الجاهلية فيها يتعلق بالعلم والتعليم ، لأنه كان زمان الفتن الأهلية والحروب الداخلية وفتوح البلدان والجهاد لنشر الاسلام ، وبين كيف أن تعاليم الاسلام منذ البداية كانت دافع المسلمين الأكبر للاقبال على العلم ومنه « التعليم الطبى » .

الفصل الثانى : بعنوان : الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين ،

« سلسلة مطبوعات منظمة الطب الاسلامى » ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، الكويت ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، مهرجان اسبوع العلم الثامن : المجلس الاعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٦٧ ، المؤتمر العلمى العربى الخامس ، ٥ مارس ١٩٦٦ : الاتحاد العلمى العربى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ . ولا شك أن هذا المجال يحتاج الى مزيد من الجهود الجامعية ولفترة طويلة حتى يمكن خدمة هذا الميدان .

المرحلة الأولى (التعليم الابتدائي) . وفي هذا الفصل عالجت الدراسة المرحلة الأولى من تعليم الطب وهي المرحلة الابتدائية Primary Education وناقشت أهداف تلك المرحلة ، ومناهجها ، وطرق التدريس المتبعة فيها ، مع تقييم تلك المرحلة من حيث المزايا والعيوب ، وكيف أثر هذا التعليم الابتدائي على شخصية الطبيب فيها بعد .

الفصل الثالث : بعنوان « الاعداد التربوي والمهني للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة Further Education . وقد فضل الباحث اطلاق هذا المصطلح على تلك المرحلة لأنه لا يوجد مقابل معاصر لها ، اذ تشمل التعليم الثانوي والجامعي وما بعده . ولقد تناول الباحث في هذا الفصل الدوائج المادية والمعنوية التي دفعت المسلمين الى الاهتمام « بالتعليم الطبي » ، وكيف اتجه هذا التعليم الى التخصص العميق الواسع وليس مجرد التخصص الضيق ، ثم تناول مؤسسات التعليم الطبي المختلفة ومناهج التعليم النظري وطرق الاعداد التربوي والمهني وعدد سنوات التعليم الطبي ، ونظام الامتحانات المتبع ، ووضع أساتذة الطب المشتغلين بتدريسه ، وحظ المرأة المسلمة من هذا التعليم .

الفصل الرابع : بعنوان « صفات الطبيب وحقوقه وواجباته » وفيها مرّس الباحث لأهم الصفات الحسية والطبيعية والعقلية والأخلاقية التي راعاها المسلمون في اختيار الطبيب ، وكذا أهم الحقوق التي تمتع بها ، والواجبات والمسئوليات التي كلف بها .

ولقد راعى الباحث خلال معالجته لهذه الفصول الأربعة أن يرجع الى كتب التراث ، وأن يناقش آراء الباحثين المحدثين في تلك الموضوعات المثارة . ثم خاتمة الدراسة ، والتي تحتوي على بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة الاسلامية في ميدان التعليم الطبي . ولقد رأى الباحث أن يضم الى الدراسة بعض « الملاحق » التي رأى أهمية ضمها ، وان كان قد اقتصر على أربعة منها ، مراعاة لحجم البحث وظروف الدراسة .

— ٩ —

وأخيراً فإن الباحث يشعر أن تلك الدراسة ما هي إلا نقطة بداية ،
وانها إذا كانت قد ألفت بعض الضوء على قليل من الجوانب فقد أثارت
في نفس الوقت العديد من علامات الاستفهام حول الكثير من الموضوعات
التي تستحق الدراسة . وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن قضية التعليم
في عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وقضية تعليم المرأة ، وقضية
الاتجاهات التربوية المختلفة في العصر الإسلامي وقضية المحتوى الدراسي ،
وقضية الطب الروحي أو النفسي ، وقضية التراث الطبي الإسلامي ،
وقضية أسلمة التعليم الطبي وتعميقه ... الخ . كلها قضايا كانت تطل
برأسها وتلحظ نفسها على الدراسة ، مما يشعر الباحث بأهمية التصدي
لها في المستقبل .

كلمة أخيرة ينبغي أن يذكرها الباحث هنا وهي أن يشكر مؤسسة
الكويت للتقدم العلمي ، ومنظمة الطب الإسلامي بالكويت لتقديمها منحة
له لدراسة هذا الموضوع . لقد كان لهذه المنحة المتواضعة وما ارتبط بها
من متابعة علمية مستمرة فضل الاسراع في بروز هذا البحث الى الوجود .
كما هو عليه الحال ، والا فلربما ظل فكرة كغيره من الأفكار الكثيرة لدى
الباحث ، أو لربما تأخر على الأقل عن الظهور فترة قد تطول أو قد
تتصر .

هذا وبالله وهذه التوفيق .

مكتوب

عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب

الفصل الأول

دور الإسلام وتعاليمه
في ازدهار الطب الإسلامي

دور الاسلام وتعاليمه في ازدهار الطب الاسلامي

تتبنى الدراسة الحالية وجهة النظر التي تذهب الى أن ازدهار الطب الاسلامي لا يمكن فهمه الا على ضوء توضيح أمرين هما : موقف الاسلام من العلم والتعليم بصفة عامة ، وكيف أن الاسلام قد دفع المسلمين الى طلب العلم وحثهم عليه ، وموقف الاسلام من « التعليم الصحى » بصفة خاصة وكيف وجه الاسلام نظر أتباعه الى كثير من التعليم الصحى وايقظ لديهم الوعى الصحى والشعور بأهمية « الصحة ١٢ » وهذا ما سيحاول هذا الفصل التمهيدى أن يوضحه بصورة سريعة موجزة .

أولاً : موقف الاسلام وتعاليمه من العلم والتعليم بصفة عامة :

تكاد أكثر الدراسات التي تناولت الحياة العلمية والتعليمية عند المسلمين أن تجمع على اتخاذ قيام دار الحكمة في بغداد عام ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م بداية لانطلاق النهضة العلمية والتعليمية عند المسلمين . وسواء كانت تلك الدراسات دراسات أجنبية أو دراسات عربية فإنها ترى أن المرحلة السابقة لهذا التاريخ ، وبالأذات مرحلة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، أنها كانت مرحلة انشغال بالجهاد الاسلامي وانكفاء على النص القرآنى وما اتصل به من علوم الدين . يقول بوتنى : « أنه يبدو من الصعب أن لم يكن محالاً أن نجد أى معلومات تتصل بالتعليم في العصور الاسلامية الاولى ، اذ من الواضح أن اتباع محمد كانوا أكثر انشغالاً بالجهاد في سبيل نشر دينهم عن تعليم أولادهم » (١) وحتى عندما أراد المسلمون أن يعلموا أولادهم فقد اقتصر هذا التعليم على « اكتساب المعرفة بدين محمد ، اذ أن أى شئ وراء ذلك إنما هو خرافة وخطر ، ولما كان دين محمد يحتوى على مجموعة من التعاليم وضمت في الماضى فان المنهج والطريقة ينبغى أن يكونا ثابتين ، والحفظ لا التفسير هو الشئ المطلوب في هذا التعليم » (٢) .

وإذا جاز للدارسين الأجانب أن يأخذوا هذا الموقف غير العلمى من الحياة التعليمية والعقلية في صدر الاسلام قصدا أو غفلة وعفوا لمن الغريب أن أكثر الدراسات العربية راحت تردد هذا الزعم وتسميم القرون الاسلامية الاولى بميسم « الجهاد المسلح » من ناحية والضحالة العملية والفكرية من ناحية ثانية دون محاولة منهم لاعادة النظر في هذا الحكم وتمحيصه ، حتى لقد وقر في الأذهان أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الاموية انما هي عصور مفاجاة القتل العربى وعدم حيوية الفكر الاسلامى ، وحتى أن تربويا معاصرا عندما تناول الفكر التربوى الاسلامى فانه يقسمه الى ثلاث مراحل : المرحلة الاولى منه تبدأ من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى قيام دار الحكمة في بغداد ، واهم ما يميز هذه المرحلة في نظره من الناحية الفكرية والتربوية « هو هيمنة الفكر الدينى المطلقة وشيوع التقليد الذى كان نوعا من انواع الاستمرارية من عهد الرسول ومحاولة للثبات عليه » (٢) ، ثم يضى فيؤكد « نحن في الواقع لا نجد فكرا تربويا متميزا في هذه المرحلة (هكذا !!) خلاف ما شاع فيها من الأحاديث عن شرف العلم وكرامة السعى في طلبه ، ويبدو أن غياب مثل هذا الفكر يعود الى بساطة النظام التعليمى الذى عرف في هذه الحقبة وافتقاره الى النظرية التربوية المتكاملة » (٤) .

ولسنا نريد أن نستطرد في اعطاء المزيد من الشواهد التى تؤكد على سيطرة هذا الاتجاه في تناول الحياة العقلية والتعليمية في القرون الاسلامية الاولى — كذلك فلن نحاول في تلك الدراسة أن نفند هذا الرأى ونثبت بالأدلة التاريخية القاطعة أن بذور النهضة العملية والتعليمية في العالم الاسلامى انما وضعت بذورها بنزول الوحي ، ومنذ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن العرب قد ظلوا قرونا قبل الاسلام دون أن ينتجوا لنا علوما ذات بال ، وحتى تلك الدراسات التى تؤكد على الطابع العضائى للعرب في الجاهلية — وخاصة عرب الجنوب (٥) لا يمكن أن تقلل من دور الاسلام وتعاليمه في ازدهار الحياة التعليمية والفكرية عند

العرب بعد الاسلام . لقد كان الاسلام بتعاليمه نقطة تحول كاملة في حياة العرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وتربويا ولن نستطيع ان نفهم هذا الاقبال الشديد على العلم والتعليم في حياة العرب بعد الاسلام الا اذا درسنا المبادئ الاسلامية التي جاء بها القرآن واكدها الرسول وتابع تطبيقها بنفسه وطبقها الخلفاء الراشدون من بعده لنشر العلم والتعليم في المجتمع الاسلامي ، واذا كانت الدراسة الحالية ليست هي المجال المناسب للعرض التفصيلي الموثق لتلك الحقيقة فلا أقل من ان نشير هنا اشارات سريعة الى بعض الملامح العامة التي تفيدنا في دراسة ازدهار الطب الاسلامي في العصور الاسلامية الوسطى المشرقة الممتدة من هجرة الرسول الى المدينة الى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٦) بحيث هذا الطب الاسلامي غلبة ما وصل اليه العقل البشري في ميدان الوقاية والعلاج طوال تلك العصور .

فلقد كان خلف هذا الاندفاع القوي الى ميادين العلم المختلفة ومنها الطب دين يقدس العلم والعلماء ، ولا يرضى لاتباعه بالجهل والتخلف العقلي ، والدارس لكتب التراث التربوي الاسلامي - وهي كثيرة - يجد ابوابا مخصصة للعلم وذكر فضائله والحث عليه وببيان ضرورة طلبه من ناحية ونشره بين الناس من ناحية اخرى ، وسيلاحظ الدارس ان تلك الادبيات التربوية تتناول هذا الموضوع مدعما بالآيات واحاديث الرسول وآثار الصحابة رضوان الله عليهم وهو ما تشير اليه بدليل النقل ثم يأتي بعد ذلك تناولها للموضوع من الناحية العقلية والمنطقية التي يرتضيها العقل السليم وهو ما يسمى بدليل العقل (٧) ، ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع هنا تلك الأدلة النقلية والعقلية معا ، ولذلك فسكتفي الدراسة بالقليل من الشواهد من القرآن والسنة « اذ العبرة بقوة الأدلة لا بكثرتها » كما يقول طائس كبرى زاده عند تناوله لهذا الموضوع (٨) .

اما عن فضيلة العلم ، فان الله تعالى يقول « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم » (آل عمران آية ١٨) . فبانظر كيف بدأ

الله بنفسه سبحانه وثنى بملائكته وثالث بأهل العلم . وقال تعالى :
 « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة
 آية ١١) ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين
 لا يعلمون » (الزمر آية ٩) . ويعلق طائش كبرى زاده على مثل هذه
 الآيات بقوله : « أو لم يكف بالعلم وأهله الشرف الأصيل ، والمجد الأثيل
 أمثال هذه الآيات الواردة في التنزيل » (٩) . وعن فضيلة العلم أيضاً
 يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ويعلق
 طائش كبرى زاده على هذا الحديث بقوله « ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة
 ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة » ، وقال صلى الله عليه وسلم :
 « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا
 على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيحتهم على
 ما جاءت به الرسل » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يوزن يوم القيامة
 مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم
 القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، ويعلق طائش كبرى زاده
 على ذلك بقوله : « فاعظم بمرتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة » .
 ولعل تلك الآيات والأحاديث قليل من كثير يوضح لنا بالفعل منزلة السامية
 للعلم والعلماء في حياة المجتمع الاسلامي وكيف نظر المسلمون الأوائل الى
 أهمية الإقبال على العلم والتعليم .

ولا تكتفى تعاليم الاسلام بالتاكيد على أهمية العلم والتعليم ولكنها
 تحث الناس حثاً على طلب المعرفة ، يقول تعالى « فلولوا نفر من كل فرقة
 منهم طائفة ليتفقهوا في الدين » (التوبة آية ١٢٢) وقال تعالى « فاسألوا
 أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (الأنبياء آية ٧) ، ويقول صلى الله عليه
 وسلم « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً الى الجنة » .
 وقال صلى الله عليه وسلم « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً
 بما يصنع » وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل
 مسلم ومسلمة » ... الى غير ذلك من الآيات العديدة والأحاديث التي

تظهر مضطرة التعلم والتي تدفع المسلمين دفعا الى طلب العلم والتزود به .

وهي تدفع المسلمون الى التعلم فلابد لهم من « العناصر المعلمة » والتي تبذل لهم العلم اذا ارادوه وسعوا اليه ، ومن هنا دعا الاسلام الى ضرورة نشر العلم وعدم كتمانها ، وضرورة ان يبذل كل عالم ما لديه من علم للآخرين .. يقول تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين (أى يتعلموا) ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم (أى يعلموا قومهم) .. » (التوبة آية ١٢٢) ، وقوله تعالى « واذا أخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران آية ١٨٧) وهذا ايجاب للتعليم وعدم كتم العلم ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا حسد الا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » ، و « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه والثاني يعلمون الناس فقال : أما هؤلاء فيسألون الله عز وجل ان شاء أعطاهم وان شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وأما بعثت معلما ، ثم عدل اليهم وجلس معهم » (١٠) .

ولا شك ان مثل هذه الآيات والأحاديث قد ركزت في الحس الاسلامي وتربى عليها المجتمع منذ صدر الاسلام ، « لقد ركز في الحس الاسلامي أن التعليم والتعلم لا يمكن أن يكون مجرد حرفة أو مهنة بل هو أصلا عبادة وتقرب الى الله ، وكما أن العالم في الاسلام ينبغي عليه أن ينفر للتعليم ويسعى الى التزود من العلوم والمعارف فانه من الواجب عليه أيضا أن ينصرف الى تعليم الآخرين (١١) .

فإذا أضفنا الى ذلك كله ما حفل به القرآن الكريم من الدعوة الى أعمال العقل والتفكير في ظواهر الكون والاشادة بالتدبر في آيات الله المختلفة وموالمه المتعددة (نبات وحيوان وانسان وطبيعة ... الخ) وتزريع الجهال والغافلين والسخرية بمن لا يعلمون أو لا يفكرون لوجدنا

انفسنا بالفعل امام عامل حاسم في تغيير « العقل العزبي » وتفجير طاقاته الثقافية واستغلال امكانياته استغلالا علميا جديدا لا عهد لهم به (١٢) .

فآيات القرآن الكريم تخاطب العقل وتدمو الى النظر وتحارب الخرافة والاعتماد على الظنون مثل قوله مخاطبا الناس جميعا « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدا الخلق » .. (العنكبوت الآية ٢٠) وقوله : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .. (يونس الآية ١٠١) وقوله : « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعقلون » .. (الأنعام الآية ٩٧) وقوله : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم واللغات ان في ذلك آيات للعالمين » (الروم الآية ٢٢) ، وقوله : « ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وأشرايب سود ، ومن الناس والادواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » .. (طه الآية ٢٧ ، ٢٨) . فامثال هذه الآيات تدعو المسلم الى التأمل والنظر في ظواهر الطبيعة وحجالي الكون ومحاولة تأمل أسرارها والتعمق في فهمها .

وهناك آيات أخرى تدعو الى محاربة استعمال الظنون في التفسير وتحت المسلم على أن يبني فكره على أساس قوى من الحق الصراح . يقول تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، لكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى ، ان هي الا اسماء سميتنوها انتم وأبأؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » .. (النجم الآيات ١٩ — ٢٣) . وقال تعالى : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » .. (الجاثية الآية ٢٤) . وقال تعالى : « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغني من الحق شيئا أن الله عليم بما يفعلون » (يونس الآية ٣٦) .

وهناك آيات أخرى تلفت النظر دائما الى البحث عن الدليل العقلي (م ٢ — الإعداد التربوي للطبيب)

وتمنع من التقليد الاعمى للسابقين دون بحث أو نظر مثل قوله تعالى :
 « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا
 أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .. (البقرة الآية ١٧٠)
 وقوله تعالى : « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون
 وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا
 آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئناكم باهدى مما وجدتم
 عليه آباؤكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون . فانلقمنا منهم فانظر كيف كان
 عاقبة المكذبين » .. (الزخرف الايات ٢٢ — ٢٥) .

ويطول بنا الحديث لو مضينا في سرد الآيات التي تدمو الى التذبر
 والتعقل والتبصر واستعمال الحواس من سماع وبصر ... الخ ،
 واستخدام العقل في الوصول الى علل الاشياء ، ولاشك ان مثل هذه
 الايات القرآنية تمثل منهجا علميا قرآنيا ، جديدا في حياة العرب نقلهم
 من البداءة الى الحضارة العقلية ومن الفوضى الى التأمل والنظرة المنسقة
 الى الحياة والكون ، ومن العقلية الخرافية التي لا تربط الأسباب
 بالمسببات الى العقلية التي تتدبر سنن الله الثابتة التي لا تتغير .
 « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .. (الملك الآية ٣) ، « سنة الله
 في الذين خلوا من قبل ، وإن نجد لسنة الله تبديلا » .. (الاحزاب الآية ٦٢) .
 ولا شك ان تطبيق هذا المنهج العلمى الصارم الذى أسسه القرآن الكريم
 ينتهى دائما الى بناء العقلية المسلمة على أساس من المنهجية العلمية ،
 والايان ببداى العلية والحيلولة بينها وبين الوقوع فى براثن الخرافة الناتجة
 من العقلية العامية التى تقع دائما فى تصديق الاشياء دون تطبيق المنهج
 العلمى السليم (١٢) .

ومن الطبيعى ان النقلة الهائلة من طريقة النظر الجاهلية الى الكون
 والحياة الى تلك النظرة العلمية القرآنية الجديدة لا يمكن ان تتم فى يوم
 وليلة ، ولكن المهم ان نرصد هذا التحول العقلى الهائل منذ بدايته ،
 وكيف ان المجتمع الاسلامى منذ صدر الاسلام كان يتجه الى درب جديد
 من دروب العقل والنظر والتفكير ، وما هو الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما بلغة أن بعض الناس يظنون أن خسوف الشمس كانت بسبب موت ابنه إبراهيم عليه السلام يسارع فيصحح هذا الخبر ملفتا نظرهم الى تلك الحقيقة الكونية الثابتة قائلا « ان الشمس والقمر من آيات الله لا يخسفن لموت أحد ولا لحياته » (١٤) كذلك فان الذى يقرأ كتابا مثل « نهج البلاغة » المنسوب للإمام على بن أبى طالب - حتى وان كان الكتاب محتويا على جزء مفتحل - فلا بد أن يدرك أثر هذا التغير الثقافى الضخم الذى أحدثه الاسلام على العقلية العربية منذ صدور الاسلام ، اذ الكتاب لا يحتوى على فكر دينى محدود بل يعكس أحيانا كثيرة نظرات عميقة الى الكون والحياة والاحياء لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قد درب على دقة التأمل والتدبر والملاحظة (١٥) .

وحتى يتأكد هذا التحول العقلى الهائل كان لابد من نشر العلم والتعليم بين أفراد المجتمع ، لذلك وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بدايات الدعوة الأولى يمارس التعليم ويدعو الناس الى العلم رجالا ونساء ، سواء فى دار الأرقم بمكة أو فى مسجده بالمدينة (١٦) وما أن يبايع وفد المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى على الاسلام حتى يرسل معهم مصعب بن عمير ويأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين وكان يسمى المقرئ بالمدينة (١٧) ولا تضى مدة طويلة حتى تبرز أسماء وقيادات تربوية من الرجال والنساء أمثال أبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى زيد ومعاذ وأبى الدرداء وسعد بن عباد وأبى عبيدة الجراح وأسيد بن حضير وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصارى وغيرهم كثيرين وكثيرات (١٨) . ثم يظهر « اخوان الصفة » فيعكفون فى مسجد رسول الله بالمدينة ويفرقون انفسهم لطلب العلم والجهاد فى سبيل الله نظير أن يوفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاجاتهم الأولية » واهل الصفة أضياف الاسلام لا يأوون الى اهل ولا مال ولا على احد ، اذا اتته (رسول الله صلى الله عليه وسلم) الصدقة بعث بها اليهم ولم يتناول منها شيئا واذا اتته هدية أرسل اليهم وأصاب منها واشركهم فيها (١٩) ، ولقد بدا عدد « اهل الصفة » قليلا فى البداية

ثم ظلوا يتزايدون فيما بعد ، اذ أن بعض الروايات تجعلهم عشرين والبعض يجعلهم أربعين وبعض الروايات تصل بهم الى أربعمائة من القراء المجاهدين (٢٠) ، ولقد عكفت هذه الأعداد الكبيرة من أهل الصفة على التعليم والجهاد ، اذ كانوا يخرجون في كل سرية من سرايا الرسول ولعل « أهل الصفة » هم النواة الأولى لفكرة « المدرسة » فيما بعد التي يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير أجور أو أرزاق كانوا ينالونها من الأوقاف ، مع فارق أناسى هو أن « أهل الصفة » قد جمعوا بين « العلم والجهاد » بينما اقتصر أهل المدارس « على طلب العلم فقط » كذلك فإن أرزاق « أهل الصفة » لم تكن منتظمة بعكس أرزاق أهل المدارس فقد كانت منتظمة من طريق الأوقاف الثابتة الدخل والمنصرف .

ولم يكن أهل الصفة يتعلمون القرآن شفاهة فقط بل تعلم معظمهم الكتابة أيضا وقد كان سعيد بن العاص كاتباً محسناً ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة ففعل ، وكان ممن علمهم الكتابة أناساً من أهل الصفة ، علمهم الكتابة والقرآن ، أما عبادة بن الصامت فكان يعلمهم القرآن فقط (٢٢) . والغريب أن تؤكد كل المصادر الإسلامية تقريباً على دور « أهل الصفة » التعليمي والجهادي ثم نرى باحثاً معاصراً يشكك في هذا الدور ويشكك في وجود تلك الأعداد المتفرغة لهذا الأمر ، ويستكثر على مجتمع المدينة أن يكون به مثل تلك الطائفة ويذهب الى أنهم كانوا مجرد مجموعة من المشايخين محبى الحرب وحدثهم مصالح وانتماءات خاصة ولم يكونوا أهل تعليم أو جهاد (٢٣) .

ونترك هذا الباحث وأمثاله لكي نتتبع الخطوات العملية التي اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر العلم والتعليم في المجتمع الاسلامى ، فقد مارس التعليم بنفسه ثم ظهرت بجواره مجموعة من الصحابة كان يستطيع أن يعتمد عليهم في هذا الشأن . وبعد مدة وجيزة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يدفع بالرجل غير المتعلم الى من يعلمه ويفقهه فقد دفع على سبيل المثال وردان جد الفرات بن يزيد بن وردان الى ابيان بن سعيد بن العاص ليعلمه القرآن ، ودفع ابا ثعلبة الى عبيدة ابن الجراح لكي يعلمه وهكذا ، وكان يأمر الناس أن يستعملوا الفقه

والقرآن من جيرانهم قائلا : « ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويتفقهون ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو أعاجلنهم الحقوية » (٢٤) . وفي غزوة بدر عندما وجد بين الأسرى من يجيد الكتابة جعل فدية كل منهم أن يعلم عشرة من العلماء الكتابة ، وكان فداء الرجل قد بلغ أربعة آلاف (٢٥) . ولم يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم « الرجال » الكتابة فقط بل طلب من الشفاء أم سليمان بن أبي حنمة أن تعلم زوجته حنصة الكتابة (٢٦) .

ولقد أدرك المسلمون منزلة الكتابة وأهميتها حتى أن مجاهدا روى في قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء » معنى « الخط » ، « ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » معنى الخط بتقديم وتأخير ، وكيف لا يدركون أهمية الكتابة والقرآن يأمرهم أن تكون معاملاتهم في حالة الدين كتابة . يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » . (البقرة ١٨١) . والذي يطالع أسماء كتاب رسول الله فقط ويجدهم اثنين وأربعين كتابا كما يروى عكرمة (٢٧) لا يملك إلا أن يرفض ما يروى عن ندرة الكتابة في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن خلدون في مقدمته وتابعه على ذلك معظم الدارسين بدون تدقيق أو تحقيق ويقول « صاحب الحكومة النبوية » ما قاله معلقا على رأى ابن خلدون : « وهذا — اقبال المسلمين على تعلم الخط والكتابة — يطل ما قاله ابن خلدون من جهلهم بالخط فإن عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون كان يتكلم عن تخمين » (٢٨) .

ويحتاج الرسول صلى الله عليه وسلم في اتصالاته بالعالم الخارجى الى من يتقن اللغات الأجنبية في ذلك الوقت وهى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، فينتدب لذلك زيد بن ثابت الأنصارى فيتعلمها زيد بالمدينة من أهل هذه اللغات : الفارسية من رسول كسرى ، الرومية من حاجب رومى كان للرسول صلى الله عليه وسلم ، والحبشية من خادم للنبي صلى الله عليه وسلم ، والقبطية من خادمة له صلى الله عليه وسلم .

وتذكر المصادر أنه تعلم السريانية في بضعة عشر يوما (سبعة عشر يوما) (٢٠) . ومما لا شك فيه أن درجة معرفته بتلك اللغات لم تصل الى درجة الحذق بها في مثل تلك المدة الوجيزة ولكن المهم هنا هو لفت النظر الى قوة الدافع الاسلامي الذي يدفع أحد الصحابة الى تعلم هذه اللغات في مدة قصيرة ، وتلك الروح الحضارية الجديدة التي تمكن زيد ابن ثابت من أن يصبح ترجمانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك اللغات .

وفي هذا الجو العلمي والتعليمي الجديد ظهرت كفايات علمية متعددة كعلی بن ابی طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس . . . الخ . وكان الأخير يسمى البحر لسعة علمه ، وكان يعلم في مسجد المدينة علوم الدين واللغة العربية والشعر . وحرصا على افادة طلابه الكثيرين وتلبية لطلباتهم كان يخصص يوما للقرآن والتفسير وثانيا لغازی رسول الله صلى الله عليه وسلم وثالثا لایام العرب ورابعا للأنساب وخامسا للشعر والنحو (٢٢) وكان عمر بن الخطاب — فيما بعد — يلفت نظر عمال الدولة وقادتها الى تلك الكفايات العلمية المتعددة عندما قال لهم في مؤتمر الجابية : « من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبی بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فان الله سبحانه وتعالى جعلني خازنا وقاسما » (٢٣) .

وتؤكد المصادر على أن المسلمين قد واصلوا تلك المسيرة العلمية والتعليمية في عهد الخلفاء الراشدين . فقد أرسل الوالي يزيد بن أبی سفيان رسالة الى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يطلب منه ايضاد المعلمين لتعليم أهل الشام وهذا هو نص الخبر :

قال محمد بن كعب القرظي : « لما كان عمر كتب يزيد بن أبی سفيان ان أهل الشام كثير قد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، قال عمر لأصحابه : أعينوني بثلاثة فقالوا (عن أبی أيوب الأنصاري) هذا شيخ كبير ، وعن (أبی بن كعب) هذا سقيم فخرج معاذ بن جبل وعبادة

ابن الصامت وأبو الدرداء . فقال عمر : ابدأوا بحمص فإذا رضيتم عنها فليخرج واحد إلى دمشق وآخر إلى فلسطين : فأتاهم عبادة بحمص ، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين ، ومات معاذ عام طاعون حمواس ، فسار عبادة بعدها إلى فلسطين ومات بها ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات « (٢٤) » .

ولقد أقبل طلاب العلم على تلك الحلقات الدراسية التي كانت تعقد « بالمساجد » المنتشرة في أرجاء الدولة الإسلامية حتى أن الحلقة الواحدة كانت تضم المئات بل والألوف وتروى المصادر أن أبا الدرداء كان من أوائل من عقد هذه الحلقات بالشام وأن عدد تلاميذه قد بلغوا ألفا وستمئة ونيفا كان يقسمهم مجموعات ، ويضع على كل مجموعة عريفا يحفظهم القرآن . « عن أبي عبد الله مسلم بن مشكم قال : قال أبو الدرداء : أعدد من يقرأ عندنا يعني في مجلسنا هذا مئذنت ألفا وستمئة ونيفا ، فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة وعشرة ، لكل عشرة منهم مقرر ، وكان أبو الدرداء يستفتونه في حروف القرآن يعني المقرئين فإذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول إلى أبي الدرداء ، وكان أبو الدرداء يتسدىء في كل فقرة إذا انفصل من الصلاة فيقرأ جزءا من القرآن وأصحابه محدقون به يستمعون الفاضل ، فإذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم في موضعه وأخذ على العشرة الذين أضيلوا إليه » (٢٥) .

ولقد زادت الحلقات اتساعا مع الأيام وازدادت أعدادها ، حتى أن حلقة ابن عامر « تلميذ أبي الدرداء — ضمت أربعمئة عريف يقومون عنه بالقراءة » (٣٦) ، مما يصور بالفعل مقدار ما وصل إليه المجتمع الإسلامي الأول من إقبال على العلم والتعليم .

ويصور ابن حزم ما وصل إليه المجتمع الإسلامي في صدر الإسلام من شيوع العلم والتعليم بقوله : « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا إلى سواحل اليمن كلها إلى بحر فارس إلى منقطع

مارا الى الفرات ثم على ضفة الفرات الى منقطع الشام الى بحر الغلزم
 وفي هذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده الا الله ، كاليمين
 والبحرين وعبان ونجد وجبلى طيء وربيعه وقضاة والطائف ومكة كلهم
 قد أسلم وبنوا المساجد ليس منها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب
 الا وقد قرئ فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء
 وكتب « (٣٧) : وتأمل قوله : « ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب
 الا وقد قرئ فيها القرآن في الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء
 وكتب » ليتضح لك كيف أن الحركة التعليمية في عصر رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قد امتدت الى المدن والقرى والحل ، وكيف أن القرآن
 قد درس قراءة وكتابة للصبيان والرجال والنساء . أما عن استمرار
 تلك الحركة التعليمية والتربوية في عصر الخلفاء الراشدين فان ابن حزم
 يقول : « ثم مات أبو بكر وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا
 وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد
 ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب
 شرقا وغربا » مما يؤكد على أن حركة التعليم كانت قد تدهمت في المجتمع
 الاسلامي الاول ، وأن مكاتب الصبيان لتعليم القرآن كانت قد أنشئت
 بالفعل في عهد عمر بن الخطاب على الأكثر ان لم يكن قبل ذلك ، وليس
 في العصر الأموي كما تذهب الى ذلك أكثر الدراسات المعاصرة جريا وراء
 أسطورة أن عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم يكن عهد استقرار وعلم
 وتعليم بقدر ما كان عهد غزوات وفتوح ، ولقد غاب عن هؤلاء الدارسين
 ان الفتوح والغزوات لم تكن هدفا في حد ذاتها ، تعطل من أجله شئون
 العلم والتعليم ، وإنما كانت تلك الفتوح والغزوات وسيلة لازالة العوائق
 التي تحول بين المسلمين وتادية فرض أساسى من فروض دينهم الا وهو نشر
 الدين الاسلامي على أوسع نطاق ممكن ، ولم يكن هذا الغزو حائلا
 بين المسلمين وبين العلم والتعليم ، بل كان أداة من أدوات نشر الدعوة
 وما يتصل بها من علم وتعليم (٣٨) . لقد كانت سياسة الرسول وخلفائه
 انراشدين تتمثل في الاتصال بمختلف الوسائل بالقبائل والشعوب المجاورة
 ودعوتهم الى الاسلام . وعندما كان هؤلاء يقبلون الدعوة كان « العلماء »

يتجهون اليهم لتعليمهم أركان الدين ، وعندما كانوا يرفضون ويبدأ القتال كان فتح بلد من البلدان يعنى انتقال المسلمين من مرحلة الفتح الى مرحلة تعليم الدين الاسلامى والقرآن الكريم (٤٠) من هنا نفهم لماذا كانت الجيوش الاسلامية فى صدر الاسلام تضم القضاة والعلماء والقراء لكى يعلموا الجند الاسلامى من ناحية ، ولكى يباشروا مهمتهم التعليمية والحضارية مع البلدان التى تدخل الاسلام من ناحية أخرى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كان جيش اليرموك على طريق الشام يضم قاضيا هو أبو الدرداء وقاصدا هو أبو سفيان بن حرب ، وقارثا هو المقداد بن الأسود (٤١) ، وجريا على السنة التى سنّها الرسول فى معركة بدر فان قادة « الجيش الاسلامى » فى عهد عمر بن الخطاب قد طلبوا من أسرى الشام الذين يجيدون الكتابة تعليمها للمسلمين ، مثال ذلك ما يروى البلاذرى من أن أسرى قيسارية وضعوا فى الجرف (وهو معسكر المسلمين فى فلسطين) وطلب منهم تعليم المسلمين الكتابة (٤٢) ، ولعل هذه الشواهد التاريخية أن تظهر أن الفتوح الاسلامية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم تكن ملهسة من نشر العلم والتعليم ، بل كانت أداة لنشر « العلم الاسلامى » وتليلا على أن المسلمين كانوا قد اُثربوا حب العلم والتعليم ، ويمارسونه فى سلامهم ويمارسونه فى حربهم ، وفرق هائل بين القادة عباقرة الحرب مثل الاسكندر المقدونى ونابليون وهتلر وموسوليني ... الخ ، وبين القادة عباقرة الحضارة مثل خالد بن الوليد ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ، وعقبة بن نافع ... الخ ، بين هؤلاء الذين حققوا انتصارات حربية باهرة فى الزمان الاقصر ولم يخلّفوا أثرا حضاريا وثقافيا من بعدهم ، وهؤلاء الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ثم بقيت آثارهم ظاهرة فى السياسة والحضارة والثقافة (٤٣) .

من كل ما سبق يتضح لنا شيئا من تلك الروح العلمية والتعليمية التى جاء بها الاسلام والتى حركت العرب الى الاقبال على العلم والتعليم : يقبلون عليه فى اوقات اسلام . ويحبون فيه فى اوقات الفتوح والغزوات ، وستظل هذه هى السمة الغالبة على « المجتمع الاسلامى » عبر العصور

الاسلامية الزاهرة فحيثما ذهب المسلمون أقاموا حلقات العلم ومؤسسات التعليم وان اختلفت أسماء تلك المؤسسات وتعددت المناهج باختلاف العصور واختلفت الحاجات العلمية والتعليمية ، مما يؤكد لنا أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين كان بحق عصر التحول العلمى والتعليمى فى حياة العرب ، وهو بهذا المعيار — يعد فى نظرنا — من أزهى العصور الثقافية فى حياة العرب والمسلمين * ، ولا شك أن « ميدان الطب » كان أحد الميادين التى تأثرت بتعاليم الإسلام من زاويتين : الزاوية الأولى ، هذا الاقتبال . وهذا التقديس للعلم والمعرفة بصفة عامة ، والتى دفعت الناس الى مزيد من العلم والتعلم ، والزاوية الثانية ما حفلت به تعاليم الإسلام من مبادئ طبية فتحت المجال لمزيد من « الوعى الصحى » ومزيد من الاقتبال على « التعليم الطبى » على نحو ما سنبينه فى الصفحات التالية :

ثانياً — موقف الإسلام وتعاليمه من التعليم الصحى بصفة خاصة :

رغم أن القرآن ليس كتاب تعليم طبى ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزعم لنفسه دور الطبيب البشرى Medical Doctor إلا أن تعاليم القرآن والسنة قد احتوت الكثير من المبادئ الطبية العامة التى استهدفت خلق المجتمع الإسلامى القوى صحياً ، وسواء فى ميدان الطب الوقائى Protection ، أو فى ميدان الطب العلاجى Treatment ، فإن تعاليم الإسلام قد احتوت على الكثير من الأسس الصحية التى تستهدف « حفظ الصحة وإزالة المرض » من الإنسان والمجتمع . وتعتبر دراسة أهدى شوقى الفنجري « الطب الوقائى فى الإسلام » (٤٤) ، من أفضل الدراسات وأجزها التى تناولت مبادئ الإسلام الطبية المتعلقة « بالطب الوقائى » مستمدة من القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه

* يشعر الباحث أن هذا الموضوع « التعليم فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين » يستحق دراسة خاصة موثقة ، ويأمل أن تنهى له الظروف البحثية للقيام بتلك الدراسة الهامة .

وسلم . ولقد عالجت الدراسة المبادئ الاسلامية المتعلقة بما يسمى
في عصرنا الحاضر « الطب الوقائي » تحت العناوين الرئيسية التي نوجز
أهمها فيما يلي :

١ — أوامر في صحة البيئة الاسلامية ونظافتها :

Sanitation and Personal Hygiene

فقد اشتمل القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم
على العديد من الآيات والأحاديث التي تدعو الى نظافة البدن والأيدي
والأسنان والأظفار والشعر ونظافة الملابس ونظافة الطعام والشراب
والشوارع والبيوت والمدن وموارد المياه كالأنهار والآبار ، وأنه لأمر
لا يخلو من معنى في ذلك الشأن أن نشير الى أن أول سورة نزلت تنادي
بالعلم وثاني سورة نزلت تنادي بالنظافة ، فقد جاء في السورة الأولى
قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق
اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، على الإنسان ما لم يعلم » (الملق
الآيات ١ — ٥) ، ولاحظ إشارة السورة الى العلم والتعليم من أول نزول
الوحي وبداية الدعوة لتدرك طبيعة هذا الدين الحضارية ، وجاء في السورة
الثانية قوله تعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك
فطهر ، والرجز فاهجر » (المدثر الآيات ١ — ٥) ، ايذاناً بأهمية
المسلمين أن هذا الدين جاء لنظافة الظاهر والباطن معاً ، ويطول الحديث
لؤذهبن نستعرض كل الآيات والأحاديث التي تدعو الى النظافة بجميع
صورها ولكن يكفي أن نذكر هنا القليل منها مثل قوله تعالى مبتدأ علينا
بنعمة « الماء » أفضل أداة للنظافة « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به
ويذهب عنكم رجز الشيطان » (الأنفال الآية ١١) ، والمعجب أن من
مظاهر قياس درجة تحضر الشعوب في عصرنا الحديث هو مقدار استهلاكهم
للماء ، ولا ندري هل هناك شعب أكثر استخداماً للماء في أنواع الطهور
المختلفة من المسلمين ؟ انهم يستخدمونه خمس مرات في اليوم عند كل وضوء
لكل صلاة مفروضة ، دع عنك النوافل والسنن ، ويستخدمونه للتطهر
— بالاستحمام الكامل — من الجنابة الصغرى والجنابة الكبرى ،

ويستخدمونه في الاستحمام في كثير من المناسبات التي يدعو اليها الشارع الحكيم ، حتى لقد اصبحت كتب الفقه الاسلامي الاسباب الداعية للاستحمام في الاسلام « فوجد انها سبعة موجبة وستة عشر مستحبة اى انها ثلاثة وعشرون سببا » ، ويكفى ان نذكر هنا ان اول خطوة للدخول في الاسلام هي الغسل اى الاستحمام قبل شهادة الا اله الا الله . ويلتزم المسلمون بالاجتماع والالتقاء معا مرة كل اسبوع في صلاة الجمعة وحتى يكون المسلم في هذا اللقاء نظيفا خاليا من الروائح الكريهة والعرق فانه يستحب له الغسل لقول الرسول : « غسل يوم الجمعة واجب والسواك وان يمس من الطيب ما يقدر عليه » ، وقوله : « اذا جاء احدكم الجمعة فليغتسل » (٤٥) .

ولا يكتفى الاسلام بالاستحمام كسبيل لنظافة الجسم بل انه يامر المسلم بازالة كل ما يمكن ان تتجمع تحته القذارة والميكروبات في جسمه وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفطرة : الاستحداد والختان وقص الشارب ونفث الابط وتقليم الاظافر » وحدث انس رضى الله عنه قال : « وقت لنا النبي صلى الله عليه وسلم في قص الشارب وتقليم الاظافر ونفث الابط وحلق العانة الا يترك اكثر من اربعين ليلة » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قام احدكم من نومه فليغسل يديه فانت لا تدري اين كانت يدك » ، وقال : « اذا توضأت فخلل اصابع يديك » ، وقال « لولا ان اشق على امتي لامرتهم بالسواك عند كل صلاة » وعندما رأى بعض اصحابه يهمل في نظافة أسنانه حتى اصفر لونها قال لهم : « مالي اراكم تدخلون على قلوبكم استاكوا ربحكم الله » ، ووجه الى اهمية غسل شعر الرأس وترجيله وعندما دخل عليه رجل شاوره الرأس واللحية فاشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل شعره واصلاحه ، وعندما رأى مسلما لا ينظف ثوبه لفت نظر اصحابه قائلا : « أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه » وذكرهم بقوله تعالى : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (الامراف الآية ٣١) .

ويحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توجيه اتباعه الى نظافة الطعام والشراب ومصادر المياه والسكن والشارع فيقول صلى الله عليه

وسلم : « غطوا الاناء وأوكثوا السقاء فان في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بانهاء ليس عليه فطاء أو سقاء ليس عليه وكاء الا نزل فيه من ذلك البواء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وفي الظل وفي طريق الناس » ، ودعا الى نظافة المساكن مثل قوله : « نظفوا أفنيكم ولا تشبهوا باليهود التي تجمع الاكباء (الزبالة) في دورها » ، وحرّم البصق على الأرض واعتبره خطيئة تؤذى المسلمين وتوجب اللعنة ما لم يزلها فاعلها مثل قوله : « البصاق على الأرض في المسجد خطيئة وكفارتها ردمها » وقوله : « من آذى المسلمين في طريقهم وجبت عليه اللعنة » ، وهكذا اذا ذهبنا نستعرض مبادئ الاسلام الصحية في ميدان الفرد والبيئة لاتضح لنا انها لم تترك شيئا في هذا المجال . . . وكيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى لأصحابه اقل من أن يكونوا « المثل الأعلى » بين الناس في النظافة مثل قوله : « أحسنوا رداءكم ، وأصلحوا ركابكم ، حتى تكونوا شامة في الناس » . . . وهكذا انطلق المسلمون تحذوهم تلك المثل العليا الصحية لتربية الانسان النظيف في ذاته وفي مسكنه وطعامه وشرابه وطريقه والبيئة التي يعيش فيها (٤٧) .

٢ - أوامر لمنع الأمراض المعدية : Epidimillogy

فقد اشتملت تعاليم الاسلام الوقائية على عزل المريض بالمرض المعدى وعدم دخوله على الأصحاء ، كذلك أمر الأصحاء بدورهم بالبعد عنه حتى يشفى ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يورد ممرض على مصح » أى لا يدخل المريض على الأصحاء فينقل اليهم العدوى ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعل بينك وبين المجذوم قدر رمح أو رمحين » ، وقال : « اذا سمعتم بالبواء بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » وهكذا أدرك المسلمون مبكرا ضرورة « العزل الصحى » وفرقوا بين الحذر من العدوى ، والأخذ بأسباب الوقاية وبين التواكل والاهمال تحت دموى عدم الهروب من قضاء الله . ومن تعاليم الاسلام في عيادة المرضى أن يفسل انزائثر يديه قبل الدخول على المريض ، لان المريض يكون ضعيف المناعة

والكثر قابلية للمعدوى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ بماء عذب الوضوء وعاد أخاه المريض بوعد من النار » (٤٨) .

٣ — أوامر في التغذية : Nutrition

ولا نظن أن هناك ديناً من الأديان قد أسهب في الحديث عن الغذاء المناسب لصحة اتباعه كما فعل الإسلام ، فقد حرص الشارع الحكيم على نوع هذا الغذاء وكيفية تناوله مما يمثل في مجمله قانوناً غذائياً عاماً للمسلمين ، وسنرى أن الطب الإسلامي يعتمد اعتماداً كبيراً على استخدام الغذاء كدواء ووقاية ، فقد حرم الإسلام على المسلم الأطعمة والأشربة المضرّة صحياً مثل الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر ... الخ يقول الله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما نكثتم » (المائدة الآية ٣) ، ويحرم تناول الخمر والمخدرات بقوله : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متفهمون » (المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١) ، ويقول صلى الله عليه وسلم ، « كل شيء أسكر فهو حرام وكل مغيبه حرام » (٤٩) .

وفي الوقت الذي يحرم فيه هذه الأطعمة والأشربة المضرّة صحياً فإنه يشجع اتباعه على تناول الأغذية المفيدة صحياً مثل اللحوم بأنواعها : لحم البقر والبحر ومثل المعسل والتمر واللبن والتين والزيتون والمأكلة ... الخ ولو تتبعنا الاشارات القرآنية ، والاحاديث النبوية التي تتناول الأغذية المستحبة لأدركنا ما وراء تلك الأطعمة والأشربة من قيمة غذائية ونكتفى هنا بذكر القليل في هذا الباب مثل قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دماء ومنافع ومنها تأكلون » (النحل الآية ٦) إشارة إلى اللحوم الحيوانية ، وقوله تعالى : « نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائفاً للشاربين » (النحل الآية ٦٦) ، إشارة إلى اللبن وقيمته الغذائية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا أعلم ما يجزى من الطعام

والشراب مثل اللبن » ، وعن العسل وأهميته يقول تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (النحل الآية ٦٩) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « العسل شفاء من كل داء » وعن غير ذلك من الأطعمة والفاكهة يقول تعالى : « وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم » (البقرة الآية ٥٧) ويقول : « وفاكهة مما يتخيرون ولحم طيب مما يشتهون » (الواقعة الايتان ٢٠ ، ٢١) ويقول : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون » (الطور الآية ٢٢) ، الى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تتناول أنواعا متعددة من الأطعمة والأشربة الطبية (٥٠) .

ولا يكتفى الاسلام بذكر الحلال المفيد صحيا والنص على المحرمات المضرة صحيا من ألوان الطعام والشراب بل يشمل توجيهات طبية تنظم تناول الطعام والشراب من حيث مواقيته وكميته وطريقة تناوله مثل قوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المفسرين » (الاعراف الآية ٣١) ، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة من العبادة » ، وتذكر كتب السيرة كيف كان يتناول الرسول القدوة طعامه بأنه : « كان يصغر اللقمة ويجيد مضغ الطعام ولا يلتقم لقمة الا بعد بلع ما سبقها » .

ثم هناك بعد ذلك فريضة « الصيام » بكل ما وراءها من حكم صحية عديدة يدركها الطب الحديث (٥١) .

٤ — أوامر الصحة الجنسية : Sex Hygene

وسيعجب الدارس لهذا الموضوع . . كيف أن الاسلام منذ خمسة عشر قرنا قد قدم لاتباعه « الثقافة الجنسية » الكاملة النظيفة التي تحاول أحدث المدارس التربوية المعاصرة أن تقدمها لطلابها فلا تستطيع ، إذ أن الثقافة الجنسية في الاسلام تأتي في إطار عقائدى سليم ، وآيات واحاديث لها منزلة القداسة والتبجيل . وسنرى أن الثقافة الجنسية

في الاسلام تتناول أمور الجنس تناولاً شاملاً يشمل تكوين الجنين ونموه ،
وكيفية اختيار الزوجة وكيفية المعاشرة الجنسية السليمة ومعدم اتيان
النساء في الحيض والحث على الزواج وتحريم الزنا واللواط والشذوذ
وتحليل الطلاق وتعدد الزوجات في الحالات التي تستدعيها الظروف الطبية
والجنسية والانسانية الملحة ، مع أوامر للنظافة الجنسية كالاستحمام
بعد الجماع والاستنجاء بعد البول والاستنجاء بعد البول والغائط ... الخ ،
وسنكتفي بذكر القليل من تعاليم الاسلام في هذا الشأن (٥٢) .

يقول تعالى في اختيار الزوجة ، وما ينبغي أن يكون بين الزوجين
من مودة ومحبة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا
اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »
(الروم الآية ٢١) ، ويتص قصة اعجاب ابنة شعيب بموسى عليه السلام
لامائته وقوته فتقول لأبيها :

« يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين » (القصص
الآية ٢٦) ، فيفهم الأب في الحال لغة القلوب ، فيقول لموسى « انى أريد
أن أتحدثك احدى ابنتي هاتين » ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم
الى أن يرى المسلم المرأة التى يريد أن يتزوجها بنفسه حتى لا يشأ
بما لا يرضاه بعد الزواج فيقول : « اذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها
بعض ما يدعو الى نكاحها فليفعل » ، وقال للمغيرة بن شعبة وقد خطب
فغاة من الأنصار بدون أن يراها : « اذهب فانظر اليها فانه احرى أن يؤدم
بينكما » فإذا كان الزواج أحل الله لهما الاستمتاع كل بالآخر .. فيقول
سبحانه وتعالى : « نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » (البقرة
الآية ٢٢٣) ، وقوله : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (البقرة
الآية ١٨٧) . الا عند الحيض فان المباشرة مضره صحيا بكل من الزوجين ..
يقول الله تعالى : « ويسألونك عن المحيض قل هو اذى فاعزلوا النساء
في المحيض ولا يقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأنهون من حيث أمركم
الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (البقرة الآية ٢٢٢)
وينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباشر الرجل زوجته دون

أن يسبق ذلك ملاطفة عاطفية وتهديد جنسى بمثل قوله : « لا يمتنع أهدكم على امراته كما تقع البهيمة وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا رسول الله ، قال : القبلة والكلام » ، ومن تعاليم الاسلام أن يقرن الرجل لزوجته ، وأن تترين المرأة لزوجها ، والا ينظر الرجل بشهوة الى غير زوجته ، والا تمتنع المرأة عن زوجها في الفراش ، أو يهجر الرجل زوجته في الفراش الا لتسبب شرعى ، ويكفى أن ينظر الاسلام الى العلاقة الجنسية بين الزوجين على أنها عمل مستحب ينالان عليه الأجر من الله ، تترى تلك الصراحة وتلك القداسة التى يعالج بها الاسلام موضوع الجنس فى حياة المسلم .

وفى القرآن حديث ممتع عن تطور الجنين مثل قوله تعالى : « أيعسى الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة نخلق نسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » (القيامة الآيات ٣٦ — ٣٩) ومثل قوله : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . (المؤمنون الآيات ١٣ ، ١٤) وقوله : « وأله خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى » (النجم الآيات ٤٥ ، ٤٦) وقوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يفرج من بين الصلب والترائب » (الطارق الآيات ٦ — ٨) ... الخ .

ويحرم الاسلام الزنا لما يشيعه فى المجتمع من فساد مثل قوله : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا » (الاسراء : آية ٣٢) ويحرم اللواط « ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشة ، ما سبقكم بها من احد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون » (الاعراف : الآيات ٨٠ ، ٨١) الى غير ذلك من الموضوعات التى تكون فيما بينها جسما متماسكا من المعرفة الجنسية السليمة التى تربي المسلم على احترام الجنس وتفهم أسراره والقيام بأدواره قيساما صحيا نظيفا ، وبذلك يخلو المجتمع من أمراض الجنس الناجمة عن (م ٣ — الاعداد التربوى للطبيب)

الاختلاط واثارة الشهوات كانتشار الجروح ، أو الشذوذ الجنسي والخيانة الزوجية ... الخ مما تمنع به مجتمعات التسيب والرخص (٥٣) .

٥ - أوامر الصحة النفسية والعقلية :

MENTAL AND PSYCHIC HYGIENE

ان الاسلام بما يدعو اليه من ايمان وصلة قوية بالله تريح النفس وترضى العقل والشعور ، وما يكونه من علاقات اسلامية بين الأفراد والجماعات تجعلهم كالجسد الواحد ، وما يحدثه من تنظيم اقتصادي عادل لا يولد مشاعر الحقد والكراهية بين الأفراد ، وما يستثيره من دوافع اخلاقية رفيعة تسمو بالأفراد والجماعات ، الاسلام بكل هذه المبادئ والتعاليم يخلق الجو الصحى نفسيا وعقليا ، ويغضى على أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المعاصرة من شعور بالاغتراب ALINATION والاضطراب FURSTRATION والشعور بالعجز POWERLESSNESS وما يصاحب ذلك من عنف وتوتر وجريمة وعمرى (٥٤) STRIKERS .

كذلك فان ما فى الاسلام من ذكر ، وصلة بالله ، وشعور برحمته كل ذلك مما يفرى الحياة النفسية لدى المسلم .. يقول تعالى عن الأثر النفسى لتلاوة كتاب الله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : آية ٢٨) ، ويقول أيضا « أمن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (الأنعام : الآية ١٣٢) ، ويدعو الى الصبر والايمان عند المحن والمصائب وعدم السخط والجزع بمثل قوله « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » (النساء : الآية ٧٨) ، ويفتح الرحمة أمام المخطئين اذا عادوا الى الطريق المستقيم بمثل قوله : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (الأحزاب : الآية ٥) ، وقوله : « ومن يعمل سودا أو يقللم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيفا » (النساء : الآية ١١٠) ، ويحذر رسول الله الانسان من أن يلهث فى سبيل الدنيا بطريقة تعرضه للقلق والمعذاب النفسى ويثبده بدلا من ذلك الى أهداف وأماق أسسمى وأرجب

بمثل قوله : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة » ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له » (٥٥) ولقد أدرك المسلمون هذا البعد النفسى فى حياة المسلم وسموه « مرض القلوب » وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية « المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القرآن » (٥٦) ، ثم يضى فى الحديث عن تشخيص المرضين مظهرها علاجها معا ، ويقول ابن الجوزى فى مقدمة كتاب « الطب الروحانى » : « لما جمعت كتابا فى طب الأبدان وسميته لقطب المنافع أثرت أن أشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميته « الطب الروحانى » فان طب الأبدان إصلاح الصور وطب النفوس إصلاح المعانى وهى أشرف (٥٧) ، وتحفل الكتب الطبية الإسلامية فى عصور الازدهار الإسلامى بالكتب التى تعالج طب النفوس (٥٨) ، وهو اتجاه أهمله الدراسات الطبية المعاصرة ، يقول أحد الدارسين لهذا الموضوع : « أهملت الدراسة النفسية فى الطب (المعاصر) ، لكل الأمراض سببها حمت رائسحة ، وجراثيم وطفيليات ، ولكل مرض أمراضة ، وغندا وضعت الأسباب النفسية فى الأمراض ، وقد حدث هذا مؤخرا حيث حشدت الأسباب النفسية من جملة الأمراض — وضعت بشكل مبهم غير محدد أو واضح بخلاف مرض المرض حينما يكون سببه جرثوميا أو فطريا أو طفليا وهذا خلل بشع فى الدراسة مع اعتراف المؤلفين فى كتاباتهم أن الأسباب النفسية الروحية تلعب دورا هاما فى كل حادث من أحداث البدن » (٥٩) .

« والطب الروحانى » الذى عالج علماءنا المسلمون يختلف فى تصورنا عن العلاج النفسى المعاصر ، لأن الطب الروحانى الإسلامى يعتمد على تقوية علاقة الإنسان بربه وتخليه عن الصفات المذمومة وتحليته بالصفات المحمودة ، ولا شك أن تلك المدرسة الإسلامية فى العلاج النفسى تحتاج فى عصرنا الحديث الى من يطورها ويدعمها بالمزيد من البحوث والدراسات حتى يكون لنا مدرستنا الخاصة بنا فى العلاج النفسى الإسلامى أو الطب الروحانى » (٦٠) .

٦ — أوامر اللياقة البدنية : BODY BUILT

ذلك أن الاسلام ينظر الى المسلم كخليفة الله في الارض ، ومن ثم فهو يطالبه بكثير من الاوامر والتكاليف لعمارة الكون والجهاد في سبيل الله والقيام بواجباته الاسلامية العديدة من صلاة وصيام وزكاة وحج . الخ ، ولا شك أن ذلك كله يتطلب قوة الجسم وصحة البدن ، ولذلك فإن تعاليم الاسلام تحت على ذلك وتدعو اليه . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » ، ويشير الله في كتابه الى فضل الرجل القوي في مناسبات عدة فيقول « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح : آية ٢٩) ، ويقول : « ان الله اصطفى عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » (البقرة : آية ٢٤٧) ، وقوله « يا ابت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين » (القصص : الآية ٢٦) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « علموا اولادكم الرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » ، ويقول : « حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي » ، وحكت عائشة رضى الله عنها « ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سابقتها وكانت نحيلة خفيفة فسبقتها ثم مرت السنون وكثر شحمها فسابقتها فسبقتها فأخذ يذكرها بالمرّة السابقة ويقول لها : هذه بتلك » . فاذا أضفنا الى ذلك ما في « أداء الحج » من تدريب على المشاق ، وعلمنا أنه ركن من أركان الاسلام الخمسة « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (الحج : آية ٢٧) ، وما يتضمنه الجهاد في سبيل الله من تدريبات بدنية وعسكرية مختلفة يأمر بها الاسلام ويدعو اليها بمثل قوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الأنفال : آية ٦٠) ، وقوله : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ذلك بانهم قوم لا يفقهون » (الأنفال : آية ٦٥)

لذلكنا مدى حرص تعاليم الاسلام على اللياقة البدنية .

ثم تأتى الصلوات الخمس اليومية — غير السنن والنوافل — لتحتوى على أنواع متعددة من الرياضات والتمارين الصالحة لكل الأعمار : للأطفال والرجال والنساء على حد سواء ، ولا يكلف أداؤها شيئا ويمكن أن تؤدى فى وقت قصير وبدون أى مساعدة وفى أى لحظة وفى أى مكان ، وهى تمثل تدريبا شاملا للأطراف والعضلات والأجزاء المختلفة للجسم (٦١) .

ويحسن أن نختم الحديث عن « الصلاة » بما ذكره صاحب كتاب « الصلاة صحة ووقاية وعلاج » بعد أن قارناها بغيرها من التمرينات الرياضية واليوجا والسورياتمانسكار (نوع مطور من اليوجا) وكيف ان الصلاة تمتاز عن هذا كله بأنها لاتكسب اللياقة البدنية فقط بل تؤدى الى ارتفاع المستوى الروحى والعقلى أيضا فيقول : « ان حركات الصلاة أرق وأخف وتقى بجميع المزايا المطلوبة لأرقى التمرينات الرياضية التى وصل اليها العلم علاوة على المزايا المتعددة من اتباع مقومات الصلاة وتلاوة أم الكتاب فى كل ركعة ثم تلاوة آيات الذكر الحكيم فى الركعات المخددة » (٦٢) .

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتناول أيضا تعاليم الاسلام المتعلقة بالصحة المهنية OCCUPATIONAL-MEDECINE وكيف يعامل الأجير والعامل والخادم معاملة كريمة ، ورعاية المسنين GERIATRICS مسيولة اكانوا آباء أو أمهات أو جدودا وغيرهم ، ورعاية الأمومة والطفولة MATERNAL AND CHILD HEALTH وما ينبغى أن يؤمر للطفلسولة والأمومة من رعاية وحب وحنان . وكل ما يمكن استخلاصه من ذلك هو أن تعاليم الاسلام قد أخذت المجتمع الاسلامى منذ نشأته الى طريق الصحة والقوة ، وأيقظت فيه « الوعى الصحى » بأهمية هذه الأمور ، وجعلت من ذلك كله جزءا لا يتجزأ من تعاليم الدين ، فلا غرابة بعد ذلك أن يزداد اهتمام المسلمين بصحة البدن وصحة الروح معا ، ويقبلون على العلوم الطبية ينهلون منها ، ويضيفون اليها ، ويدعمون فيها ، ويصبغوا الرواد فى هذا الميدان طوال العصور الاسلامية الزاهرة .

الاسلام والطب العلاجي :

يعتبر الاسلام بحق أول دين سماوى يحرر التعليم الطبى وممارسة العلاج من الاعتماد على الرقى والتمايم والأحجية وهيئة رجال الدين على علاج المرضى واعتباره حقا من حقوقهم المقدسة ، ولسنا نجد كبير حاجة فى أن نستعرض هنا « التاريخ الطبى » للبشرية لكى نرى الى أى حد سيطرت الكهانة والشموعة على ميدان الطب العلاجى قبل الاسلام ، وكيف أن العهد القديم كان لا يفرق بين الكاهن والطبيب ، ذلك أن المرضى أصلا ليس الا عقابا على خيانة الانسان لخالقه حيث نقض عهده مع الاله واطاع وعبد معبودات غريبة ، وبسبب خطيئة الانسان كان المرض الذى يحتاج الى طقوس خاصة لشفاء صاحبه ، « ذلك أن الأمراض ليست فى حقيقتها الا رموزا لفضيحة الانسان وعاره ونقصه لوعوده مع الاله ومن ثم وجب تدخل الكاهن » (١٢) ، كذلك نجد أن العهد الجديد يؤكد على أن المريض قد ارتكب ذنبا مدخله شيطان المرض وأنه اذا قوى ايمانه وتاب عن ذنوبه خرج الشيطان من جسده ، وأن المسيح قد أورث رجال الدين القدرة على الشفاء . جاء فى انجيل متى (١٠) وفى لوقا (٩ : ٢٠) يقول بولس : « ومن مزيته التى لا يفاضله فيها نبي ولا رسول انه أفضى بالقدرة على إتيان المعجزات والشفاء الى تلاميذه ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده الى السماء وأورث كنيسته تلك القدرة أيضا » ، ولذلك اعتقد رجال الكنيسة أن « العلاج » حق من حقوقهم المقدسة ولا يسمح لأحد غيرهم أن يمارس العلاج والإلتهم بالفجل والشموعة واليسنجر ، وكانت الكنيسة تأمر بحرق الأطباء والعلماء أحياء أو وضعهم على الخوازيق حتى الموت ، فى الوقت الذى كان العلاج الوحيد الذى تقدمه الكنيسة للمريض يتلخص فى ثلاثة أمور هى : اضاءة الشموع حول المريض لطرد شيطان المرض ، واقامة صلاة الغفران حتى يتخلص من ذنوبه ، ودهن جسده بالزيت « (١٤) » .

كانت تلك هى النظرة الى المرض والى طريقة العلاج فى الأديان الأخرى ثم جاء الاسلام لكى يحدث تغييرا كبيرا فى تلك المفاهيم ، ولكى

يؤكد على أن المرض إنما هو ظاهرة غير صحية ينبغي أن يلتزم لها
العلاج المناسب . « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض
يموده ، وبعد أن عاده قال لأهل المريض : استدعوا له الطبيب ، قالوا
متعجبين : وانت تقول يا رسول الله ؟ ... قال : نعم ، تداؤوا عباد الله
فإن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء إلا داء واحد ، قالوا ما هو يا رسول
الله ؟ قال : الهرم » أى كبر السن . . وفى رواية أخرى « جاءت الإعراب
مقالوا ، يا رسول الله أنتداوى ؟ فقال : نعم يا عباد الله ، تداؤوا فإن الله
عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد ، قالوا : ما هو ؟
قال : الهرم » ، وقال صلى الله عليه وسلم يحت على طلب « الدواء » :
« لكل داء دواء فإذا أصيب دواء برأ باذن الله عز وجل » ، وفى
رواية أخرى : « إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له الشفاء : علمه
من علمه وجهله من جهله » (٦٥) . فتأمل حث رسول الله صلى الله عليه
وسلم على العلاج وربط الأسباب (الشفاء) بالمسيبات (طلب الدواء) ،
وتأكيد على أن لكل داء دواء وضرورة البحث عن العلاج الصحيح ،
ويعلق ابن قيم الجوزية على تلك الأحاديث بقوله : « وفى قوله صلى الله
عليه وسلم : لكل داء دواء ، تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على
طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه ، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن
لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء ويرد من حرارة اليأس وانفتح له
باب الرجاء ، ومتى قويت نفسه ، انبعثت حرارته الفريزية وكان ذلك
سببا لقوة الأرواح النفسانية والطبيعية ، وبتى قويت هذه الأرواح ،
قويت القوى التى هى حاملة لها ، فظهرت المرض ورفضته ، وكذلك الطبيب
إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه » (٦٦) .

ويؤكد الرسول لاتباعه على أن طلب العلاج لا ينافى صدق الإيمان
ولذلك عندما سأل أبو خزيمة قائلا : « يا رسول الله ، أرايت رقى
أسترقئها ودواء نتداوى به وثقة نتئها هل ترد من قضاء الله شيئا ؟
مقال : هى من قدر الله » . وعندما مرض صلى الله عليه وسلم فى آخر
عمره استعان « بالأطباء » تأكيدا لهذا المعنى فى نفوس أصحابه .

— ٤٠ —

روت عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم لله آخر عمره فكانت تقف عليه أطباء العرب والمجم فتقمت له الأنعام وكنت أمالجه بها » ، وهكذا أصبح طلب الشفاء عن طريق الدواء سلوكا اسلاميا يلجأ اليه المريض والطبيب معا (٦٧) . وإذا كان الاسلام يحث على « طلب الدواء » وجعله من الأسباب الموصلة الى الشفاء فقد حذر من أن يمارس مهنة الطب الا الحاذق بها ، والعارف بالامراض وعلاجها ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تطيب ولم يعلم مهنة الطب قبل ذلك فهو ضامن » فلا يتصدر لمهنة العلاج الا من اشتهر بذلك وظهر حذقه ، اما اذا أقدم عليها الجاهل فالحق الأذى بالمريض ، فهو في تلك الحالة مسئول عن الضرر الذي أصاب المريض نتيجة للعلاج الخطأ ، وفي ذلك تحذير للمريض أن يلجأ الى الجاهل أو المحتال الذي يمتنن الطب بدون معرفة أو حذق ، وتحذير للأطباء أن يقدموا على ممارسة المهنة بدون علم وتحجيرة وخبرة (٦٨) .

ولا شك أن تلك التعاليم الاسلامية في العلاج كانت نقطة انطلاق انطلق منها العرب من عهد السحر والكهانة والتائم الى عهد الطب والعلاج القائم على الأسباب والمسببات وكانت تلك التعاليم وراء هذا الاقبال على « العلوم الطبية » علما وتعلما ودراسة . وبينما كانت أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى تمارس العلاج بطرقها البدائية التي وصلت أحيانا الى درجة البربرية كان الطب الاسلامي يتقدم في ميدان التشخيص والنبض والتشريح والصيدلة والملاحظة السريرية .. الخ .. ويروى لنا أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) في مذكراته صورتين نرى أن نوردهما هنا لكي نرى حالة الطب في أوروبا في ذلك الوقت المتأخر ، يذكر أسامة أن صه أرسل الى المحافظ الأفرنجي لقلعة منيطرة بلبدان بناء على طلبه طبيبه النصراني ثابت ليعالج بعض الأشخاص الذين ألزمهم المرض الفراش ، وبعد عشرة أيام رجع ثابت مقبولا بالتهنئة على نجاحه السريع في مداواة مرضاه فقال ردا على التهنئات ، ان الأمر على أى حال لا يدعو اليها فقد قدّموا اليه عند وصوله مريضين ، رجلا يشكو من دملة

- ٤١ -

في رجله ، وامرأة مريضة بذات الرئة ، فآخذ في معالجتيهما الأول باستعمال اللبخات والثانية بالغذاء المناسب والادوية ، وكانت صحتها تتقدم بحالة مرضية . واذا بطبيب الفرنجى يتدخل مقرا بان العلاج المتبع لا جدوى منه ، واتجه الى الرجل سائلا اياه : اى الامرين احب اليه ان يموت برجلين ام يعيش برجل واحد ، فأجاب المريض مفضلا الامر الثانى وعلى ذلك استندى الطبيب الفرنجى فارسا قويا معه فأس وأمر بقطع ساق الرجل بضربة واحدة ولكن الفارس فشل ، وعند الضربة الثانية سال مخ السياقي من العظم ومات الرجل فورا ، ثم وجهه الطبيب الفرنجى التفاته الى المرأة وبعد أن فحصها اعلن أن شيطانها يسكنها ، وأن مكانه في رأسها ، وأمر بإزالة شعرها وأن تعاود تناول الطعام العساذى الذى تتناوله زميلاتنا ، وهو الثوم والزيت ، ولما ساءت حالتها صنع علامة على هيئة صليب في رأسها بأن شقها شقا عميقا حتى ظهر العظم ، ومرخ في الجرح ملحاً ، واذا ذاك أسلمت المرأة أيضا روحها ، أما القصة الأخرى فقد رواها أسامة نقلًا عن غليوم دى بورز Guillaume de Bures الذى صاحب أسامة في سفر من عكا الى طبرية - قال غليوم : « كان عندنا فارس قوى البأس في بلادنا وأثرف على الموت ، وكملجا أخبر قصتنا الى قسيس نصراني ذى شأن عظيم لنعهد اليه بالمريض قائلين : تعال معنا لتفحص البارس فلانا فوافق وسار معنا ، وكنا نعتقد أنه ما يكاد يضع يده عليه حتى يشفى ، وعندما رأى القسيس المريض قال : احضروا لى شحما ، فأحضرنا بعضا منه ، فلينه وعمل منه سدادتين مثل عقدة الأسبع ووضع كل واحدة منهما في كل من فتحتى الأنف فمات عند ذلك ، فصحبنا قائلين : « انه ميت . . » فأجاب القسيس : نعم ، كان يتعذب فسددت أنفه حتى يموت ويستريح » (٦٩) .

واذا كنا ندرس اليوم تاريخ الطب الاسلامى ونعجب بكل ما حققه المسلمون في هذا الميدان ، وكيف أنهم حولوا الطب الى علم يقوم على أسس عقلية سليمة ، واذا كنا نعجب بما ألفه المسلمون في علم الطب من

مؤلفات حوت تجاريمهم في الميدان وتجارب الأمم السابقة وشملت كل فروع الطب الوقائي والطب العلاجي فلا بد أن نتذكر أن الاسلام بتعاليمه كان هو المحرك الكبير لتلك الحركة العلمية والتعليمية الطبية عند المسلمين ، لقد هيات تلك التعاليم العقلية العربية لادراك أهمية الصحة والأسباب الوقائية والعلاجية للأمراض وبذلك استطاعت تلك العقلية أن تستوعب علوم الآخرين الطبية ، واستطاعت أن تضيف عليها ، وأن تبدع ما أبدعت في حقل الطب الاسلامي على النحو الذي سنراه في صفحات البحث التالية .

« مراجع الفصل الأول ومصادره »

Ethel W. Putney : "Moslem Philosophy of Education" (٢ ، ١)

The Moslem World, 1961, vol 61 pp. 190, 191.

— W. Montgomery watt, Islamic philosophy and theology, Edinburgh University press, 1972.

— Bayard Dodge : Muslim Education in the Medieval Times, The Middle East Institute, Washington, 1962.

— A.S. Tritton : Materials on Muslim Education in the Middle Ages, London, Luzzac Co., 1957.

(٣) محمد جواد رضا . الفكر التربوي الاسلامي مقدمة في أصوله

الاجتماعية والعقلانية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢١ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٥ ، وراجع تفصيل هذا الرأي عنده في

الصلوات من ص ٢١ ، ص ٢٧ .

(٥) راجع الاجزاء من ٨ — ١٠ من موسوعة جواد على . المفصل

في تاريخ العرب قبل الاسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ ، وهي تعتبر اوفى دراسة عن العرب قبل الاسلام وتقع في عشرة اجزاء خصصت الاجزاء الثلاثة الاخيرة للعلوم والآداب في الجاهلية .

(٦) راجع ضرورة اعادة تقسيم العصر التاريخي للعالم الاسلامي

في عمر لروخ — تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه ، اعادة النظر في التاريخ

دار الباحث ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦ — ص ٢٣ .

(٧) انظر على سبيل المثال : ابن جماعة . تذكر السامع والمتكلم في

ادب العالم والمستعلم ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٣ هـ ، الغزالي احياء

علوم الدين ، ج ١ ، مرجع سابق ، وطاش كبرى زاده : مفتاح السعادة

ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ،

١٩٦٨ .

— ٤٤ —

(٨) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦ .

(٩) نفس المرجع والمكان .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٩ — ص ١٠ .

(١١) الباحث : « ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي
دروس مستفادة » بحث مقدم الى مؤتمر ديمقراطية التعليم في مصر الذي
عقدته رابطة التربية الحديثة بالتعاون مع صحيفة الاهرام في الفترة من
٤/٢ — ٤/٥/١٩٨٤ ، ص ٨ .

(١٢) هناك كثير من الدراسات التي توضح تلك النقطة مثل :
— العقاد : التفكير فريضة اسلامية ، دار القلم ، بيروت ، ط ٢ ،
١٩٧١ .

— أحمد محمد الحوفي : القرآن والتفكير ، المجلس الأعلى للشؤون
الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

— عبد الرزاق نونل : القرآن والعلم الحديث ، دار الكتاب العربي ،
بيروت ، ١٩٧٣ .

— عبد الرزاق نونل : الله والعلم الحديث ، دار الشعب ، القاهرة ،
١٩٧٧ .

— عبد الرزاق نونل : الاسلام والعلم الحديث ، دار الشعب ، القاهرة ،
١٩٧٨ .

(١٣) محسن عبد الحفيظ : حركة التغيير الاجتماعي في القرآن .
مطبعة كاظم ، دبي ، ١٩٨٣ ، ص ٩٥ .

(١٤) نفس المرجع والمكان .

(١٥) هلى بن أبى طالب : « نهج البلاغة » شرح الامام محمد مهدي ،
دار المعرفة ، بيروت ، بدون .

(١٦) محمد شديد : منهج القرآن في التربية ، دار الازهر ، بيروت ،
بدون ، ص ١٠ — ص ١٨ ، وانظر أيضا :

— ٤٥ —

- ابن هشام : السيرة النبوية ، مطبعة صبيح ، ١٣٤٦ هـ ، القاهرة .
- ابن تيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ م .
- (١٧) مبد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، دار الكتاب العربى ، ج ١ ، بدون ، ص ٤٢ .
- (١٨) نفس المرجع ، ص ٤٤ — ص ٤٧ .
- (١٩) نفس المرجع ، ص ٤٧٣ .
- (٢٠) نفس المرجع ، ص ٤٧٣ — ٤٨٠ .
- (٢١) نفس المرجع ، ص ٤٨ .
- (٢٢) نفس المرجع ، ص ٤٠ .
- M.A. Shaben : Islamic History, A new Interpretation, (٢٣)
Vol. 1, Cambridge University Press, London, New York, Melbourne,
1971, pp. 50, 51.
- (٢٤) مبد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .
- (٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ٤٨ .
- (٢٦) نفس المرجع ، ص ٢٩ .
- (٢٧) راجع فصل كتاب الرسول وصور من كتبه صلى الله عليه وسلم ، نفس المرجع ، ص ١١٤ — ص ١٧٢ .
- (٢٨) انظر مثلا : أحمد شلبى : التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، ط ١ ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ .
- سمسيد اسماعيل على : معاهد التعليم الاسلامى ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤ — ص ٥ .
- (٢٩) مبد الحى الكتانى : نظام الحكومة النبوية ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

- (٣٠) نفس المرجع ، ص ٢٠٢ — ص ٢٠٤ .
- (٣١) ماجسد مرسلان الكيلاني : تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٦٨ .
- (٣٢) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد الى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦١ .
- (٣٣) حسين عبد الله محضر : الجسد في الإدارة المدرسية ، دار الشروق ، جدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ .
- (٣٤) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، مرجع سابق ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .
- (٣٥) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة ، دار الأناق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٩ ، نقلاً عن ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح المنجد ، مطبعة المجتمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥١ ، ج ١ ، ص ٣١٥ .
- (٣٦) نفس المرجع ، ص ٢٠ .
- (٣٧) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، طبعة عبد الرحمن خليفة ، ١٣٤٧ هـ ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٦٦ .
- (٣٨) نفس المرجع ، ص ٦٧ .
- (٣٩) عبد الرحمن الحجي : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥ — ص ٥٤ .
- (٤٠) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .
- (٤١) نفس المرجع ، ص ٨٣ .
- (٤٢) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

- (٤٣) عمر فروخ : تجديد التاريخ في تحليله وتدوينه ، اعادة النظر في التاريخ ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .
- (٤٤) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الاسلام ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
- (٤٥) نفس المرجع ، ص ٢١ .
- (٤٦) محمود رجائي المصطفي وآخرون : « استعمال السلوك لنظامه الفهم وصحته » من ابحاث واعمال المؤتمر العالمي الاول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٤٠٧ ، ص ٤١١ .
- (٤٧) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٧ ، ص ٣٤ .
- (٤٨) نفس المرجع ، ص ٣٥ — ص ٤٠ وللمزيد من الاحاديث الواردة في هذا الباب انظر :
- ابن تيم الجوزية : الطب النبوي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٨ — ص ٢٩ ، ص ٣٤ — ص ٣٥ .
- محمود علي البار : العدوى بين الطب وحديث المصطفى ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .
- (٤٩) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٢ — ص ٤٦ .
- محمود صدقي : رسالة الطب في ايام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين ، ترجمة حافظ صدقي عن الفرنسية ، مطبعة ابو الهول القاهرة ، ١٩١٠ ، ص ٢٢ ، ص ٢٤ .
- محمد عبد الحميد البوشي : الاسلام والطب ، دار النظم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٣ — ص ٦١ .
- (٥٠) احمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٥١ — ص ٥٣ .

- عبد الهيتند دياب ، أحمد تورتوز : مع الطب في القرآن الكريم ، مؤسسة القرآن ، دمشق ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٧ — ص ١٩٩ .
- السيد الجبلى : الإعجاز الطبى في القرآن ، دار التراث العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٢ — ص ٨٢ ، ص ١١٠ — ص ١٢٠ .
- (٥١) أحمد شوى الفنجري : الطب الوقائى في الاسلام ، مرجع سابق ص ٥٢ — ص ٧١ .
- الحاج محمد وصلى : القرآن والطب ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ .
- شوكت الشطى : اللب في الاسلام والطب ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥٨ — ص ٢٦١ .
- (٥٢) أحمد شوى الفنجري : الطب الوقائى في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ — ص ١٥٤ .
- السيد الجبلى : الإعجاز الطبى في القرآن ، مرجع سابق ، ص ٢٤ — ص ٦٠ .
- محمد الصيد دياب ، أحمد تورتوز : مع الطب في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص ٦٩ — ص ٩٦ .
- (٥٣) D. Radnicla : An Introduction to Man And His Development. New York, Appleton Century Crofer, 1966, pp. 375 — 376 & Herbert W. Armetrong. The Modern Romans, The Decline, of Western Civilization, Ambassador Press, Pasadena, U. S. A. . 1975.
- جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعى : المجتمع العربى بالوثائق والأرقام ، مطبعة كاظم ، دى ، الامارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .
- (٥٤) راجع : ميس النورى : الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا « عالم الفكر » ، العدد الاول ، أبريل — يونيو ١٩٧٩ ، سيد صبحى : الشباب وازمة التعبير ، المطبعة التجارية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- Richard D. Aeth, Youth and Changing Secondary School, Hamborg. Unesco institute for Education, 1973, pp 11 — 16.

- (٥٥) أحمد شوقي الفنجري : **الطب الوقائي في الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٧٩ — ص ١٠٨ ، يوسف القرضاوي : **الايمان والحياة** ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٤ — ص ٣٤٩ .
- (٥٦) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوي** ، مرجع سابق ، ص ١ ثم تفصيل ذلك من ص ١ — ص ١٨ .
- (٥٧) الحافظ ابن الجوزي : **الطب الروحاني** ، مرجع سابق ص ٥ .
- (٥٨) **نفس المصدر** ، الامام الشيرازي : **الطب الروحاني** ، مرجع سابق ، ابن حزم الاندلسي : **رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الاخلاق والزهدي في الرذائل** ، مرجع سابق .
- (٥٩) خالص جلي كنجو : **الطب محراب الايمان** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨ .
- (٦٠) من الدراسات الجادة على هذا الطريق .
- سيد محمد عثمان : **المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة دراسة نفسية تربوية** ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- حسن الشرقاوي : **نحو علم نفس اسلامي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
- عامر يس محمد النجار : **الآراء النفسية لدى صوفية القرن الثالث الهجري في ضوء علم النفس الحديث** ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ .

Malik Badri : **The Dilema of Psychologists**, M.W.H., London Publishers, 1979.

- (٦١) أحمد شوقي الفنجري : **الطب الوقائي في الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ — ص ٧٨ .
- باقر شريف : **النظام التربوي في الاسلام دراسة مقارنة** ، دار التعارف للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٧١ — ص ٤٠٢ .
- (م ٤ — الاعداد التربوي للطبيب)

- على القضاى : اءواء على التريسة الاسلامية ، دار الانصار ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ — ص ٣١ .
- (٦٢) محمد زكى سويدان : الصلاة صحة ووقاية وعلاج ، مطابع شركة الاعلانات الاهلية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٧ .
- (٦٣) ناجى موريس : « المفهوم الاسلامى للشفاء » من ابحاث واعمال المؤتمر العالى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٦٥١ .
- (٦٤) نفس المرجع ، ص ٦٥١ ، ص ٦٥٢ ، احمد شوقى الفنجري : الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .
- (٦٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ٨ .
- (٦٦) نفس المرجع ، ص ١٢ .
- (٦٧) نفس المرجع ، ص ٨ ، ص ٩ ، احمد شوقى الفنجري : الطب الوقائى فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .
- (٦٨) نفس المرجع ، ص ١٠٧ — ص ١١٥ .
- (٦٩) ادوارد ج. براون : الطب العربى ، ترجمة احمد شوقى حسن ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٩٣ .

الفصل الثاني

الاعداد التربوي للطبيب عند المسلمين

المرحلة الاولى : (التعليم الابتدائي)

Primary Education.

الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين

التعليم الابتدائى :

قبل التحدث عن الاعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين كان من اللازم ان نتعرض أولا للمرحلة الدراسية التى تسبق المرحلة التخصصية وهى مرحلة التعليم الابتدائى (Primary Education) ، وذلك ان التعليم فى تلك المرحلة الابتدائية سوف تنعكس آثاره على التلميذ فى المرحلة الدراسية التالية وتكسب الطالب المسلم الطابع الخاص المميز له كإنسان مسلم أولا ، قبل أن يكون إنسانا متخصصا فى حقل الطب ثانيا ، ولقد أثر الباحث أن يستخدم هنا مصطلح التعليم الابتدائى لأنه يوصل فى ثنائيه إشارة الى الترتيب والى أن هناك مرحلة تالية سيطلق عليها الباحث التعليم الأعلى (Further Education) والتى ستكون هى مرحلة الاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، غير أنه ينبغى الإشارة الى أن تلك المرحلة الابتدائية عند المسلمين لم تكن تعنى بالضرورة أن كل الأطفال الذين تلقوا التعليم الابتدائى ينتقلون الى المرحلة التالية بل أحيانا ، كانت تلك المرحلة تعتبر تعليما أوليا أساسيا ، (Elementary Education) ينتقل الأطفال بعده الى الحياة العملية والمهنية . أى أن تلك المرحلة كانت مرحلة ابتدائية بالنسبة لبعض الأطفال ذوى الاستعدادات العلمية والعقلية ، وكانت مرحلة منتهية بالنسبة للآخرين ذوى الاتجاهات العملية والمهنية (١) .

ورغم أن الدراسة الحالية ليست المكان المناسب لعرض تربية الطفل عند المسلمين منذ ولادته وحتى دخوله مرحلة التعليم ، إلا أنه ينبغى أن نذكر هنا أن أدبيات التربية الإسلامية لم تهمل طفل ما قبل التعليم بل اهتمت به فى جميع مراحل نموه : اهتمت به وليدا ، وتناولت كل ما يتعلق بغذائه رضيعا ، ونومه ، ورضاعته وفطامه ، ونظافته ، واستحمامه

وربما ضته ثم تناولت مرحلة طفولته المبكرة وكل ما يتعلق بهما من رعاية أخلاقية وبدنية ووجدانية ، والذي يطالع ما كتبه المسلمون عن طفل ما قبل التعليم ، يدهش كيف اتهمت التربية الإسلامية بعد ذلك أنها تربية تتجاهل الطفل في سنواته الأولى ولا تتحدث عنه ولعل في مراجعته بعض كتب التراث التربوي ما يوضح للدارسين مدى احتمال المسلمين بطفل ما قبل التعليم (٢) .

وعندما نركز هنا على « التعليم الابتدائي » كمرحلة أولى في اعداد الطبيب نحب أن نلفت النظر منذ البداية أن هذا التعليم الابتدائي لم يكن نظاما مغلقا Closed System معلوم البداية محدد النهاية ، ولم يكن محصورا في مؤسسة تعليمية واحدة أو سن دراسية محددة . بل كانت تلك المرحلة مثلها مثل المرحلة القادمة نظاما مفتوحا Open System يقبل عليه الطالب عندما يشاء وينتهي منه عندما يشعر ويشعر أساتذته معه أنه أهل لذلك (٣) . وقد يقضى تلك المرحلة في « الكتاب » أو ينتهي منها على يد مؤدب يحضر اليه في منزله وقد تتسع مواد الدراسة وقد تضيق وقد تطول مدة الدراسة وقد تقصر كل ذلك حسب ظروف الطالب واستعداداته . ومن ثم فانه من الخطأ أن يحاول بعض الدارسين أن يطبق أشكال « النظم المغلقة » على « التعليم الإسلامي » وسنلقى هنا نظرات سريعة على تلك المرحلة الابتدائية تبين طبيعتها ومحتواها وأهدافها ووسائلها لتحقيق تلك الأهداف .

١ — مؤسسات التعليم الابتدائي :

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول من تلك الدراسة — أن المسلمين قد عرفوا « المكاتب » أو « الكتاتيب » لتعليم القرآن قراءة وكتابة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما يرى الباحث — وهو رأى ما زال يحتاج الى مزيد من الأدلة والتدعيم — ولكن الذي لا شك فيه أنهم قد عرفوا هذا « الكتاب » في عهد عمر بن الخطاب على الأقل . يقول — ابن حزم : « ثم مات أبو بكر وولى عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضا وفتحت الشام والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد

ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقا وغربا « (٤) . اذ من الطبيعي أن يهتم المسلمون بكتاب الله قراءة وكتابة ويتخذونه محورا لتعليم أطفالهم منذ بداية الدعوة .

ويقف الدارسون للتربية الاسلامية طويلا أمام المكان الذي كان يوجد به « الكتاب » هل كان بالمسجد ؟ أم كان مستقلا ؟ ويميل أكثرهم الى أن « الكتاب » قد بدأ في المسجد ثم صار بعد ذلك مستقلا ، ويرون أن استقلال الكتاب عن المساجد كان بسبب عبث الصبيان الذين لا يتحفظون من النجاسة مما جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان في المسجد ويأمرون المعلمين أن يتخذوا لهم أماكن منفصلة عن المساجد لتعليم الصبيان (٥) « يقول أحمد شلبي : « وردت توصيات كثيرة بالأى يكون الكتاب فى المسجد ، ومن ذلك ما قاله الإمام مالك حينما سئل عن ذلك « لا أرى ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » وقد ورد فى كتب السنة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزية المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يحرزون من النجاسات بل يتخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب ، وأطراف الأسواق » (٦) . ورغم ما قاله الفقهاء فإن هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤكد أن « الكتاب » ظل أحيانا كثيرة فى المسجد . والذى يقرأ رحلة ابن جبر ، ورحلة ابن بطوطة يجد ذكر الكثير من الحلقات التى التفت فيها الأطفال فى المسجد حول معلم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل أمثلة أخرى لهذا النوع (٧) . ويعتبر أحمد شلبي هذا تجاهلا لتوصيات الرسول وتحذيرات الفقهاء ورجال السنة (٨) . فكيف كان ذلك ؟ المتأمل فى الأمر يجد أن الكتاب ظل طوال المصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث غير مقتصر على مكان واحد ، فقد وجد مستقلا فى الغالب ولكن وجد فى « المسجد » أحيانا أخرى ، ولم يكن فى ذلك إهمال لتوصيات الرسول أو تحذيرات الفقهاء ورجال السنة ، ذلك أن الأطفال لهم مكانهم فى المسجد عند أداء الصلاة خلف صفوف الرجال مباشرة وقبل صفوف النساء ، مما يدل على أن وجود كتاب لهم بالمسجد لم يكن بالأمر المكروه دينيا فى حد

ذاته ، وانما تأتى الكراهة لأسباب أخرى مثل : هل يأخذ المعلم أجرا على تعليمه أم لا ؟ وهل يقتصر على تعليم القرآن أم يضم الى ذلك موضوعات أخرى ؟ وكم عدد الاطفال فى كل حلقة ؟ وما هو الوقت الضرورى لأداء هذا العمل التعليمى ؟ وما هو عمر الطلاب الذين يحضرون الكتاب ؟ الى غير ذلك من الاسباب التربوية التى قد تجعل من المستحسن أن يوجد الكتاب خارج المسجد لمصلحة الاطفال التعليمية والتربوية .

ويبدو أن عدد الكتاتيب قد ازداد زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد بالقرية الواحدة أكثر من كتاب . وقد ذكر ابن حوقل أنه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية (٩) . ولا شك أن تلك الزيادة تعكس الطلب الجماهيرى على التعليم من ناحية ، وما أتيج لهذا الطلب الجماهيرى من وسائل الاشباع من ناحية أخرى . فقد أوجب الاسلام على الآباء أن يعلموا اولادهم اذا كانوا قادرين على ذلك (١٠) ، وفى حالة عدم القدرة تحسّل كتب التراجم بأسماء أساتذة علموا الطلاب مجانا ، وطلاب تعلموا من الأوقاف التى كان يجبسها المحسنون من محبى العلم والمعرفة بجوار ما كان يسود المجتمع الاسلامى من شعور بالكافل الاجتماعى بين أفرادهم ، مما أتاح لكثير من الطلاب أن يتعلموا على نفقة صديق أو قريب أو جار . . الخ . كذلك وجدت مكاتب للإيتام والفقراء خاصة لرعاية شئونهم وتقديم « المعاليم النقدية والعينية » لهم ولؤدبيهم (١١) ، وأقبل الحكام وغيرهم على انشاء تلك الكتاتيب للفقراء ، وغير القادرين حتى أن المنتصر قام بانشاء ٢٧ مكتبا فى قرطبة وحدها لتوفير التعليم المجانى لأبناء الفقراء وأوقف حوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين (١٢) .

بجوار هذه الكتاتيب الموجودة فى المسجد أو بجواره أحيانا والمستقلة أحيانا أخرى ، وتلك المكاتب العامة التى يدمع أولياء الطلاب أجر تعليم اولادهم فيها وتلك التى لا يدفع الطلاب الايتام أو الفقراء نرى شواهد كثيرة على أن هذا التعليم الابتدائى كان يتم أحيانا فى المنازل على ايدى المعلمين الخصوصيين يحضرهم الآباء من أهل اليسار لتعليم اولادهم

وتأديبهم . يقول ابن سينا « وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كاد يقتضى منى العجب » (١٣) . وسنرى أن ابن سينا لم يؤيد مثل هذا التعليم الخصوصى وفضل عليه أن يكون التعليم فى تلك المرحلة « تعليميا جماعيا » غير خصوصى ، ونصح بضرورة تربية الطفل مع غيره لما فى ذلك من فوائد تربوية تعود على الطفل . يقول ابن سينا « وينبغى أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية من أولاد الجلة (العظام أو السادة) حسنة آدابهم مرضية عاداتهم فإن الصبى عن الصبى القن وهو عنه آخذ وبه آئس — وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب اجلب الأشياء لضجرهما ، فاذا راوح المؤدب بين الصبى والصبى كان ذلك أنفى للسامة وأبقى للنشاط وأحرص للصبى على التعليم والتخرج فانه يباهى الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من أولئك انما يتحدث بأعذب ما رأى واغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه والتعجب منه سببا لحفظة وداعيا الى التحدث به . ثم انهم يترافقون ويتعاوضون الزيارة ويتكلمون ويتعارضون الحقوق ، وكل ذلك من اسباب المجازاة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لفهمهم وتبرين لعاداتهم » (١٤) .

وهكذا تعددت أماكن التعليم الابتدائى فهو يتم فى كتاب ملحق بالمسجد أحيانا أو مستنزل أحيانا أخرى ، وقد يتم فى المنازل عن طريق معلم أو مؤدب خصوصى ، وقد يكون فى مؤسسات ذات مصروفات أو أخرى مجانية ، كل ذلك وفق ظروف الطالب وظروف المجتمع الذى يعيش فيه .

اهداف التعليم الابتدائى :

لعل أهم ما يميز التعليم الإسلامى بصفة عامة هو اختلاف هدفه من غيره من النظم التربوية ، وهو اختلاف قلما يدرك الدارسون أهميته . فاذا كانت النظم التعليمية تتفق على هدف واحد هو اغداز المواطن الصالح ، وإذا كان لكل أمة ولكل مذهب فلسفى تحديد لما هو « المواطن الصالح » فإن هدف التعليم الإسلامى يتجاوز حدود المواطنة ليعتد الإنسان

الصالح الذي تعتبر المواطنة بكل متطلباتها مجرد بعد من أبعاده . ان التربية الاسلامية « تستهدف أولا غرس البعد العقائدى لدى الفرد . وهذا البعد العقائدى هو الأساس الذى ستبنى عليه التربية الاسلامية فيما بعد كافة الأبعاد الأخرى من عبادات وأخلاق ونظم سياسية واقتصادية وعسكرية وصحية » . الخ ، والذين لا يدركون مقدار أثر هذا البعد العقائدى على التربية يخطئون أحيانا وهم يظنون أن الهدف من التعليم الابتدائى فى الاسلام كان هدفا دينيا بحتا ولا علاقة له بالدنيا وعمارتها . بل أن بعضهم قد ذهب الى أن التربية الاسلامية من خلال حديثه عن الغزالى انما « هى تربية للأخرة وليست للدنيا ، تربية لمجتمع لا يتغير الا الى أسوأ ولا يسير الا الى الوراء ، وهو مجتمع لا يسيطر على نفسه ولا يوجه ذاته بقدر ما يخضع لسيطرة وتوجيه قوة خارجية عنه . . الله . . الذى خلقه ويسيطر عليه سيطرة مطلقة ، ومن ثم فهو مجتمع لا هدف له الا أن يقيم دين الله ، بأن يهيئ الفرصة لعبيده لممارسة شعائر الدين » (١٥) . وكان الهدف من إقامة « دين الله » مجرد ممارسة « الشعائر الدينية » أو العبادات بالمعنى الدينى الضيق . ونسب هؤلاء الدارسون أو لعلمهم يجهلون أن إقامة دين الله يشمل كل جوانب الحياة الانسانية ، كذلك فإن الخضوع لله ليس مجرد خضوع أعمى لسلطة « خارجية مطلقة » بل هو خضوع عاقل يحرر الانسان من جميع السلطات التى تريد ان تستبد به على الأرض .

وإذا كانت أدبيات التربية الاسلامية تركز على ضرورة الاهتمام بهذا الجانب العقائدى فى تلك المرحلة وكل ما يتصل بتقديم الإيمان وتقويته فى نفس الطفل فذلك لأن هذا هو الأصل الذى تبنى عليه سائر الفروع والتكاليف الاسلامية . ويشمل هذا الهدف العقائدى مساحة واسعة من اهتمام الفكر التربوى الاسلامى فى تلك المرحلة بالذات . بل وسيظل من أهداف المرحلة التالية أيضا على ما سنبين فيما بعد . ان أعداد الانسان « العابد » لله بالمعنى الاسلامى الواسع للعبادة ، الذى يشمل كل تصرفات الانسان وسلوكه وأقواله فى تلك الحياة هو الهدف الأسمى للتربية الاسلامية (١٦) .

وسوف ينعكس ذلك على منهج تلك المرحلة من حيث المستوى ودرجة الاهتمام بكل موضوع دراسي ، وعلاقة المعلم بطلابه وعلاقته بالآباء والمجتمع والسلطة ... الخ .

مناهج التعليم الابتدائي :

سبق ان ذكرنا أن التعليم الابتدائي كان يتم في أماكن متعددة اما داخل المسجد أو في الكتائب أو في المنازل والقصور ، وطبيعى أن يختلف المنهج اتساعا وضيقا باختلاف نوعية المؤسسة وباختلاف الاهداف الخاصة من هذا التعليم . ولما كانت طبيعة التعليم الاسلامى كما سبق ان ذكرنا تعليميا مفتوحا (Open system) فمن الخطأ أصلا أن يصر الدارسون لهذا التعليم على وضع مراحل دراسية محددة له ، ووضع مناهج محددة لكل مرحلة بل وربما وضع نظم امتحانات . والذي يقرأ في أدبيات التربية الاسلامية يتأكد له أنه لم توجد تلك التقسيمات العصرية الى مراحل تعليمية ولم توجد المتطلبات الدراسية لكل مرحلة . ولكن الطالب كان يقبل على العلم في تلك المرحلة ليأخذ منه على قدر استعدادده وما يريد له ولى أمره في المستقبل . فهو اذن نظام تعليمى مفتوح يقوم على حرية الطالب وحرية أولياء الأمور في اختيار ما يريدون من دراسات وما يريدون من تعليم أعلى أو مجرد تعليم أولى يكسب الانسان « شخصيته الاسلامية » ثم يتجه بعد ذلك الى حرفة أو مهنة . ولذلك فان أدبيات التربية الاسلامية تذكر موضوعات عديدة يمكن دراستها في تلك المرحلة مثل حفظ القرآن ، وبعض الأحاديث ، وتعلم الكتابة ومبادئ النحو والحساب والشعر والتاريخ والقصص ... الخ . وتترك للطالب حرية أن يدرس منها ما يشاء من موضوعات .

ولا شك أن موضوع « تعلم القرآن قراءة وكتابة » كان هو الموضوع المحورى في هذا التعليم مهما كانت المؤسسة التى تقدمه ، ومهما كانت طبيعة المرحلة التعليمية القادمة . فمسواء اتجه الطالب فيما بعد الى الدراسات الأدبية ، أو الدراسات الدينية أو الدراسات العلمية أو اتجه اتجاهها مهنيا أو حرفيا .. الخ فان حفظ القرآن وتعلمه قراءة وكتابة كان

شعائر التعليم الاسلامي وأهم سماته على الإطلاق . ولم يقبل المسلمون على تعليم القرآن بحماس ديني يفتقد المبررات العقلية والاسس الاجتماعية بل كان اقبالهم على ذلك بناء على ادراك سليم بأن حفظ القرآن في تلك المرحلة يكسب الطفل الطابع الاسلامي الاصيل . يقول أحمد فؤاد الأهواني : « وكان حفظ القرآن أو حفظ ذلك القدر اليسير منه كافيا في طبع الأبناء على التربية الاسلامية الصحيحة ، فالقرآن ديوان المسلمين فيه جوهر العقيدة وفيه تفصيل العبادات وفيه ارشاد للسلوك الفاضل والطريق المستقيم » (١٧) . ويوضح ابن خلدون ذلك بقوله : « اعلم أن تعلم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع امصارهم لما يسبق منه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث . وصار القرآن أصل التعليم الذي تبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا وهو أصل ما بعده ... لأن السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس واساليه يكون ما يبنى عليه » (١٨) . لذلك حرص المسلمون حرصا بالغا على أن يبدأ الطفل بحفظ القرآن وخشوا أن ينشغل بأى موضوع آخر ، أو ينصرف عن التعليم كلية دون أن يحفظ جزءا مناسباً منه . يقول ابن خلدون : « ووجه ما اقتصت به القوائد من تقديم دراسة القرآن اثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الضمير من الآفات والقواطع عن العلم فيفوت القرآن ، لأنه ما دام في الحجر — لم يصل الى سن البلوغ — منقاد للحكم ، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من رتبة القهر فربما عصفت به رياح الشبهة فالفقه بساحل البطالة — عدم التعليم — فيفتنمون في زمان الحجر وربة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه » (١٩) والذين يحاربون « حفظ القرآن » من رجال التربية المعاصرين في تلك المرحلة بدعوى عدم ادراك الطفل لمعانى القرآن ، أو حتى عدم جدوى حفظه في تلك المرحلة المبكرة (٢٠) ، لا يدركون ظروف المجتمع الاسلامي الثقافية التي جعلت من حفظ القرآن أهم الموضوعات على الإطلاق ، كذلك فانهم للأسف نادرا ما يدركون ما يمثله حفظ القرآن

بالنسبة للمتعلم ، اذ ان حفظه في صفه سيده فيما بعد بالنبع الثقافى
الثرى الذى سيسند منه ثوابه ، وأدلة على ما سيصادف من مشكلات
عقلية وفكرية .

وبجوار تعليم القرآن الذى هو محور المنهج الإسلامى فى تلك
المرحلة تعتبر العبادات الإسلامية محورا آخر من هذا المنهج . فالطفل
لا بد أن يتعلم كيف يؤدي ما كلف به من عبادات ، وعلى المعلم مراعاة ذلك
فيعلم الأولاد الصلاة والوضوء لها وآدابها وأحكامها ويديهم على الصيام
عندما يطيقون ويأمرهم بالصلاة اذا كانوا بنى سبع سنين ويضربهم عليها
اذا كانوا بنى عشر (٢١) ، ويراقب أحوالهم فى آدابهم وهدبهم وأخلاقهم
باطنا وظاهرا فمن صدر منه من ذلك ما لا يطيق عالجه المعلم بما يتناسب
من تأديب أو زجر أو لوم أو عقاب (٢٢) .

ثم يأتى بعد ذلك ضرورة أن يتعلم الطفل الكتابة والأدب ومبادئ
النحو والحساب والحديث والتاريخ والسير ، ويؤكد المربون المسلمون على
ضرورة اختيار الأشعار السهلة التى قيلت فى فضل الأدب ومدح العلم وذم
الجهل وما حث على بر الوالدين واصطناع المعروف (٢٣) وأن نعتد عن
الطفل اشعار الهزل والمجون فانها تفرس فى نفوس الأطفال بذور
الفساد (٢٤) ، وكذا الأشعار التى فيها ذكر الحمية والخنا أو قبح
الهجاء (٢٥) ، فالهدف الأخلاقى منها واضح فى اختيار النصوص بجوار
الهدف الأدبى الذى يتمثل فى اكتساب الطفل ملكة اللغة ، واستخدام تلك
الأشعار للاستشهاد بها فيما يريد بيانه (٢٦) ، أما سيرة الرسول والصحابة
واحاديث الأخيار وحكايات الأبرار وأحوالهم فهى تفرس فى نفس الطفل
حب الصالحين ومحاولة تقليدهم (٢٧) ، يقول الأهوانى : « وسيرة الرسول
هى قدوة المسلمين كما قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم
عنه فانتهوا » ، وقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان
يرجو الله واليوم الآخر » لذلك كان تعليم سيرة الرسول ذات فائدة خلقية
عظيمة لأنه يضرب الأمثال للصبيان فى الأخلاق الفاضلة وكذلك تاريخ
العرب وهو المعروف بأيام العرب وأخبارهم والذي نص عليه القاسمى

وغير القابض من المربين مع المواد التي يتعلمها الصبيان إنما الغرض منه سوق العبر الفاضلة والعظات الخلقية التي يقتدى بها الصبيان (٢٨) .

والذي لا شك فيه أن الطفل المسلم لم يكن مجبوراً على أن يدرس كل هذه العلوم والمعارف بل كان ينال منها ما يستطيع أن يحصله ، وإذا استثنينا حفظ القرآن وتعلم الكتابة والعبادات الإسلامية فهناك ما يؤكد أن الطفل المسلم كان يأخذ من المواد الأخرى وفق اختياره ، ولم تذكر أدبيات التربية الإسلامية أنها كانت جميعاً إجبارية ، وعلى سبيل المثال فإن المحدثين والفقهاء كانوا يرون أن الركن الأساسي في التعليم الابتدائي هو تعلم القرآن وكانوا يكتفون به كشرط لقبول الطلاب في حلقاتهم (التسليم الأعلى) .

وعندما كان الأوزاعي يرى حدثاً بين الجالسين في حلقة كان يقول له : يا غلام : هل قرأت القرآن ؟ فإن قال نعم ، اختبر حفظه ، فإن تبين له أنه لا يعرف القرآن قال له : اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم (٢٩) . وإذا كان الفقهاء والمحدثون قد اكتفوا بذلك فعمل الأدياء والأطباء والحكماء .. الخ لم يكتفوا به ، بل من الطبيعي أن يفضل الأدياء من حصل حفظاً من الأدب والشعر ، وأن يتطلب الأطباء والحكماء دراية أكبر بالحساب .. الخ ، ومن ثم فإن المنهج كان يضيق ويتسع وفق إرادة الطالب وولى أمره وما يراه المعلم من استعدادات لدى الطفل . وليس بصحيح ما ذهب إليه محمد جواد رضا من أن منهج هذه المرحلة كان واحداً لجميع الأطفال في العصر الإسلامي الأول ثم أصبح مختلفاً بعد ذلك في العصر الأموي والعصر العباسي بصورة خاصة وذلك بسبب ظهور التمايز الطبقي في التعليم ، حيث ظهر بسبب هذا التمايز الطبقي مناهج متعددة في تلك المرحلة : فهناك منهج الكتاتيب التي تضم أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ، ويقتصر على تعليم القراءة والكتابة والحساب وبعض الشعر ، وهناك منهج التعليم المخصوص في المنازل والتصور الذي يتمتع به أبناء الأمراء والأغنياء والوزراء ، ويتسع هذا المنهج ليشمل الأدب والحكمة والتفسير والكلام والشعر والتاريخ والمنطق

والفلسفة ، ثم هناك منهج تعليم الطبقات الحاكمة أبناء الخلفاء وولاية العهد الذى يشمل الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الامم السالفة ، وقد تميز منهج تلك الفئة كما يذكر الباحث بدرجة عالية من التعقيد من حيث المحتوى والهدف نظرا للمسئوليات الاجتماعية والسياسية التى كان يهيا لها هذا النوع من الطلاب (٣٠) . والاقرب الى الواقع التاريخى لتطور الثقافة الاسلامية الا ننسب تعدد المناهج فى تلك المرحلة الى « التمايز الطبقي » وما يقترن به من عوامل اقتصادية ، بل ان نرجع ذلك الى ازدهار العلوم والمعارف الاسلامية ، وما اقترن بذلك من ضرورة الاخذ ببدا التخصص العلمى والتربوى ، ونظرة واحدة الى كتاب مثل مفتاح السعادة ومضباح السيادة لطائى كبرى زادة ، او الفهرست لابن النديم او كشف الظنون على اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ترينا مقدار ما وصلت اليه الثقافة الاسلامية من تعدد العلوم والمعارف فى تلك المصور بحيث أصبح من المحال أن يلم الطالب بكل هذه العلوم والمعارف ، وأصبح من الضرورى أن يتخصص الطالب فى فرع أو أكثر من فروع العلم الاسلامى (٣١) . ومن هنا ظهرت الاتجاهات والمدارس التربوية المختلفة فهناك الاتجاه الفقهي فى التربية ، وهناك الاتجاه الفلسفى والاتجاه الصوفى ، والاتجاه الأدبى ، والاتجاه المهنى والفنى ، وطبيعى أن يختلف اعداد الأديب عن اعداد الطبيب عن اعداد الفقيه .. الخ ، وطبيعى أن يؤثر ذلك الاختلاف على اختصار موضوعات المرحلة الابتدائية كما سبق أن ذكرنا . نعم ، نحن لا ننكر أن العامل الاقتصادى والاجتماعى قد لعب دورا فى إتاحة الفرص التعليمية الأمثل لذوى الاستعدادات العلمية والعقلية من أبناء ذوى السلطة أو الثروة ، ولكن « كتب التراجم » تظهر أن أعلام الثقافة الاسلامية لم يكونوا فى الغالب من أبناء الملوك والوزراء والحكام أو حتى من أبناء ذوى الثروة والمكانة ، بل كانت الغالبية العظمى منهم من أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب التى زعم محمد جواد رضا أنها حرمت من التعليم الفنى فى محتواه وهدفه ومناهجه .

ويذكر لنا ابن خلدون سببا آخر لاختلاف المنهج فى تلك المرحلة ويتمثل

هذا السبب في اختلاف الاقطار الاسلامية في نظرتها الى طبيعة المنهج ، والموضيوعات التي تستحق التركيز : « اما اهل المغرب فمذهبهم في الوجدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط واخذهم في اثناء الدراسة بالرسم ومبائله واختلاف حملة القرآن فيه ولا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعلمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من كلام العرب الى أن يحذف فيه « بينا اهل الاندلس » يضيفون الى ذلك رواية الشعر والترسسل (النثر) وقوانين العربية وحفظها (النحو) وتجويد الخط والكتابة ، ويهتم اهل امريكا بتعليم شيء من الحديث في الغالب بجوار تعليم القرآن » (٢٢) ، وهكذا اختلف محتوى المنهج باختلاف الامصار ، واختلاف التوجيه التربوي والمهني للطلاب .

طريقة التدريس :

راينا كيف يمثل القرآن وحفظه ، الموضيوع الاول للتعليم في تلك المرحلة . وكان التلاميذ قبل تعلمهم للقراءة سواء في الكتاب او المنزل ، يبدأون بحفظ البسور القصيرة بطريقة التلقين والتكرار ، فالمعلم يقرأ السورة آية آية قراءة سليمة ، والطفل يردد وراءه ، ويكرر المعلم ذلك مرات كثيرة حتى يحفظ الطفل (٢٣) ، وكانت تلك القراءة تتم بطريقة جهرية حتى يتأكد المعلم من أن الطفل قد حفظ الآيات حفظا مضبوطا صحيحا ، وكذلك لأن الجهر « يوقظ القارئ ويجمع همه الى الفكر ويصرف سماعه اليه ويطرده النوم ويزيد في النشاط » (٢٤) ، وينبه علماء التربية المسلمون الى ضرورة أن تتم عملية التجفيف بصورة فردية ، لأن اجتماع الأطفال على القراءة يخفى على المعلم قوى الحفظ من الضعيف (٢٥) ، والقراءة الفردية تلاحظ تلك الفروق وترعاها ، كذلك فإن اختبار مقدار حفظ الأطفال ينبغي أن يتم بصورة فردية ، وذلك بأن يختبر المعلم كل طفل في مقدار حفظه ليعلم مقدار ما أصابه الطفل من حفظ أو نقص (٢٦) ، وبذلك كان كل طفل يجد الرعاية التربوية المناسبة له .

وعلى ضوء ذلك « المتابعة الفردية » كانت تختلف الواجبات الدراسية لكل طفل من حيث عدد الآيات المكلف بحفظها كل يوم ، وعدد مرات كتابة اللوح ... الخ .

ثم تأتي مرحلة يطلب من الطفل أن يتعلم الكتابة ، ويظن بعض الدارسين أن الأطفال كانوا يتعلمون الكتابة عن طريق كتابة الحزب الذى سيحفظه فى اللوح الخاص به (٣٧) ، ولكن أدبيات التربية الإسلامية تذكر لنا طريقتين من طرق تعلم الكتابة ، الطريقة الأولى باستخدام ما يسمى برسم المصحف . وغاية تلك الطريقة : حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الامام ، ذلك أن المسلمين كانوا يصرون على عدم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ألف أو غير ذلك ، كذلك « فإن القرآن لابد أن يكتب مفرجا بأحسن خط ولا يصغر ولا تقرط حروفه ولا يخلط به ما ليس منه » (٣٨) . أى أن تعليم الكتابة حسب تلك الطريقة كان يتم باستخدام « النص القرآنى » مع المحافظة على رسم المصحف من ناحية ، وتجويد الخط وتحسينه من ناحية أخرى .

وبجوار تعليم الكتابة عن طريق « النص القرآنى » أو رسم المصحف اشارت أدبيات التربية الإسلامية الى طريقة أخرى تستخدم الادب لتعليم الكتابة ، ولقد لمت اعلام فى تعليم الخط وتحسينه فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس مثل أبى على محمد بن على بن حسن بن مثله الوزير (ت ٣٢٨) الذى قيل عنه أنه « أول من كتب الخط البديع » ثم ظهر فى سنة (٤١٣) صاحب الخط البديع على بن هلال بن البواب البغدادي الذى قيل عنه أنه « لم يوجد فى المتقدمين ولا فى المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه » وصنف حذاق الخطاطين رسائل كثيرة فى طرق تحسين الخط مثل رسالة ياقوت المستعصى وما أورده القلقشندي فى كتابه « صبح الأعشى » عن تحسين الخط (٣٩) ، وبذلك أصبح تعليم الكتابة فنا من الفنون له معلموه ، وله طرقه الخاصة : « ومبنى هذا الفن الاستحسانات الناشئة من مقتضى الطباع السليمة ، ويختلف بحسب الألف والعادة والمزاج بل بحسب كل شخص شخصى وغير ذلك مما يؤثر فى استحسان الصور واستيضاحها ولهذا يتنوع هذا العلم بحسب قوم قوم بل شخص شخص ، ولهذا لا يكاد يوجد خطان متماثلان فى كل الوجوه » (٤٠) ويبدو أن الطريقة الأولى فى تعلم الخط كانت شائعة فى بلاد المغرب وأفريقيا بينما ذاعت الطريقة الثانية فى بلاد المشرق (م ه — الأعداد التربوى للطبيب)

والأندلس (٤١) ، كذلك حفظ الأطفال بعض الأحاديث التي تتناول أصول الدين ومضائل الإسلام وطلب العلم ومنزلة القرآن . . الخ ، وبعض الأشعار المختارة وتدريبوا على إيرادها في المناسبات المختلفة (٤٢) ، وقصت عليهم حكايات الصالحين ، وأخبار الأنبياء وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هذه الأمور متداولة أما عن طريق « الحكاية الشفهية » أو عن طريق القراءة من كتب عدة مثل « صفوة الصفوة » لابن الجوزي ، وروض الرياحين في حكايات الأبرار والصالحين للباغى ، وقصص الأنبياء لابن الجوزي وسيرة ابن هشام وسيرة محمد بن إسحاق وغير ذلك من المؤلفات (٤٣) .

كذلك تدرب الأطفال على العمليات الحسابية ، من الجمع والتفريق والتناسب والضرب والقسمة ، وتعلم المربون المسلمون بأهمية الحساب للمعلم في « ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات بين الشركاء وغيرها ، ويحتاج إليه في العلوم الفلكية وفي المساحة والطب ، وقيل : يحتاج إليه في جميع العلوم ، وبالجمل لا يستغنى عنه ملك ولا عالم ولا سوقة ، وزاد شرفاً بقوله تعالى : « وكفى بنا حاسبين » (الأنبياء آية ٤٧) وقوله تعالى : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : آية ٥) ، وقوله تعالى : « فاسأل العادين » (المؤمنون آية ١١٣) (٤٤) . وقد يدرس الطفل إلى جوار ذلك بعض قواعد اللغة (النحو) لكي يحترز من الخطأ في تطبيق التراكيب العربية على ما يصدر عنه من بيان كتابي أو شفهي ، إذ اعتبروا الجهل بمبادئ النحو الأساسية « لحناً » يستندى الضحك والسخرية (٤٥) .

وبجوار ذلك كله فإن المعلم لابد أن يراقب أحوال طلابه في أدابهم وهديمهم وأخلاقهم وعباداتهم حتى لا يتبادر اليهم مساوئ الأخلاق وتتمكن منهم قبايح العادات ، ويصعب بعد ذلك مفارقتها ، وتؤكد أدبيات التربية الإسلامية على هذا الجانب الأخلاقي ، وترى أن سوء الأخلاق مؤثر على قدرة الطالب على تحصيل العلم والمثابرة على طلبه ، يقول الزرنوجي : « وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة فانها كلاب معنوية ،

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » وإنما يتعلم الإنسان بواسطة ملك « (٤٧) . فكان العلم في تصور الزرنوجي لا يستقيم مع سوء الخلق ، ويرى الزرنوجي أن نعلم الطفل أيضا الآداب والسنن ولا نكتفى بالفرائض فقط ، لأن التهاون في السنن قد يؤدي الى التفريط في الواجبات ، يقول الزرنوجي : « فينبغي لطائب العلم أن لا يتهاون بالآداب والسنن ، ومن تهاون بالآداب حرم السنن ، ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة » (٤٨) ، ويرى عن الشافعي قوله : (٤٩)

شكوت الى وكيع سوء حفظي . فأرشدني الى ترك المعاصي
واخبرني بأن العلم نور . ونور الله لا يهدي لمعاصي .
وتحدث أدبيات التربية الإسلامية عن الوسائل المختلفة التي ينبغي للمعلم أن يتبعها مع طلابه لكي يتأكد من تقدمهم العلمي والأخلاقي في حدود قدرة الطالب ورغبة ولي أمره : فهناك الترغيب والترهيب والإيناس والإيحاش والأمراض والاقبال والحمد مرة والتوبيخ مرة أخرى ما كان ذلك واقيا ، فإن احتاج (المعلم) الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء قبل . بعد الإرهاب الشديد واعداد الشفاء — فإن الضربة الأولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها واشتد منها خوفه ، واذا كانت الأولى خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به « (٥٠) ، كما يقول ابن سينا والواقع أن أكثر أدبيات التربية الإسلامية تسمح بالجوء الى العقاب الجسماني (الضرب) بعد استنفاد الوسائل الأخرى وأن كانت تضع له بعض الحدود والشروط مثل : ألا يضرب المعلم وهو غاضب ، حتى لا يكون الضرب مجرد التشفي ويتجاوز دوره التربوي ، وأن يكون الضرب في مكان مأمن من جسم الطفل ، وأن يستخدم المعلم درة رطبة ليئة ، وأن يكون الضرب من ثلاث الى عشر لا تزيد عن ذلك . الخ (٥١) .

سن التعليم ومدته :

متى يبدأ الطفل في التعلم ؟ حاول بعض الباحثين أن يحدد السن التي بدأت فيها عملية التعليم — فذهب ابراهيم سلامة عند تناوله للتعلم عند الزرنوجي أن الطفل بعد أن يتلقى التعليم في المنزل يذهب الى الكتاب في السابعة من عمره واستشهد على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « علموا أولادكم الصلاة إذا كانوا بنى سبع وأضربوهم عليها إذا كانوا بنى عشر » (٥٢) . وواضح أن الحديث لا يستنتج منه ضرورة أن يبدأ التعليم في السابعة ، وهناك شواهد كثيرة من كتب التراجم على أن الطفل كان يبدأ التعليم قبل ذلك بكثير ، فهذا ابن عبد الله التستري حفظ القرآن وعمره ست أو سبع سنوات ، والامام الشافعي حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين (٥٣) مما يدل على أنهم بدءوا التعليم قبل ذلك بكثير ، وابن سينا يذكر عن نفسه أنه بدأ التعليم في السادسة من عمره « فلما بلغت السادسة أسلمت نفسي للتعليم » واعتمد ابن سينا على تجربته الشخصية فنصح بأن يبدأ الطفل التعليم في هذه السن فقال : « وإذا أتى عليه (الطفل) من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم الى المؤدب ، والمعلم » ورأى أنها سن مناسبة فيها « تشدد مفاصل الصبي ويستوى لسانه ويتهيأ للتلقين ويعى سمعه » (٥٤) . مما سبق يتضح أنه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل في التعليم وإنما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان فإذا وجدوا أن الطفل بدأ في التمييز والادراك دفعوا به الى « الكتاب » أو « المؤدب » . يقول أبو بكر بن العربي في ذلك : « وللتوم في التعليم سيرة بدیعة وهو أن الصغیر منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب » (٥٥) . فالمعيار لم يكن تحديد سن معينة فيها يبدأ التعليم بل اختلف ذلك باختلاف نضج الصبيان وتقدمهم في الفهم والتمييز . ولقد ظل علم النفس التربوي مدة طويلة يرى أن السادسة هي سن النضج المناسبة لبداية التعلم ، ولكن تغيرت تلك النظرة ورأينا بلادا مثل انجلترا يبدأ التعليم فيها من الخامسة ، مما يؤكد على أن الاستعداد للتعليم ليس مرتبطا بسن محددة بل له عوامل متعددة ترجع الى الفروق الفردية بين الأطفال في معدل النمو والظروف الثقافية التي يعيش فيها كل طفل .

وإذا كانت التربية الإسلامية لم تحدد سنا لبداية التعليم وتركت ذلك لتقدير الآباء والمعلمين فإنها لم تحدد أيضا عدد السنوات التي لابد أن يقضيها الطفل في تلك المرحلة . وليس صحيحا ما ذهب اليه الأهوائي أن الثانية عشرة كانت هي السن التي ينتهى عندها تعليم الصبى في الكتاب في الغالب . وقد اعتمد في ذلك على نص للقباسي يقول فيه : « وانه ينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده بأن يهازل الاحتلام أو تكون له جراحة » . فقد أخذ من هذا النص أن قلته من الصبيان كان يظل في الكتاب حتى سن الاحتلام الذي يتراوح عند الذكور بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة أما أغلب الصبيان فقد كان ينتهى من حفظ القرآن قبل ذلك . ورأى الأهوائي مبنى على أن التعليم يبدأ في السادسة ، وأن أهم ما كان يعلم في الكتاب هو حفظ القرآن ، فإذا بدأ الصبى في تعلمه في سن السادسة مثلا فإنه يحتاج الى أربع سنوات أو الى خمس ليتم حفظ القرآن وهو المعروف بالختمة (٥٦) . ولكن شواهد « التربية الإسلامية » تدل على خلاف ذلك من عدم تحديد بداية سن التعليم ، وعدم تحديد نهاية تلك المرحلة الابتدائية فقد كان ذلك يتوقف على استعدادات الطفل وامكانياته العقلية ، ويتوقف على ما يريده الطفل أو ولى أمره بعد ذلك من أنواع التعليم . ولم تكن هناك عوائق تحول دون الطفل النجيب وبداية التعلم مبكرا ، أو الانتهاء منه في سن متقدمة ، فهذا قتادة يحفظ القرآن كله في سبعة أشهر ، وهذا عبد الله التستري يحفظه وعمره ست أو سبع سنوات ، وتاج الدين الكندى يكمل القراءات العشر وله عشرة أعوام ، والامام الشافعى يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم يحفظ الموطأ ويستوعب مسائل الفقه حتى يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : أنت يا أبا عبد الله فقد والله أن لك أن تفتى ، وكان سفيان بن عيينة إذا ساءه شيء من الفتيا أو التفسير التفت الى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام . أما ابن سينا فقد حفظ القرآن وشيئا من الأدب ومن أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة في العاشرة من عمره (٥٧) وسواء كانت الدراسة في الكتاب أو على يد المعلم الخاص « فقد كان الطفل يمضى في دراسسته الى حيث يحمله استعدادده وامكانياته التعليمية ، وكان يتخرج من الكتاب

- ٧٠ -

أو على يد المعلم الخاص حينما كان يكمل ما كان يتوقع من الطلاب اكماله
اعتياديا حسب تقدير المعلم « (٥٨) » .

المعلم :

اهتمت أدبيات التربية الاسلامية اهتماما كبيرا بشخصية المعلم
ورفعت من منزلته ورأت أن وظيفته من أشرف الوظائف ، ذلك أن أشرف
مخلوق على الأرض هو الانسان والمعلم مشغول بتعليم هذا الانسان ،
وتهذيبه وارثا لعهده ومن ثم فإن وظيفته هي أشرف المهن وأفضلها على
الاطلاق (٥٩) . وقد تناولت تلك الأدبيات ما ينبغي أن يكون عليه المعلم من
خلق وعلم وورع ، وحددت واجباته نحو طلابه ، وواجبات طلابه نحوه
بصورة مفصلة وأوجبت له من الاحترام والتوقير ما هو أهل له (٦٠) .
يقول الزرنوجي : « اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به الا
بتعظيم العلم وأهله ، وتعظيم الأستاذ وتوقيره ومن توقير المعلم أن لا يمشی
أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدئ بالكلام عنده الا باذن ، ولا يكثر
الكلام عنده ولا يسأل شيئا عند ملاقاته ويراعى الوقت ولا يدق الباب بل
يصبر حتى يخرج الأستاذ ، فالحاصل أن يطلب رضاه ويجتنب سخطه
ويمثل أمره في غير معصية الله تعالى فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية
الخالق (٦١) . ولذلك أدرك المربون المسلمون مبكرا كيف أن المعلم لا يمكن
أن يقوم بدوره الا اذا نال ما يستحق من عناية واحترام وأن المعلم الذي
يفتقد الشعور بالحرية والكرامة الشخصية لا يمكن أن يكون ذا تأثير
إيجابي على الطلاب ، إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه ، كذلك فإن الطالب
الذي يتأذى منه أستاذه « يحرم بركة العلم ولا ينتفع بالعلم الا قليلا »
ويروون في ذلك : (٦٢)

ان المعلم والطبيب كلاهما . لا ينصحان اذا هما لم يكرما

فأصبر لدائك ان جفوت طبيبه . واقنع بجهلك ان جفوت معلما

وقد نال المعلم في التربية الاسلامية ما يستحق من عناية ورعاية
مادية وأدبية بما في ذلك معلم الكتاب أو « المؤدب الخصوصي » وتحفل
أدبيات التربية الاسلامية وكتب التراجم بصور كثيرة من تلك العناية

والرعاية والتبجيل ، والتي وصلت أحيانا الى حد المبالغة ولكنها تعكس لنا روح العصر ، ومقدار توقير المعلم في المجتمع الاسلامي . ومن ذلك ما حكى أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه الى الأصمعي ليعلمه الادب فرآه يوما يتوضأ ويفسسل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله ، فعاتب الأصمعي بقوله : « أنا بعثته اليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء باحدى يديه ويفسل بالأخرى رجلك » (٦٣) .

ويرى بعض الدارسين أن « معلم الكتاب » لم يتمتع بهذا التقدير والاحترام ، وإنما كان ذلك من نصيب معلمي المعاهد العليا ، ويستشهدون على ذلك ببعض ما رواه الجاحظ عن سوء تقدير الناس لبعض معلمي الكتاتيب في عصره ويردون ذلك الى قلة بضاعة هؤلاء المعلمين في العلم أو ما اشتهر عنهم من جشع وحرص على استغلال الوظيفة (٦٤) . بينما نجد باحثا آخر يرى أن « معلم الكتاب » لم يكن أهلا للاحترام والتقدير نتيجة « للتمايز الطبقي » الذي شهدته المجتمع الاسلامي في العصور الأموي والعباسي ، وما ترتب على هذا التمايز الطبقي من طبقية في التعليم بحيث أصبح هناك تعليم للأغنياء وآخر للفقراء وأبناء الطبقات المتوسطة وطبقي . أن يجتذب تعليم الأغنياء أفضل العناصر من المعلمين الذين ينالون كل التقدير والاحترام المادي والأدبي ، أما معلمو الفقراء وسواد الشعب (معلمو الكتاتيب) فهم يمثلون أوطأ درجات السلم المهني ثقافيا واجتماعيا يقول هذا الباحث : « كان التعليم في البداية واحدا لجميع الأطفال ، وكان المعلمون في جميع المراتب يتمتعون باحترام عظيم وقد استمر معلمو المعاهد العليا يتمتعون بهذا الاحترام حتى النهاية ، غير أن منزلة معلم الكتاتيب هبطت مع مرور الزمن الى الدرجات السفلى من المراتب الاجتماعية . وكان سبب ذلك ظهور التمايز الطبقي في التعليم في العصر الأموي وفي العصر العباسي بصورة خاصة . إذ لم يعد الآباء المقندرون ماليا يرسلون اولادهم الى الكتاتيب بل صاروا يستأجرون لهم المعلمين الخصوصيين . من هنا انقسم المعلمون الى ثلاث طبقات اجتماعية متميزة : أولها معلمو الكتاتيب الذين كانوا يقومون بتعليم الطبقات المتوسطة

وسواد الشعب وكانوا يمثلون أوطاً درجات السلم المهني ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، وثانى هذه الطبقات ، معلمو أبناء الطبقات العليا في المجتمع : الأمراء والوزراء والأغنياء وكان هؤلاء يدعون « بالمؤدبين » على حين كان أعضاء الطبقة الأولى يسمون المعلمون . أما أبناء الخلفاء وولاة العهد فكان لهم معلوهم الخاصون بهم ، وكان هؤلاء من العلماء الأعلام ذوي الاطلاع الواسع في الثقافة العربية والإسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة وكانوا بهذا يمثلون ذروة المهنة التعليمية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وقد سموا بحق « كبار المؤدبين » وكان منهم سيبويه والكسائي والأصمعي (٦٥) .

والواقع أن هذا التفسير الطبقي لمنزلة المعلم ونوعيته واعداده تفسير لا يستقيم مع الواقع التربوي الاسلامي . والا فهل كان الضحاک ابن مزاحم (١٠٥ هـ) والکمي بن زيد (١٢٦ هـ) وعبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ) وغيرهم من الأسماء اللامعة في المجتمع الاسلامي والذين كانوا معلمين كتاتيب (٦٦) هل كانت مثل هذه الأسماء تحتل أوطاً السلم المهني ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ؟ وهل هناك أدلة على أن هؤلاء العلماء الأعلام ذوي الاطلاع الواسع في الثقافة العربية الإسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة أمثال سيبويه والكسائي والأصمعي ممن يذكروهم الكاتب ، قد اقتصوا بالفعل بتعليم أبناء الخلفاء وولاة العهد فقط دون أن يكون لهم بجوار ذلك حلقاتهم العامة التي انتظمت من سماعهم البهاث أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ؟ الواقع أن الشواهد التعليمية الكثيرة تؤكد خلاف ذلك تماما . فقد نال معلم الكتاب ، ومعلم الأدب ، ومعلم الخط ما يستحقونه من الاحترام ، وظلوا متمتعين بتلك المنزلة في عالمنا الاسلامي الى وقت قريب ، ولعلمهم لم يعانوا شـيئا من الهوان الا في ظل الاتجاهات العلمانية ، وموجات الاستعمار والتفريب التي جرفت العالم الاسلامي خلال القرن التاسع عشر وما بعدها ، اذ أصبح احتقار معلم اللغة العربية والقرآن سياسة عامة ليس على مستوى المرحلة الابتدائية فقط بل وعلى جميع المستويات التعليمية (٦٧) .

ادارة التعليم وتنظيمه وتمويله :

ولعل اكثر الدراسات التى تناولت ادارة التعليم الاسلامى وتنظيمه وتمويله قد تناولته وهى متأثرة بالنظم المعاصرة ، ولم تستطع أن تدرك الفارق الكبير بين نظام ادارى وسياسى يقوم على القيادات الثلاثية الشعبية فى الادارة وفى تقديم الخدمات Public Service (النظام الاسلامى) ، ونظام آخر يقوم على القيادات القانونية التى تتدخل السلطات فى تنصيبها ومن ثم يكون لها يد فى توجيهها وتبديلها (النظم الوضعية) (١٨) ، ان التعليم كخدمة عامة Public Service قد قام بها المسلمون انفسهم نحو أولادهم وهم الذين أشرفوا عليه تنظيميا وادارة وتمويلا ، ولم تتدخل الدولة فى ذلك الا ما ورد من انشائها للكتاتيب الخاصة بالآيتام ، وتكليفها « رجال الحسبة » بمراقبة الكتاتيب للتأكد من أن المعلم « لا يدرس الا لعدد محدود من الصبيان ، فإذا كثر التلاميذ أمروه أن يعين مساعدين له يتناسب عددهم مع عدد التلاميذ بحيث يكون لكل فقيه عدد قليل من الصبيان » . قال ابن عبدون : ويجب للمؤدب الا يكثر من الصبيان ، ويمنعون من ذلك فانه لن يستطيع أن يعلمهم شيئا على ما ينبغي » (١٩) ، وأما ما وراء ذلك فقد ظل التعليم الاسلامى بجميع مراحلها ، شأننا من شئون الأفراد لا تتدخل الدولة فى رسم سياسته أو متابعة برامجها أو الصرف عليه ، تلك هى القاعدة العامة أما الاستثناء فهو وارد ايضا فى كتب التربية الاسلامية ، عندما استخدمت الدولة الشافعية الأزهر مثلا لنشر مذهبها الشيعى ، وعندما استخدم صلاح الدين الأيوبي « المدارس » لنشر المذهب السنى (٧٠) ، ولكن مع وجود هذه الشواهد التاريخية على تدخل الدولة فى التعليم الاسلامى فقد ظل هذا الاتجاه محدود التأثير ، وظل التعليم الاسلامى بصفة عامة ، والتعليم الابتدائى بصفة خاصة تعليميا شاميا ينظمه الشعب ويموله بعيدا عن تدخل الدولة .

وإذا كانت الدولة الاسلامية لم تضع النظم التعليمية المحددة ولم تتحكم فى ادارة التعليم وطابع الدراسة ومناهجها وتركت ذلك ليكون شأننا

من ثنئون الامراد — الا أن ذلك لم يمنعها من تشجيع التعليم بصفة عامة ، والعمل على تيسيره وتسهيله ، لقد كانت تمده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق تقديم مكافآت للعلماء ، وتفرغ بعضهم لتتقيد الجاهير في المساجد ، وفتح مؤسسات تربوية لغير القادرين على التعليم (مكاتب الفقراء والأيام) وتقديم تسهيلات علمية (المكتبات) وإنشاء مؤسسات متخصصة بفروع معينة من العلوم والمعارف (مثل المدارس والبيمارستانات) الى غير ذلك من ضروب تشجيع العلم وتيسيره وتسهيله والتي مارسها الخلفاء والحكام المسلمون عبر العصور ، أى أن الدولة الاسلامية كانت تمارس صورا متعددة من تشجيع التعليم وتيسيره ولكنها نادرا ما تدخلت تدخلا مباشرا في ادارة التعليم وتنظيمه ، وفارق كبير ما بين التشجيع والتيسير وبين احكام الرقابة والسيطرة الادارية والتنظيمية على التعليم ، ولقد اعتمدت الدولة في ذلك على « الروح الاسلامية » السامة التي تدفع المسلم الى طلب العلم وتحثه على ذلك من المهد الى اللحد ، واعتمدت على الروح الاسلامية الجماعية التي تحث الامراد على التعاون فيما بينهم للقيام بالخدمات العامة ورعاية مصالح الآخرين .

فتماليم الاسلام تدفع الناس الى ضرورة تعليم اولادهم ، وتدفع المعلمين الى ضرورة نشر علمهم ، واذا كان بعض المعلمين قد اففتح « كتابا » لتعليم الاطفال نظير أجر معين ، فقد وجد أيضا من لا يأخذ الأجر على التعليم أخذا بحديث عبادة بن الصامت قال : « كان رسول الله يشغل فإذا قدم الرجل مهاجرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه الى رجل منا يعلمه القرآن ، فدفع الى رسول الله رجلا كان معي في البيت أمشي به عشاء البيت ، وكنت أقرئه القرآن ، فانصرف الى أهله ، ورأى أن عليه حقا ، فأهدى الى قوسا لم أر أجود منها عودا ولا أحسن منها عطفيا ، فأتيت الرسول فقلت : ما ترى يا رسول الله ؟ قال : حرة بين كتفك تعلقتها أو تقلدتها » (٧١) ، ولقد ناقشت أدبيات التربية الاسلامية موضوع جواز الأجر على التعليم ، ورغم أنها أجازته الا أن « الدوافع الاسلامية »

ظلت تدفع الكثيرين الى تعليم الناس مجانا ، وتابى أن تحول العلم الى حرفة ، ولذلك رأينا بعض أعلام الثقافة الاسلامية يحترقون أعمالا أخرى يكتسبون منها ليشأروا التعليم « حسبة » ابتغاء وجه الله ، وظلت الكثير من المساجد طوال العصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث تقدم الوانا من « التعليم الاسلامى الاولى » للأطفال يقوم به معلمون بدون أجر ابتغاء وجه الله ، وكلما كان الدافع الاسلامى قويا كلما كثر عدد هؤلاء الذين يقدمون التعليم بدون أجر ، وكثر عدد هؤلاء الذين يفضلون كسب قوتهم بالعمل في مجالات التجارة أو الحرف مع ممارسة تعليم الناس تطوعا ، ونصح طلابهم باتباع ذلك مثلهم (٧٢) .

أما هؤلاء الذين اتخذوا مكانا لتعليم الأطفال ، واخذوا اجرا نظير تفرغهم لهذا العمل فقد كانوا يديرون هذا الكتاب بأنفسهم اذا كان عدد الطلاب محدودا ، وقد يشترك معلمان أو أكثر في التعليم اذا كان عدد الطلاب كبيرا ، ويدفع الآباء بأبنائهم الى هؤلاء المعلمين نظير أجر يدفعونه اليهم ، وقد يدفع هذا الأجر شهريا أو سنويا أو بهتدار تعلم الصبى ، ويقضى الصبى يوما دراسيا كاملا في الكتاب تحت رعاية معلمه ، يبدأ هذا اليوم الدراسى من الصباح الباكر ويستمر حتى الظهر ، حيث ينصرف الأطفال لأداء الصلاة وتناول طعام الغداء ، ثم يرجعون بعد الظهر ويظلون بالكتاب حتى آخر النهار ، وجرت العادة أن تعطل الدراسة بالكتاب بعد ظهر الخميس وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعود الطفل الى « مكتبه » صباح السبت (٧٣) .

ولا شك أن الأخذ بنظام اليوم الدراسى الكامل قد أتاح للمعلم الفرصة الكافية للإشراف على تربية الطفل ، كما أتاح للأطفال أن يعيشوا حياة جماعية يستفيدون فيها من تجارب غيرهم وينتفعون بهذا التفاعل الاجتماعى الذى يحدث فيما بينهم (٧٤) .

وكانت عملية التعلم تضى بطريقة غير جامدة ، اذ لم يكن من اللازم أن يحفظ الصبى القرآن كله ، الا اذا كانت تلك رغبة أبيه ، ولم يكن من

اللازم أن يأخذ كل الأطفال كما معنا من الموضوعات الدراسية ، ولم يكن من اللازم أن يصل كل الأطفال الى نفس المستوى التحصيلي في وقت محدد ، بل روعيت الفروق الفردية ، فهناك الاذكياء والموهوبون وهناك المتوسطون ، ويتشكل المنهج ، وتطول مدة التعليم أو تقصر وفق القدرة العلمية لكل طفل ، وقد جمع « الكتاب » الواحد مستويات تعليمية متعددة .
وقدم موضوعات دراسية مختلفة ، وروعى الأطفال العاديين والأطفال الموهوبون في ذلك كله بإضافة مواد دراسية Enrichment أو تكوين مجموعات خاصة Special Grouping وإتاحة الفرصة للقادرين علميا أن يتقدموا بسرعة في دراستهم Acceleration الى غير ذلك من الأساليب التي نحاول تطبيقها في عصرنا الحديث فنصيب بعض النجاح والكثير من الفشل (٧٥) .

وكانت عملية « التقويم » عملية مستمرة تتم بصورة فردية في الغالب ، فالمعلم يتابع الطفل في قراءته للوحة قراءة نموذجية صحيحة ، ثم يمتحنه فيما حفظ كل يوم ، ويرى أعماله التجريبية ، ماذا أخطأ الصبي في الكتابة والهجاء أو الحفظ ، وأهل أو انصرف الى اللعب والمبت دون الدرس والعلم ، أو هرب من الكتاب ، عاقبه المعلم بالنصح تارة والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ان لم تغلح النصائح ولم يجد التهديد ، وإذا جاز الصبي مرحلة التعلم في الكتاب جاز امتحانا فيما حفظ من القرآن والخط وخلافه ، وكان اكمال الطفل لحفظ القرآن ويسمى « بالختمه » مناسبة علمية يكرم فيها المعلم والتلميذ ، وينالان من أسرة الصبي الكثير من الهدايا ، وكانت عملية التقويم هذه تتم في الغالب بالتعاون بين الأستاذ وأهله ، فالمعلم على صلة دائمة بأسرة الصبي ، وهو يبلغهم عن أحوال طفلهم العلمية والأخلاقية ، باستمرار ويتشاور معهم فيما يدور من مشكلات . ولما كان الآباء يهتمون بنصيب طفلهم من العلم والأخلاق معا ، فقد شملت عملية التقويم البعدين معا ، البعد العلمى والبعد الاخلاقى .

وكان تمويل التعليم الابتدائى سواء كان تعليميا خاصا في المنازل أو تعليميا عاما في الكتاتيب ، يقوم به الآباء نحو أبنائهم ، أو يقوم به

القادرون نحو اقاربهم الفقراء ، أو غير اقاربهم من أبناء المسلمين ، وأبرز التطبيق العملي لمبادئ الاسلام صورا من التضامن الشعبى فى مجال الخدمات التعليمية ، وبرزت مصطلحات مثل « أهل القرية » و « أهل المصر » و « أهل الحضر » و « أهل الجماعة » - جماعة المسجد - كصور من صور التضامن الشعبى للقيام بالخدمات العالية ومنها الصحة والتعليم (٧٧) ، ومن هنا لم تكن الدولة محتاجة الى صرف على التعليم وتمويله الا فى أضيق الحدود كما سبق أن ذكرنا . وبالرغم من ذلك ، أو لعل بسبب ذلك ، انتشرت مؤسسات التعليم الابتدائى فى كل مكان من أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث لم توجد مدينة أو قرية من القرى الا ووجدنا فيها لونا من ألوان هذا التعليم يتناسب وحاجات أفرادها يومئذ ، « أهل جماعة القرية » لأطفالها ويتولون تنظيمه والإشراف عليه وتمويله (٧٨) .

تقييم التعليم الابتدائى الاسلامى :

بعد أن عرضنا لهذا التعليم الابتدائى الاسلامى نحس أن نعرض هنا بإيجاز لبعض الآراء التى هاجمت هذا التعليم من حيث تنظيمه وأهدافه ومحتواه وسنرى أن تلك الهجمات تأخذ « الثوب العلمى » ظاهريا وتعتمد على بعض معطيات العلوم التربوية الحديثة دون أن تملك الأصالة العلمية اننى تستطيع بها أن تتمثل تلك العلوم التربوية ، وأن تخضعها لمطالب مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، كما سنلاحظ أيضا أن بعض هذه المثالب التى أخذها البعض على التعليم الابتدائى الاسلامى إنما ظهرت فى أعين هؤلاء الدارسين كمثالب لعدم فهمهم لروح الاسلام وتعاليمه ، ولو توفر هذا الفهم لديهم لأدركوا فى الغالب أنها ليست مثالب بل مميزات وخصائص للتعليم الاسلامى .

من ذلك مثلا ما يقال من أن الهدف من التعليم الابتدائى الاسلامى إنما كان هدفا دينيا بحثا يتركز فى حفظ القرآن وما يتصل به من تعليم القراءة والخط (٧٩) ، ولقد تجاهل القائلون بذلك تنوع المنهج فى تلك المرحلة واختلافه باختلاف الظروف على نحو ما بينا ، أما كل ما يقال

هول حفظ القرآن بدون فهم في تلك المرحلة ومخالفة ذلك لقواعد علم النفس الحديث ، فهو قول يعود في أكثره الى عدم تقدير المنزلة التي يحتلها القرآن في حياة الجماعة الإسلامية خصوصا لدى الطبقة المثقفة التي ستقود المجتمع فيما بعد ، وغ عنك الأفراد العاديين الذين لا يستغنون عن حفظ شيء من القرآن لاستخدامه يوميا في صلواتهم .

كذلك فإن هذا القول يقلل من ادراك أهمية الدوافع الاجتماعية والنفسية التي كانت تدفع الطفل المسلم الى حفظ القرآن وتجعله يستسيغ هذا المجهود الذهني الجاد ، فقد كان المجتمع ينظر نظرة اعزاز وتقدير لمن يحفظ القرآن ، يقول ابن حنبل : « كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدد فينا » أى عظم بيننا ، فماذا عن الحافظ للقرآن الكريم كله ؟ اذ لا شك أن هذا التقدير الاجتماعي قد دفع الكثير من أطفال المسلمين الى حفظ القرآن الكريم لينالوا احترام المجتمع وتقديره . ان الطفل يسعى دائما الى « التقدير الاجتماعي » ويسعى الى كسب رضا الآخرين ، وما دام سيجد في حفظ القرآن الكريم احتراماً وتقديراً فلا عليه أن يفعل ذلك ، بجوار أن هذه السن هي أكثر الأعمار مناسبة للحفظ وكلما تقدم الطفل في السن كلما قلت ملكة الحفظ ، بجوار أن ما يحفظه في تلك المرحلة يكون أوضح وأعمى للتذكر، ولعل ما يؤكد وجهة النظر هذه ما ذهب اليه بلارد Ballard من أنه « اذا استظهرنا قطعة من الشعر فإن المقدار الذي نتذكره منها يزداد بعد بضعة أيام من تاريخ الحفظ بدلا من أن يبلغ اقصاه عقب الحفظ مباشرة ، وقد ينسى الانسان بعض الالفاظ وبعض العبارات التي كان يحفظها عن ظهر قلب ولكنه يستبدل بها عبارات والفاظا أخرى تبرز من نفسها بعد فترة الاستقرار ، وهذا التذكر واضح جدا عند صغار الأطفال ولكن يقل كلما تقدم الانسان في السن فاذا وصلنا الى مرحلة الرجولة أخذ ينقرض أو يتلاشى » (٨٠) .

كذلك ينظر بعض الباحثين بعين الازدراء الى عملية الحفظ هذه ويزرون أنها نوع من التدريب على التذكر اللفظي وهي عملية من العمليات

العقلية الموضعية التى لا تقتنر بالذكاء ولا قوة الإدراك * . وأبدوا وجهة نظرهم هذه « بأن كثيراً من البلهاء وضعاف العقول ينعمون بذاكرة قوية ، وبعض الأذكاء ذاكرتهم ضعيفة ، ولكن ازدياد الذاكرة والنظر اليها هذه النظرة القليلة الاهمية فيه بعد عن الحقائق النفسية ، وتدل نتائج البحث فى الأمراض النفسية على أن فقدان الذاكرة يؤدي الى اضطراب الحياة العقلية وفساد السلوك ومما لا شك فيه أن الذاكرة الجيدة تخدم علماء الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوان لأنهم فى حاجة الى استظهار كثير من القوانين الرياضية والمعادلات الكيميائية التى تتألف منها مبادئ المعرفة الصحيحة الضرورية ، ولا يستطيع الإنسان اجادة اللغة دون معرفة كثير من الالفاظ وثواعد النحو والصرف ، وقد ظن كثير من علماء النفس والتربية أن هناك تعارضاً بين الذكاء والذاكرة ، والحقيقة على خلاف ذلك لأن موهبة الذكاء وحسن التفكير مما يخدم الذاكرة فى سرعة التحصيل وجودة الحفظ وسهولة الاسترجاع وفى ذلك يقول وليم جيمس : « إن فن التذكر هو فن التفكير » (٨١) .

كذلك هوجمت التربية الاسلامية عموماً والتربية فى المرحلة الابتدائية خصوصاً لأنها لم تعتن « بالتربية الفنية » لدى الأطفال ، وما دامت مناهج تلك المرحلة لم تشمل على الفنون الجميلة التى يشتمل عليها المنهج المعاصر وخصوصاً الموسيقى والتصوير ، فهذا يدل على انعدام الشعور بأهمية التربية الفنية والجمالية فى التربية الاسلامية ، وهذا وهم باطل كما يقول الاهوانى « فالفنون الجميلة فى الاصطلاح هى الموسيقى والتصوير

* فى الواقع ان قضية حفظ القرآن الكريم فى المرحلة الابتدائية من القضايا التربوية الهامة التى تستحق دراسة مستقلة تستخدم الأسلوب التجريبي لقياس الفروق بين أطفال يحفظون القرآن وآخرين لا يحفظون من حيث الطلاقة اللغوية ، والنجاح الدراسى ، والقيم والاتجاهات ... الخ ، ودراسات أخرى تتناول أمثل الطرق التجريبية التى ينبغى اتباعها لحفظ القرآن فى تلك المرحلة .

والنحت والزخرفة والعمارة ، وعناية الغربيين اليوم — وهى عناية ورثوها عن اليونان — هى تعليم الموسيقى والتصوير ، أما الاسلام فقد استعاض بهذين الفنين بالنسبة للأطفال فنونا أخرى جميلة هى الخط والشعر والزخرفة العربية . ولا ينبغي أن يذهب عن بالفنا أن القرآن نفسه فيه موسيقى سماوية أسمى من الشعر وبخاصة فى السور القصار ، ومن أجل ذلك يتغنى الأطفال بالقرآن عند حفظه فطرة وسليقة ويزين القراء التلاوة بالصوت الحسن « (٨٢) ، فإذا كانت التربية الغربية لها فنونها الجميلة الخاصة بها ، فهل يؤخذ على التربية الإسلامية أن تكون لها أيضا فنونها الجميلة الخاصة بها ، من لوحات خطية بديعة ، وزخرفة عربية منمقة ، وموسيقى قرآنية وشعرية ... الخ ؟ * .

كذلك أخذ على التربية الإسلامية فى تلك المرحلة أنها أخذت بأسلوب « العقاب الجسائى » وصوروا المعلم على أنه انسان فظ القلب ، يهوى بدوته على الأطفال بدون دراية بمعطيات علم النفس التى تذهب الى أن أخطاء الطلاب لا تدل على حاجتهم الى العقاب بقدر ما تدل على وجود شيء خاطئ فى المنهج أو فى طرق التدريس أو فى الظروف المادية والمعنوية للعملية التعليمية (٨٣) ، ولقد سبق أن ذكرنا متى يجوز استخدام أسلوب الضرب ؟ وشروطه . ونحب أن نؤكد هنا أن أدبيات التربية الإسلامية قد حذرت من الانقراط فى اللجوء الى هذا الأسلوب لما ينتج عنه من أضرار تربوية ونفسية ، يقول ابن خلدون : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ، ودما الى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه » (٨٤) . أى أن التربية

* يحتاج تعليم الفنون الجميلة فى تلك المرحلة الى دراسات أعمق حول الفنون الجميلة الإسلامية التى تتمثل فى الخط الكوفى والشعر والزخرفة العربية والموسيقى القرآنية وكيفية تدريس تلك الفنون الجميلة فى عصرنا الحديث وكيف نرعاها ونطورها فى مدارسنا المعاصرة .

الاسلامية انما استخدمت الضرب في اضييق حدوده ، ورعت أن يكون استخدامه مؤثرا من الناحية التربوية ، وبلغه علم النفس فان ضربة العصا تؤلم الصبي فتؤدى الى امتناعه عما يفعل حتى لا يقع عليه الضرب مرة ثانية ، والاتسان بطبيعته مفطور على الاقبال على ما يسره والابتعاد عما يؤله ، والذاكرة تلعب دورا هاما في ذلك اذ يستعيد الصبي سبب أوجاعه ويستحضر في ذاكرته الموقف الذى ضرب فيه فيعمل على ابعاده كل ذلك وبهذا يستقيم ، أما المبالغة في الضرب فتؤدى الى البلادة وانعدام الالم الذى به يتم الانصراف عن الاعمال القبيحة والسلوك الذى يراد تغييره وعدم تكراره (٨٥) .

كذلك أخذ على التربية الاسلامية خصوصا في تلك المرحلة انها تربية جادة صارمة لم تراع حاجات الاطفال الى اللعب والترويح على النفس ولم تعرف ألوان الاعشاب التربوية والترويحوية التى تعرفها مدارسنا في العصر الحديث ، والواقع أن ادبيات التربية الاسلامية لم تغفل ضرورة الترويح عن الطفل دفعا للسمامة فابن سينا يحذر من أن يحمل الاطفال على ملازمة الكتاب مرة واحدة حتى لا يتعرضوا للسام ، والفزالي يلفت نظر المسلم الى ضرورة الاهتمام بلعب الطفل والترويح عنه فيقول : « وينبغي أن يؤذن له (الصبي) بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جديلا يستريح اليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب في اللعب فان منع للصبي من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يبيت قلبه ويبطل ذكاه وينقص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه راسا » ، ويقول في مكان آخر ، « ويعود الصبي في بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » (٨٧) ، والزرنوجي يحذر الصبي من أن يجهد نفسه جهدا يضعف النفس حتى ينتقطع عن العمل بل يستعمل الرفق في ذلك ، والرفق أصل عظيم في جميع الأشياء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض نفسك في عبادة الله تعالى ، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » (٨٨) ، لذلك كله فان الأسبوع الدراسي في الكتاب خمسة أيام ونصفا فقط ولم يكن اليوم (م ٦ - الاعداد التربوي للطبيب)

الدراسى فى الكتاب يقضى كله فى الدراسة بل لم يخل الامر من احاديث يتبادلها الاطفال ومفترات راحة ينالونها . فاذا بقى بعد ذلك ظل من الصرامة والجدية فهى صرامة تقتضيها ظروف العصر وقلة التسهيلات العلمية والمادية الميسرة للطلاب فى ذلك الوقت ، وعظم الشعور بالمسئولية التربوية التى احس بها الآباء والمعلمون نحو تربية الصبيان .

كذلك اخذ على التربية الاسلامية فى تلك المرحلة انها ظلت طوال العصور الاسلامية عملا شعبيا يتم بصورة عشوائية غير منتظمة ، وأن الدولة قد فشلت فى تقديم نظام تعليمى عام موحد لجميع الاطفال تشرف على تنظيمه وادارته . وأن الخلافة الاسلامية قد فقدت فرصة تقديم نظام تعليم حكومى فى ثلاث مناسبات تاريخية هامة :

الأولى : عندما انشأ عمر بن الخطاب الدواوين ووضع لها نظما الخاصة وكان فى امكانه أن يضع أيضا نظاما عاما للتعليم ولكنه لم يفعل .

والثانية : عندما أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين ولم يقدم نظاما تعليميا عاما لتربية الكوادر اللازمة لهذا الأمر .

والثالثة : عندما حاول المأمون أن يفرض رأيا فلسفيا فى خلق القرآن من طريق القوة والارهاب دون أن يلجأ الى انشاء « نظام تعليمى » يرى الامراء على تلك العقيدة الجديدة (٨٩) . ولقد سبق أن ناقشنا علاقة الدولة بالتعليم وأظهرنا أن التعليم كان أمرا من أمور الامراء ، ولم يكن شأننا من شئون الدولة بالفعل ، ولكن ذلك لم يمنع من انتشار هذا النوع من التعليم الابتدائى ، ولا يعيب نظام التربية الاسلامية ، أنه كان بعيدا عن سيطرة الدولة وتدخلها فى شئونه المالية والادارية بل ربما كان هذا من أعظم مميزات هذا النظام ، فقد جعلته أكثر اتصالا بحاجات الجماهير ، كما جعلته محور اهتمام الأفراد والجماعات ، بجوار ما أتاحه ذلك من حريات واسعة للطلاب والمعلمين ، وها هو التعليم الأمريكى كان وما زال شأننا من شئون الولايات وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية ومن ثم فليس للولايات المتحدة نظام يسهل التعليم القومى كذلك النظم التى توجد فى كثير من البلاد الأخرى وليس من اختصاص الحكومة

الفيدرالية أن تسير النظم المدرسية أو تتحكم في طابع المدرسة أو في مناهجها وان كان من واجبها أن تشجع التعليم وتعمل على تيسيره وانها لقدمه فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق « مكتب التربية » الذى يتخذ كافة الطرق لعون الولاية في جهودها وابتكاراتها (٩٠) وهذا ما فعلته الدولة الاسلامية نحو التعليم ، اذ قدمت له ألوانا متعددة من المساعدة والتشجيع ولكنها لم تحاول أن تسيطر عليه سيطرة كاملة .

ثم يأتى بعد ذلك هذا الشعور السائد بين الدارسين بأن تلك المرحلة الابتدائية بالذات كانت الغلبة فيها لسيطرة رجال الفقه ذوى الاتجاه الدينى المتشدد مثل الغزالى ونصير الدين الطوسى وابن جهامة وابن سحنون وابن حجر الهيئى والقاسى ... الخ وان أصحاب هذا الاتجاه الدينى المتشدد فى التربية قد طبعوا التعليم فى تلك المرحلة بطابعهم انديى الذى ركز على التدين والخلق الدينى المحافظ (٩١) . ورغم غلبة الطابع الدينى والأخلاقي على تلك المرحلة بالفعل كما سبق أن ذكرنا . الا أن هذا الطابع هو الذى أمد الطبقة المثقفة المسلمة عبر العصور بشخصيتها الاسلامية المستقلة ، وجعلها لا تذوب فى غيرها من الثقافات ، واكسبها القدرة على نقل جميع الحضارات المختلفة دون أن تذوب فى واحدة منها . كما أن هذا الطابع الدينى والأخلاقي قد حفظ على المثقفين المسلمين « حدا أدنى من الثقافة المشتركة فيما بينهم وبذلك لم تفرقهم التخصصات المهنية فكريا وأيديولوجيا فيما بعد ، كذلك جعلتهم أكثر اتصالا بالشعب وثقافته ووجدانه وأمدتهم بأخلاقيات ومثل عالية يفتقدها انساننا المعاصر الذى يعانى من أزمة خلقية وروحية تهدد حضارته » (٩٢) .

كان هذا هو التعليم الابتدائى عند المسلمين بكل ظروفه وملابساته ومناهجه وأهدافه وإدارته ، والذى تعرض له الطفل المسلم ، قبل أن يدخل المرحلة التالية من مراحل التعليم المتخصص ، وهو تعليم — كما رأينا — كان يتيح للطفل أن يحصل على حظ وافر من كتاب الله ، ان لم يحفظه كله ، وكان يمكنه من اتقان مهارات القراءة والكتابة والخط والحساب ، مع العناية بأخلاقه وممارسته للشعائر الاسلامية ، وقد يضاف

الى ذلك كله معرفة بالآداب وفنون الشعر الذى يقال فى المناسبات المختلفة بجوار الكثير من قصص الانبياء والصالحين . وهو بذلك يعتبر تعليما غنيا وكافيا لانتقال الطفل الى المرحلة التالية من مراحل التعليم . كما يعتبر تعليما كافيا ومناسبا اذا انتطح الطفل من التعليم وتوجهه الى صناعة او مهنة يزاولها لكسب العيش .

وسوف نتتبع طفلنا المسلم « الذى لديه الاستعداد الكامل لمواصلة التعليم الى المرحلة التالية » وستركز حديثنا لطبيعة البحث على هؤلاء الذين اختاروا الطب ميدانا لدراساتهم وتخصصهم لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم تريبا ومهتيا لممارسة تلك المهنة الطبية « . وهذا هو موضوع فصلنا الثالث .

مراجع الفصل ومصادره

- (١) راجع تحديد هذين المصطلحين في أحمد حسن عبيد : فلسفة النظام التعليمي وبنية السياسة التربوية ، دراسة مقارنة ، الانجلو المصرية ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٤ .
- (٢) راجع في ذلك على سبيل المثال : ابن الجزار القيرواني : سياسة الصبيان وتدريبهم ، نشر وتقديم محمد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ ، شمس الدين الأنباري : رسالة في رياض الصبيان وتعليمهم وتدريبهم ، مخطوط بكتبة جامعة القاهرة رقم ٤٣٢ تعليم ، حسن عبد المال : أصول تربية الطفل في الاسلام ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٨٠ ، الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٩ - ص ١١٦ - ص ١٢٣ - ص ١٢٥ .
- (٣) الباحث : ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي دروس مستفادة « من أبحاث مؤتمر ديمقراطية التعليم في مصر » ، مرجع سابق ، ص ٩ - ص ١١ .
- (٤) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .
- (٥) أحمد مؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧ ، سعيد اسماعيل علي : معاهد التعليم الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٧٧ - ص ٧٩ .
- (٦) أحمد شلبي : التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .
- (٧) نفس المرجع ، ص ٥٤ .
- (٨) نفس المرجع والمكان .

- (٩) نفس المرجع ، ص ٥٥ .
- (١٠) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .
- (١١) عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٩١ — ص ٩٨ .
- (١٢) محمد عبد الحميد عيسى : تاريخ التعليم في الاندلس ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦٧ .
- (١٣) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
- (١٤) نفس المرجع ، ص ١١٧ .
- (١٥) محمد نبيل نونل : أبو حامد الغزالي ، فلسفته وآراؤه في التربية والتعليم ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٧ ، ص ١٤١ .
- (١٦) انظر مثلاً : ابن سجنون : آداب المعلمين ، القابسى : الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، نشر أحمد فؤاد الأهواني كملاحق لكتابه : التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، الغزالي : إيهام الولد ، اللجنة اللبائية لترجمة الروائع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٩ .
- طائس كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مرجع سابق .
- (١٧) S. S. HUSAIN S. A. ASHRAF : CRISIS IN MUSLIM Education, Hodder and Starughton, London, King Abdulaziz University, Jeddah, 1979.
- Abdul Rahman Salih Abdullah; Educational theory. Aquranic outlook, umm Al-Qurn University, Makah, 1982, pp. 133 - 136.
- (١٨) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

- (١٩) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، لجنة البيان العربى ، تحقيق على عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٧٨ .
- (٢٠) نفس المرجع ، ص ٤٨٩ .
- (٢١) محمد صلاح الدين مجاور : تدريس التربية الاسلامية أسسه وتطبيقاته التربوية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥ — ص ٩٩ ، حيث ناقش تلك القضية واقترح اختيار آيات معينة للحفظ .
- (٢٢) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ، ب .
- (٢٣) الباحث : بحوث في التربية الاسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٨٠ .
- (٢٤) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .
- (٢٥) الغزالي : احياء علوم الدين ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٦٤ .
- (٢٦) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ب .
- (٢٧) نفس المرجع ، ص ٤٥ — ب .
- (٢٨) شمس الدين الانبائى : رسالة في رياض الأطفال وتعليمهم وتاديبهم ، مرجع سابق ، ص ٢ .
- (٢٩) أحمد فؤاد الأهوانى : التعليم فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .
- (٣٠) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية فى التسام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .
- (٣١) محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ص ٢٧ .
- (٣٢) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٤٠ — ص ٤٧ .

(٣٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٤٧٩ —
ص ٤٨٠ .

Bayard Dodge ; Muslim Education in the Medieval (٣٤)
times, op. cit, pp. 3, 5.

(٣٥) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، مطبعة حجازي ،
القاهرة ، ص ١٨١ .

(٣٦) القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين
والمتعلمين ، مرجع سابق .

(٣٧) نفس المرجع ، ص ٦٩ — ب .

A.S. Tritton : Materials of Muslim Education in The (٣٨)
Middae Ages, op. cit. p. 51.

(٣٩) طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة
في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٥ .

(٤٠) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٨٤ — ص ٨٨ .

(٤١) نفس المرجع والمكان

(٤٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ٤٧٧ —
ص ٤٨٠ .

(٤٣) طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة
في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٤٤) نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٣٩٠ .

(٤٦) نفس المرجع ، ص ١٤٤ — ص ١٤٥ .

(٤٧) الزرنوجي : تعليم المتعلم طرق التعلم ، مرجع سابق ،
ص ٨٧ .

(٤٨) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

- (٤٩) نفس المرجع ، ص ١٠٣ .
- (٥٠) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، ص ١٥١ — ص ١٥٢ .
- (٥١) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٥ .
- (٥٢) نفس المرجع ، ص ٨ .
- (٥٣) أحمد شلبى : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- (٥٤) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .
- (٥٥) ابن العربي : أحكام القرآن ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٩ .
- (٥٦) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام ، مرجع سابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .
- (٥٧) أحمد شلبى : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
- (٥٨) محمد جواد رضا : الفكر التربوى الإسلامى مقدمة في أصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .
- (٥٩) الباحث : بصوت في التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٧٦ — ٨٣ .
- (٦٠) عمر محمد التومى الشيبانى : من أسس التربية الإسلامية ، المنشأة الشعبية للنشر والإعلان والتوزيع ، طرابلس ، ١٩٧٩ ، ص ٩١ — ص ٣٤٤ .
- George.D. Shala : The Arab Conception of the Ideal teacher as Revealed in Arabic pedagogical Literature,
M. A. Thesis, University of London, Faculty of Arts, 1939.

— ٩. —

- (٦١) الزرنوجي : تعليم المتعلم طرق التعلم ، مرجع سابق ، ص ٧٨ — ص ٨٠ .
- (٦٢) نفس المرجع : ص ٨١ — ص ٨٢ .
- (٦٣) نفس المرجع : ص ٨٢ .
- (٦٤) محمد منير مرسى : التربية الاسلامية اصولها وتطورها في البلاد العربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .
- حسن عبد العال : التربية في القرن الرابع الهجري ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .
- (٦٥) محمود جواد رضا : الفكر التربوي الاسلامي مقدمة في اصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .
- (٦٦) عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ، دار المعلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٦ ، ص ١٤٧ .
- (٦٧) الباحث : بحوث في التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ٦٢ — ص ٦٣ .
- (٦٨) مصطفى كمال وصفي : مصنفات القظم الاسلامية الدستورية والدولية والادارية والاقتصادية والاجتماعية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٧١ ، ص ٥٢٩ ، ص ٥٤٦ .
- (٦٩) أحمد شلبي : التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ .
- (٧٠) نفس المرجع ، ص ٣٥٣ — ص ٣٨٥ .
- (٧١) ملكة أبيض : التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة العربية خلال القرن الثالث للهجرة ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ — ص ٣٤٠ .
- (٧٢) الباحث : ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي ، دروس مستفادة ، مرجع سابق ، ص ٨ .

- (٧٣) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٦٣ ، ص ٦٤ .
- (٧٤) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ،
ص ١١٨ ، ص ١١٩ .
- (٧٥) حسين فوزى النجار : ثورة التعليم ، النهضة المصرية بالناصرة ،
١٩٥٨ ، ص ٥٨ - ص ٦٢ .
- (٧٦) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٦٤ .
- (٧٧) الباحث : ديمقراطية التعليم في عصور الازدهار الاسلامي ،
دروس مستفادة ، مرجع سابق ، ص ٧ .
- (٧٨) المرجع السابق ، ص ١١ .
- Khalil ; A. Totah : The contribution of the Arabs To (٧٩)
Education. Publications Teachers College, columbia University,
New York, 1926. pp. 94 - 95.
- (٨٠) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ،
ص ١٢٦ - ص ١٢٧ .
- (٨١) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ١٨٨ ، ص ١٨٩ .
- (٨٢) نفس المرجع ، ص ١٨ .
- (٨٣) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ،
ص ١٥٢ .
- (٨٤) أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ١٥ .
- (٨٥) راجع قانون الأثر عند ثورنديك ، ص ٢٠٦ - ص ٢٠٨ ، ورأى
ليفين في الثواب والعقاب ، ص ٣٩٦ - ص ٤٠٠ من كتاب أحمد زكى صالح :
التعلم أسسه ونظرياته ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

- (٨٦) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ،
ص ١٥٠ — ص ١٥١ .
- (٨٧) الباحث : بحوث التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .
- (٨٨) الزنوجي : تعليم المتعلم طرق التعلم ، مرجع سابق ،
ص ٩١ .
- Al-Tibawi : Arabic And Islamic themes, Historical
Educational and litterery studies, London, Luzas, 1974, p. 96.
- (٩٠) حسين فوزي النجار : ثورة التعليم ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .
- (٩١) محمد جواد رضا : الفكر الاسلامي التربوي مقدي في اصوله
الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٥٧ — ص ٧٧ .
- أحمد مؤاد الاهواني : التربية في الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٤٦ —
ص ٧٢ .
- (٩٢) الباحث : أزمة التربية الخلقة في مصر وجهة نظر في بهوث
في التربية الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥٣ — ص ٦٧ .

الفصل الثالث

الإعداد التربوي والمهني للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة

FURTHER EDUCATION.

مقدمة :

كان التعليم الابتدائي كما سبق أن ذكرنا يمد الصبي المسلم بأساسيات الثقافة الاسلامية ، ويعده الى مرحلة أعلى للتعليم Further Education ، او الى مرحلة من الاعداد الحرفي أو اليدوي اذا أراد أن يكتفى بذلك ، وينصرف الى تعلم حرفة أو عمل يدوي . والتعليم اليدوي أو العملي كتعلم التجارة والصياغة والنجارة وغيرها من الحرف انما « يحصل بالمواظبة على استعمال تلك الصناعة » (٢) ، أى بالتدريب العملي عليها والممارسة لمهاراتها المختلفة * . اما التعليم النظري فهو الذى يكتسب « بقول مسموع أو معقول من شئنا أن يوقع اعتقاداً أو رأياً لم يكن أو يوقع تصوراً ما ، لم يكن » (٣) . أى أنه يحتاج الى تحصيل الآراء والأقوال والامكار العقلية والنقلية . وهذا التعليم النظري بمصادره العقلية والنقلية هو الذى يمثل منهاج المرحلة الأعلى المتخصصة من التعليم الاسلامي . ولقد تعددت مروع هذا التعليم بتعدد العلوم الاسلامية حتى وصلت الى ثلاثائة علم عند صاحب « مفتاح السعادة » (٤) . وظهرت كثير من المؤلفات الاسلامية محاولة أن تصنف تلك العلوم الغديدة بحيث تقسمها الى الدارس المسلم ذاكراً له أهم مباحث كل علم ، وأهم ما كتب فيه من مؤلفات (٥) . يقول الفارابي في مقدمة كتابه « احصاء العلوم » : « قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها أجزاء ، وجمل ما في كل واحد من أجزائه » حتى اذا أراد الدارس « أن يتعلم علماً من هذه العلوم وينظر فيه ، علم على ماذا يقدم وفي ماذا ينظر ، وفي أى شئ سيفيد بنظره ، وما غناء ذلك ، وأى فضيلة تنال به ، ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عبي وغرر » . . . وحتى يستطيع « أن يقيس بين العلوم فيعلم أيها افضل ، وأيها ائفع ، وأيها

* في الواقع أن التعليم الحرفي أو اليدوي عند المسلمين يحتاج دراسة وافية ، يأمل الباحث أن يفرغ لها في القريب العاجل .

أتقن وأوثق وأقوى وأيها أوهن وأوهى وأضعف » ولكي يتبين له إذا كان يحسن علما منها « هل يحسن جميعه أو بعض أجزائه وكما مقدار ما يحسنه ؟ » (٦) .

ولا شك أن الصبي المسلم عندما كان ينتهي من دراسته الابتدائية كان يقبل على عالم واسع من العلوم والمعارف العقلية والنقلية تصوره لنا أمثال هذه المؤلفات ، ولذلك كان لابد من توجيهه ترويا إلى أنواع متعددة من الدراسات ، وكانت عملية التوجيه التربوي والمهني للطلاب تتم واضعة في حسابها ميول الطالب العقلية من ناحية ، وما يريده له ولي أمره من أنواع التعليم من ناحية أخرى . يقول ابن سينا : « وإذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يرد أن تكون صناعته موجهة لطريقه . فإذا أراد (مدبره) به الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقشات الناس ومخاوراتهم وما أشبه ذلك وطورح الحساب ودخل به الذیوان وعنى بخطه ، وإن أريد أخرى أخذ به فيها بعد أن يعلم مدبر الصبي أن ليس كل صناعة يرومها الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يرد أن الأدب والصناعات تجيب وتنقاد بالطالب والمرام دون المشاكلة والملازمة ، إذن ما كان أحد غفلا من الأدب وعاريا من صناعة ، وإذا لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الأدب وأرفع الصناعات » (٧) . فالتعليم بمقدار المرحلة الابتدائية تعليم تخصصي يعد الطالب المسلم لحرفة أو مهنة يمارسها في المجتمع . فإذا كان الصبي قد أظهر في المرحلة السابقة ميولا أدبية وجودة في حفظ الشعر والأدب ، فمن الأفضل أن يوجه توجيها أدبيا ليصبح كاتباً أو أدبياً * . وإذا مال إلى الفقه أو الحديث أو التفسير وجه إلى ذلك ، وإذا أظهر ميلا إلى الدراسات العقلية والفلسفية كانت دراسته التالية موجهة لاتقان تلك الدراسات . ويحذر ابن سينا أن يوجه

* في الواقع أن تربية الأديب أو تربية الكاتب عند المسلمين ، من الموضوعات التي تستحق دراسة مستقلة أيضا ، والتي يود الباحث أن ينتهي من أعدادها قريبا بإذن الله .

الصبي الى نوع من الدراسات لا يريده ، أو لا يظهر استعدادا عقليا لتابعته والتخصص فيه ، لان في ذلك مضیعة لوقت الطالب وجهسده فيها لا جدوى منه . ويستدل على ذلك « بسهولة بعض الآداب على قوم وصعوبتها على آخرين ، ولذلك نرى واحدا من الناس تواتيه البلاغة وآخر يواتيه النحو وآخر يواتيه الشعر وآخر يواتيه الخطب ، وآخر يواتيه النسب ، ولهذا يقال بلاغة القلم وبلاغة الشعر . فإذا خرجت من هذه الطبقة الى طبقة أخرى ، وجدت واحدا يختار علم الحساب وآخر يختار علم الهندسة ، وآخر يختار علم الطب ، وهكذا تجد سائر الطبقات اذا أثقلتها طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعا . ولهذه الاختيارات وهذه المتناسبات والمشاكلات أسباب غامضة وعمل خفية تدق على أذهان البشر وتلطف عن القياس والنظر ولا يعلمها الا الله جل ذكره » (٨) واذا كنا لا نستطيع الوصول الى حقيقة هذه الفروق العقلية لأنها من علم الله حتى يعبر هذا الكون باختلاف البشر فيما لديهم من قدرات ، وحتى لا يجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات ، ويترفعوا عن غير ذلك من المهن فلا تستقيم الحياة (٩) الا أنه يمكن ملاحظة آثار هذه الفروق ورصد مظاهرها المختلفة ، وتوجيه الطلاب توجيهها تربويا بناء على ذلك . يقول ابن سينا : « فلذلك ينبغي لأدب الصبي اذا رام اختيار الصناعة للصبي - ان يزن أولا طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاه فيختار له احدى الصناعات بحسب ذلك ، فإذا اختار له احدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ، وهل ادواته وآلاته مساعده له عليها أم خازلة ثم بيت العزم ، فان ذلك أحزم في التدبير وأبعد من أن تذهب أيام الصبي فيما لا يواتيه ضياعا » (١٠) .

فهذه المرحلة الأعلى أو التالية Further Education المتخصصة ، لا تكون الا بعد أن يكون الصبي قد مر بالمرحلة السابقة من التعليم ، وبعد أن يكون « مدبر الصبي » سواء كان ولي أمره أو أستاذه - أحدهما أو كلاهما - قد وزن طبع الصبي وسبر قريحته واختبر ذكاه واختار له الصناعة (التوجيه التربوي والمهني) الذي يناسبه وعرف قدر ميل الصبي لهذا الاتجاه التعليمي ، ورغبته فيه ، واقباله عليه ، وقدرته العقلية على (م ٧ - الإعداد التربوي للطبيب)

متابعته بنجاح بحيث لا يتعرض الصبي للفشل الدراسي أو يذهب وقتـه سدى ، وستقتصر حديثنا في الصفحات التالية — لطبيعة البحث — على هؤلاء الذين اختاروا الطب صناعة لهم ، لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم الاعداد التربوي والمهني المناسبين .

أولا : دوافع ازدهار التلاميذ الطبي في المجتمع الاسلامي

لا شك أن الاقبال على نوع معين من التعليم يتأثر الى حد كبير بمقدار ما يوفره هذا التعليم لصاحبه من مزايا أدبية ومادية ، وقد مر بنا في الفصل الأول كيف حث الاسلام على طلب القوة والصحة ودعا الى الأخذ بأسبابهما ، مما يمثل دافعا من دوافع الاقبال على الدراسة الطبية ، ودعوة الى البحث عن أسباب المرض وكيفية علاجه ، وأسباب الصحة وكيفية الحفاظ عليها . وكان ذلك يعطى الدارس للطب الشعور بأنه يدرس علما نافعا من الناحية الشرعية . ولقد نظر العلماء المسلمون الى « علم الطب » على أنه من علوم « فروض الكفاية » ، التي ينبغي أن يشتغل بها عدد كاف من المسلمين يكفى حاجات المجتمع ، والا اثم المسلمون ، يقول الزرنوجي : « وأما حفظ ما يقع في الأحياء ففرض على سبيل الكفاية إذا قام (به) البعض في بلدة ، سقط من الباقين ، فإن لم يكن في البلدة من يقوم به اتركوا جميعا في المأثم ، فيجب على الامام أن يأمرهم بذلك ويجبر أهل القرية على ذلك » (١١) . ويقول طائش كبرى زاده : « علم الطب : وهو علم يبحث فيه عن بدن الانسان من جهة ما يصح ويمرض لحفظ الصحة وإزالة المرض .. وموضوعه ، بدن الانسان من حيث الصحة والمرض ، ومنفعته بيئة لا تخفى . وكفى بهذا العلم شرفا وفخرا قول الامام الشافعي رضى الله عنه : العلم علمان : علم الطب للأبدان ، وعلم الفقه للأديان ، ويروى عن الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : العلوم خمسة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والهندسة لابنانيان ، والنحو للسان ، والنجوم للأزمان » (١٢) . وتكثر الاشارة لاهمية انطب سواء في كتب تصنيف العلوم ، أو ادبيات الثرية الاسلامية ، أو تراجم الأطباء أو مقدمات كتب الطب . يقول ابن أصيبعة في مقدمة كتابه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء : « لما كانت صناعة الطب من أشرف

الصنائع وأربح البضائع وقد ورد تفضيلها في الكتب الالهية والأوامر الشرعية ، حتى جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان ، وقد قالت الحكماء : ان الطب نوعان : خير ولذة ، وهذان الشيئان انما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة . لان اللذة المستفادة من هذه الدنيا والخير المرجو في الدار الأخرى لا يصل الواصل اليها الا بدوام صحته وقوة بنيته وذلك انما يتم بالصناعة الطبية لانها حافظة للصحة الموجودة ورادة للصحة المفقودة ، فوجب اذا كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان وعموم الحاجة اليه داعية في كل وقت وزمان ان يكون الاعتناء بها أشد والرقبة في تحصيل توانينها الشكلية والجزئية أكد واجد « (١٢) . بل سنجد المولوى التهانوى في مؤلفه « كشف اصطلاحات الفنون » ينقل استحباب المسلمين « تعلم كل انسان من الطب قدر ما يمتنع به عما يضر بدنه » (١٤) . أما الزرنوجى المربى فيقول انه « لا بد لطالب العلم من القوة ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد في العمر والصحة ليتفرغ في طلب العلم » لذلك « لا بد ان يتعلم شيئا من الطب ويتبرك بالآثار الواردة في الطب التى جمعها الامام ابو العباس المستغفرى في كتابه المسمى «طلب النبى عليه السلام» (١٥) . ويقول خضر على بن الخطاب الطبيب في مقدمة مخطوطه : « شفاء الأسقام ودواء الآلام » : « لما رايت ان علم الطب أجل المفائىر والنعائذات وأجل المآثر والصناعات اذ به يحصل حياة النفوس والأرواح وصحة الأبدان والأشباح ، وبه يكون الخلاص من الأمراض والأسقام ، والمناس من الأمراض والآلام ، ومعلومه لا يتغير بتغير الملك والأديان ، ومحصوله لا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة ... تركت الرقاد زمانا واركتبت السهاد ، وأنا مشغوبا بتحقيق المسائل الطبية معرجا على مشاهدة الأعمال التجريبية » (١٦) . ويقول مظهر الدين الفيتابى المعروف بابن الأمشاطى في مقدمة مخطوطه ، « شرح اللحة العفيلة المسى تاسيس الصحة » : « فلما كان علم الأبدان الذى جعل قرينا لعلم الأديان مما تعم الحاجة اليه في كل حين وأوان ... الخ » (١٧) . ولعل هذه النصوص القليلة التى أوردناها على سبيل الاستشهاد أن توضح المنزلة الادبية التى احتلتها الدراسات الطبية في المجتمع الاسلامى ، مما يمثل حافظا أدبيا واجتماعيا للاقبال على تلك الدراسة .

وهناك دافع أدبي آخر يتمثل في أن الدراسات الطبية بدأت في المجتمع الإسلامي كدراسات وافدة لها مصادرهما اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وظلت كذلك لفترة حتى بدت وكأنها صناعة غير إسلامية وغير عربية يكاد أن يحتكرها أهل الذمة من غير العرب ، بل وتكاد تحتكرها أسر معينة يقوارثها الأبناء عن الآباء (١٨) ، وحتى كاد أن يستقر في أذهان العوام أنها صناعة لا يجيدها عربي أو مسلم . ومثلت تلك الظاهرة تحديا عقليا وحضاريا لا يمكن أن يقبله المسلم المثقف ، فسمى إلى تغييرها واثبات قدرة العقل العربي المسلم على التفوق في ميدان الطب . يروي لنا الجاحظ بأسلوبه الأدبي الناقد الساخر « أن طبيبا مسلما عربيا اسمه « أسد بن جاني » لم يقصده في إحدى السنين الوثنية التي نشأ فيها المرض على الرغم من علمه المعترف به وحذقه ومهارته إلا القليل من المرضى ، ولما سأله أحد معارفه عن السبب في هذا أجاب : « أما واحدة فأنى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن تطيب بل قبل أن أخلق أن المسلم لا يفلحون في الطب ، واسمى أسد وكان ينبغي أن يكون هلييا أو جبرائيل أو يوحنا أو بيرا (ويعنى بذلك أن يكون الاسم سريانيا أو آراميا ، وكنتى أبو الحارث وكان ينبغي أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا أو أبو إبراهيم ، ويعنى بهذا أن يكون مسيحيا أو يهوديا بدلا من كونه مسلما) وعلى رداء من قطن أبيض وكان ينبغي أن يكون رداء من حرير أسود ، ولفظى لفظ عربي وكان ينبغي أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور (وهى بلدة في الجنوب من فارس اشتهرت بالطب) » (١٩) .

كان الطب في بدايته أجنبى اللغة ، أجنبى الزى والمصادر ، وقد يكون هذا جائزا في بداية الطب الإسلامى ، وطالما راعى هؤلاء الذميون الأعاجم أصول الصنعة وآدابها وأخلاقتها ، ولم يستغلوا تلك المهنة الاستغلال السيئ من أجل المزيد من الثروة والنفوذ . ولكن الأمر فيما يبدو لم يمض غالبا على هذا المنوال ، إذ تطالعنا شواهد كثيرة على مخالفة آداب المهنة ، والسعي وراء مزيد من الثروة والنفوذ . ويكفى أن نذكر هنا قصة يوحنا بن ماسويه طبيب المأمون ، الذي نال من الثروة والنفوذ في

بلاط الخليفة ما لم ينله طبيب ، ومع ذلك لم يتورع عن خيانتة والاشتراك في قتله . يقول ابن أصيبعة نقلا عن الصولى في كتاب « الأوراق » قال : « كان المأمون نازلا على البندنون (نهر من أعمال طرسوس) فجلس يوما وأخوه المعتصم عليه ، وجعلا أرجلهما فيه استبرادا له ، وكان أبرد الماء وأرقه والذة . فقال المأمون للمعتصم : أحببت السساعة من أراذ (نوع من التمر) العراق آكله وأشرب من هذا الماء البارد عليه ، وسمع صوت حلقة البريد وأجراسه ، فقليل هذا يزيد بن مقبل بريد العراق ، فاحضر طبقا من فضة فيه رطب أراذ ، فمجب من تمنيته وما تم له . فأكلا وشربا من الماء ونهضا ، وتودع المأمون وأقال ، ثم نهض مخموما وفصد ، وظهت في رقبته نفخة تعتاده ويراعياها الطبيب الى أن تنضج وتفتح وتبرأ فقال المعتصم للطبيب وهو ابن ماسويه : ما أطرف ما نحن فيه تكون الطبيب المفرد المتوحد في صناعتك ، وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين ، فلا تزيلها عنه وتتلطف في حسم مادتها حتى لا ترجع اليه ، والله لئن عادت هذه الملة عليه لأضرب عنقك . فاستطرق ابن ماسويه لقول المعتصم وانصرف . فحدث به بعض من يثق به ويأتس اليه فقال له : « تدري ما قصد المعتصم ؟ قال : لا ، قال : امرك بقتله حتى لا تعود النفخة اليه ، والا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دمسع الأمراض من الأجسام ، وإنما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض عليه » . فتعالم ابن ماسويه وأمر تلميذا له بمشاهدة النفخة والتردد الى المأمون نياية عنه ، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المأمون وما تصدد له ، فأمره بفتح النفخة ، فقال أعينك بالله ، ما احمرت ولا بلغت الى حد الجرح ، فقال له : امض وامتحها كما أقول لك ، ولا تراجعنى ، فمضى وفتحها ومات المأمون رحمه الله . وبعد أن يورد ابن أصيبعة ذلك الواقعة يعلق عليها بقوله : « أقول : إنما فعل ابن ماسويه ذلك لكونه عديما للمروءة والدين والأمانة وكان على غير ملة الاسلام ، ولا له همك بدينه أيضا كما حكى عنه يوسف بن ابراهيم في أخباره المتقدمة ، ومن ليس له دين يتمسك به ويمتد فيه فالواجب ألا يدانيه عاقل ولا يركن اليه حازم » (٢٠) .

- ١.٢ -

وإذا كان ابن أصيبعة يورد لنا كثيرا من الأمثلة على جشع هؤلاء الأطباء عديمي المروءة والدين والأمانة ممن كانوا على غير ملة الإسلام فإن ذلك لم يمنعه من أن يترجم للكثير منهم ، وأن يعترف بفضلهم في ميدان الطب ، وأن يذكر مؤلفاتهم الطبية . كذلك فعل البيهقي في كتابه تاريخ « حكماء الإسلام » ، إذ ترجم لأهل الإسلام كما ترجم لمن لم يمثل ملته بدون غرض أو هوى . فقد ترجم « لنحو عشرين منهم من أصل مائة وخمسة عشر حكيمًا وأعطاهم حقهم غير منتوص عاددا لهم جزءا من أجزاء العلم الإسلامي ، ومنخرة من مفاخر تلك الأقطار ، كاهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة » (٢١) ، مما يدل على أن روح التعصب الديني لم تكن وراء هذا التحامل على هؤلاء الأطباء غير العرب أو المسلمين بل كان تقريرا للواقع . غير أن ذلك لم يمنع من وجود عدد من هؤلاء جمعوا بين العلم وأخلاق المهنة . ويسوق لنا ابن أصيبعة أمثلة على ذلك نرى أن نورد أحدها هنا وهي تتعلق بحنين بن اسحاق . فقد سمع الخليفة المأمون بعلمه فأمر بإحضاره ، وقرر له راتبا جيدا « وكان يسمح بعلمه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره . وأحب امتحانه حتى يزول ما في نفسه عليه ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عيل شسبنا من الحيلة به . فاستدعاه يوما وأمر بأن يخلع عليه ، وأحضر توقيعا فيسه اقتطاع يشتمل على خمسين ألف درهم ، فشكر له حنين هذا الفعل ثم قال ، بعد أشياء جرت ، أريد أن تصف لي دواء يقتل عدوا نريد قتله ، ولم يمكن اشهاره ، ونريده سرا . فقال حنين : يا أمير المؤمنين انى لم أعلم الا الأدوية النافعة ، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها ، فإن أحب أن أمضى وأتسلم فعلت ذلك . فقال : هذا شيء يطول . ورغبه وهدده ، وهو لا يزيد على ما قاله ، الى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ، ووكل به من يوصل خبره اليه ، وقتا بوقت ، ويوما بيوم لمكث سنة في حبسه ودأبه النقل والتفسير والتصنيف ، وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما كان بعد سنة أمر الخليفة بإحضاره وأحضر أموال يرغبه فيها ، وأحضر سيفًا ونطعا وسائر آلات العقوبات . فلما حضر قال : هذا شيء قد كان ، ولابد مما قلته لك ، فإن أنت فعلت فقد فزت بهذا المال ، وكان

لك عندى اضعافه ، وان امتنعت قابلك بشر مقابلة ، وقتلتك شر قتلة .
فقال حنين : قد قلت لأمير المؤمنين انى لم احسن الا الشئ النافع ، ولم
أتعلم غيره . فقال الخليفة : ماى ائتلك . فقال حنين : لى ربى يأخذ بحقى
غدا فى الموقف الاعظم . فان اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليقبل .
فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين طب نفسا وثق الينا ، فهذا الفعل كان
منا لامتحانك ، لانا حذرنا من كيد الملوك وأعجبنا لنتنفع بعلمك . فقبل
حنين الارض وشكر له ، فقال الخليفة : يا حنين ما الذى منعك من الاجابة
مع ما رأيته من صدق عزميتنا فى الخالين فقال حنين : ثبيتان يا أمير
المؤمنين . قال : وما هما ؟ قال : الدين والصناعة . قال : كيف ؟ قال :
الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع اعدائنا فكيف اصحابنا واصدقائنا ،
وببعد ربحهم من لم يكن كذا ، والصناعة تمنعنا من الاضرار بأبناء الجنس
لأنها موضوعة لنفسهم ومقصورة على مصالحهم ومع هذا فقد جعل الله فى
رقاب الاطباء عهدا مؤكدا بايمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالا ،
ولا ما يؤذى . فسلم ان اخالف هذين الأمرين من الشريعتين . ووطنته
نفسى على القتل ، فان الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طامته ، وكان
يثيبنى . فقال الخليفة : انهما لشريعتان جليلتان ، وأمر بالخلع فخلعت
عليه ، وحمل المال بين يديه ، وخرج عنده وهو أحسن الناس حالا
وجاها « (٢٢) .

واذا كان حنين قد اعتصم بدينه وأخلاق مهذبه أمام هذا الاختبار
القاسى ، والذي يعكس الكثير من سوء الظن وخشية مؤامرات العدو
الرومى ، فقد كان هناك كثيرون آخرون يتاجرون بالمهنة ويتحكمون بها فى
حياة الناس ، نذلك كان من الطبيعى أن يتجه المسلمون الى العلوم الطبية
ويقبلون عليها دراسة وممارسة حتى يحولوها الى علوم عربية اسلامية ،
وان يتجه الحكام المسلمون الى انشاء المدارس الطبية التى يتفرغ فيها
الطلاب المسلمون لدراسة الطب على يد أساتذة مسلمين (٢٣) . ولعل

المستنصر بالله « حين شرط أن يكون في مدرسته (المستنصرية) طبيب
حائز مسلم وعشرة أنفس مسلمين يشتغلون عليه . يعلم الطب ، إنما فعل
ذلك بعد أن رأى أهل الذمة قد استولوا على الطب واستفحل أمرهم
وأخذوا يفسدون هذا العلم بقصد الفراء » (٢٤) . وقس على ذلك سائر
المدارس الطبية والبيمارستانات الإسلامية التي أنشئت في كثير من
العواصم ، بحيث لم تفض مدة طويلة حتى زال هذا الاحتكار ، وأصبح
الطب عربى اللغة ، إسلامى الروح والتقاليد ، يقول داود الانطاكى في
مقدمة كتابه « تذكرة أولى الألباب » : « فأنى حين دخلت مصر ورأيت الفقيه
الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى الى أوضع يهودى للتطبيب به ، فعزمت
على أن أجعله كسائر العلوم يدرس ليستفيد به المسلمون » (٢٥) .

وبهذا الفهم الذكى وتلك الروح الجديدة كان الشافعى يقول :
« لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أثبل من الطب » . وكان يستنكر إلا
يقبل المسلمون على دراسة الطب بهمة عالية ويقول : ضيعوا ثلث العلم
وكلوه الى اليهود والنصارى . وكان يقول : أن أهل الكتاب قد غلبونا
على الطب . وحرص الشافعى مع عظمتة في علم الشريعة وبراعته في
العربية أن يكون بصيرا بالطب (٢٦) . ولقد كانت ثمرة هذا الحماس لتقريب
الطب وتعميمه بين المسلمين ، أن أصبحت « المعلومات الطبية » شائعة
بين الناس يتداولها المثقفون العاديون . وهذا هو المتنبي يصاب بالحمى
وهو في مصر فيصفها وصف العارف بأعراضها ، الخبير بعلاماتها
فيقول : (٢٧)

وزائرتى كان بهما حياء . : فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا . : فعافتها وبانت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفس وعنها . : فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتنى غسلتنى . : كأننا عاكفان على حرام
كان الصبح يطردها فتجرى . : مدامها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق . : مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعددها والصدق شر . : إذا ألقاك فى الكرب العظام

وابن بطلان الطبيب يؤلف في الطب بأسلوب أدبي وقصوى ممتنع
كتاب : « دعوة الأطباء على مذهب كليله ودمنة » فيمزج الطب بالأدب ،
ويقربه الى القارئ العادى (٢٨) . وبذلك تحول الطب من علم أجنبى الى
علم عربى اسلامى يستفيد به المثقف العادى فضلا عن أصحاب التخصص
وطلاب الصنعة . وإذا كان الجيل الأول من الأطباء المسلمين كانوا يعدون
انفسهم اشبه بتلامذة للقدماء الاغريق في حين أنهم وصلوا الى نتائج
جديدة رائعة ، فان الأجيال التالية قد أدركت أنها قادرة على الإبداع
والوصول الى ما لم يصل اليه الاغريق من قبلهم ، وصاروا يهدون انفسهم
استمرارا لانجازات أساتذتهم المسلمين دون سواهم (٢٩) .

بجوار هذه الدوافع الأدبية والاجتماعية والدينية التى دفعت الكثيرين
الى دراسة الطب ، كان هناك الدافع المادى والاقتصادى ممثلا فى هذا
العطاء السخى الذى كان يناله الطبيب فى صورة أجور وهدايا وتلك
المنزلة العالية التى كان يهتلها لدى العامة والخاصة والحكام . وتتلخص
صفحات « عيون الانباء » لابن أصيبعة بهذه الأجور والهدايا التى نالها
الأطباء من العامة والخاصة على السواء (٣٠) . فلا غرابة أن يترك محمد
ابن زكريا الرازى صناعة الذهب ويتجه الى دراسة الطب . يروى البيهقى
« كان محمد بن زكريا الرازى فى بدء أمره صائغا ثم اشتغل بعلم الاكسیر ،
فذهب الى طبيب ليعالجه » ، فقال له الطبيب : لا أعالجك حتى آخذ منك
خمسمائة دينار . فمدف ابن زكريا الى الطبيب الدنانير ، وقال هذا هو
الكينىاء لا ما اشتغلت به . فترك صناعة الاكسیر ، واشتغل بعلم الطب ،
حتى نسخت تصانيفه تصانيف من قبله من الأطباء المتقدمين « (٣١) .
كذلك نال الأطباء الخطوة لدى الحكام والأمراء وذوى النفوذ ، وتبع ذلك
كثير من المزايا المادية والأدبية . يقول نظامى العروضى السمرقندى
فى أهمية الطبيب بالنسبة للحاكم : « فتوأم الملك بالكاتب ، وتخليد الاسم
بالشاعر ، ونظام الأمور بالمنجم ، وصحة البدن بالطبيب » (٣٢) ولعل خير
ما نختم به هذا المبحث هو قول الرازى فى هذا الشأن « ولو لم يكن
لصناعة الطب وللأطباء من الفضل الا ما أنا ذاكره لكانت فيه كفاية . فإنه

قد اجتمع لهم خمس خصال لم تجتمع لغيرهم : الاولى اتفاق أهل الملل والاديان على تفضيل صناعتهم . والثانية : اعتراف الملوك والسوق بشدة الحاجة اليهم ، اذ هم المزرع والغياث ، حين لا ينفع عدة ولا عشيرة . والثالثة : مجاهدة ما غاب عن ابصارهم (من الامراض) ، والرابعة : اهتمامهم الدائم بادخال السرور والراحة على غيرهم . والخامسة : الاسم المشتق من أسماء الله تعالى . ولولم يكن من فضل الطبيب الا أن الانسان ربما يتشوق اليه حين يسأم اكرم الناس اليه وأخصهم لديه ، فانه في العلل الصعبة ربما كره الانسان لقاء أهله وولده ويشتاق الى الطبيب ، ويتروح برؤيته ، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته، لكان فيه مندوحة عن غيره » (٢٣) .

ثانيا : التعليم الطبي بين التخصص العميق والتخصص الضيق :

ان الدارس للطب الاسلامي سوف يلاحظ أن أعلامه لم يكونوا من أصحاب التخصص الضيق الذين يقتصرون على معرفة علومهم التخصصية فقط ، بل نراهم الى جوار ذلك أدباء وفلاسفة ورياضيين وعلماء فلك النج . ويخطئ براون عندما يرجع ذلك الى مجرد أن جملة المعارف لم تكن حينئذ من الضخامة بحيث تتحدى قدرة شخص واحد على الاستيعاب ، وأنه لذلك فنادرا ما كنا نجد طبيبا في العصر الوسيط (يقصد العصر الاسلامي هنا) يقتنع بأن يقصر اهتمامه على العلوم الطبية وحدها أو لا يرغب أن تشمل دراسته الفلك والتنجيم والموسيقى والرياضة بل والأخلاق وما وراء الطبيعية والسياسة (٢٤) . وذلك أن تلك الظاهرة لا تعود الى قلة معارف العصر فقط ، بل الى طبيعة النظرة الاسلامية الى وحدة المعرفة وترابط العلوم . اذ تعرض لنا كتب تصنيف العلوم الاسلامية هذه العلوم في صورة شجرة واحدة متعددة الفروع والأغصان ولكنها جميعا تزيد الانسان معرفة بالله وقربا منه . وهذا التصور الاسلامي للمعرفة نراه بوضوح عند دراستنا لمصنفات مثل احصاء العلوم للفارابي ، ورسائل اخوان الصفا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمي وغيرها من المؤلفات (٢٥) . وهو تصور يستند الى نصوص اسلامية مثل قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي

- ١٠٧ -

أنفسهم » (فصلت : آية ٥٣) . ولا شك أن هذا التصور الاسلامى يختلف عن النظرة التخصصية الضيقة التى سادت العصر الحديث ، والتى سخر أحد العلماء من جدواها قائلا : « انها معرفة الأكثر والأكثر عن الأقل والأقل » (٢٦) . ولقد كانت تلك النظرة التخصصية الضيقة سببا فى عزل « العلم الحديث » عن النظرة الشاملة الى الكون والحياة والانسان وعلاقة ذلك كله بالله (٢٧) .

لقد أدرك المسلمون مبكرا العلاقة بين العلوم بعضها ببعض ، وأن التخصص لا يعنى انفصال هذه العلوم ، بل أن بعض العلوم ضرورى لدراسة البعض الآخر ، وفى ذلك يقول ابن سينا : « تعاون العلوم هو أن يؤخذ ما هو مسألة فى علم مقدمة فى علم آخر ، فالعلم الذى فيه المسألة معين للعلم الذى فيه المقدمة . وهذا على وجوه ثلاثة : أحدها ، أن يكون أحد العلمين تحت الآخر فيستفيد العلم السافل فى مبادئه من العالى مثل الموسيقى من العدد والطب من الطبيعى والعلوم كلها من الفلسفة الأولى ، وأما أن يكون العلمان متشاركين فى الموضوع كالطبيعى والنجومى فى جرم الكل ، فاحدهما ينظر فى جوهر الموضوع كالطبيعى والآخر ينظر فى عوارضه كالنجومى ، فإن الناظر فى جوهر الموضوع يفيد الآخر المبادئ مثل استفادة المنجم من الطبيعى أن الحركة الفلكية يجب أن تكون مستديرة ، وأما أن يكون العلمان متشاركين فى الجنس واحدهما ينظر فى نوع بسيط كالحساب والآخر فى نوع أكثر تركيبا كالهندسة ، فإن الناظر فى الأبسط يفيد الآخر مبادئ كما يفيد العدد الهندسة مثل ما فى عاشرة اقليدس » (٢٨) . ولذلك فإن الدارس للطب كان يجد نفسه محتاجا الى أن يقرأ قراءات واسعة فى شتى العلوم والمعارف التى تخدم مهنته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وهذا هو التخصص العميق وليس مجسرد التخصص الضيق الذى ساد عصرنا الحديث . يقول عبد المجيد عابدين فى تقديمه كتاب : « مقدمة فى تاريخ الطب العربى » : « ولعل هذا الكتاب خير دليل نسوقه الى الذين انزوا فى قمتهم التخصص الضيق لا يغادرونه الا لما . فالعلماء الذين لا يعرفون من الأدب والتاريخ الا اخبارا طائفة

لا غناء عنها ، والادباء والمؤرخون الذين لا يعرفون من العلوم وتاريخها
 الا معرفة خاطفة باهته لا تفرق كثيرا عن الجهل ، هؤلاء وأولئك جميعا
 لا ينجون الطريقة المثلى ، ولا يزال تطور المعرفة يثبت لنا يوما بعد يوم
 أن المعرفة الانسانية شبكة متصلة لا يغنى بعضها عن بعض . ولست
 اعنى بهذا أن يكون المثقف متخصصا في كل علم وفن . فهذا لا سبيل الى
 القول به ، بل اننى أعلم علم اليقين أننا الآن في عصر شعاعه التخصص
 العميق ، ولكن التخصص العميق كما نفهمه لن يؤتى ثمرته المرجوة الا اذا
 اتخذنا من المعرفة البشرية الواسعة وسيلة الى تحقيق هذا التخصص .
 وفرق بين التخصص الضيق وهذا التخصص العميق الذى نقصده . ولن
 يتاح للمتخصص هذا العمق الا اذا اتخذ من تخصصه محورا لدائرة
 واسعة من المعرفة تشمل كل ما تصل اليه طاقته من ألوان الثقافات
 القديمة والحديثة العربية وغير العربية » (٢٩) .

ولقد ساعد على ذيوع تلك النظرة المتميزة في دراسة العلوم ، دين
 يجعل طلب العلم من المهد الى اللحد ، وادبيات تربوية تهت الطلاب على
 التوسع في العلوم والمعارف بقدر ما يستطيع ، ومجتمع يجزل المعلماء
 للأفراد بقدر ما يتقنون من علوم ومعارف متعددة . يقول رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « لا بورك لى فى صحبة لا ازداد فيها علما » ويقول
 تعالى : « وقل رب زدنى علما » (طه ، آية ١١٤) « وفوق كل ذى علم
 عليم » (٤٠) (يوسف ، آية ٧٦) . ويقول طائى كبرى زاده موجه طالب
 العلم فى عصره : « ثم انك ان اخطرت بالبال ، أيها الطالب للفضائل
 والكمال ، أن البنون بحيرة ، وتحصيل كلها بل جلها يسيرة ، مع أن مدة
 السمر قصيرة ، وتحصيل آلات التحصيل عسيرة ، فكيف الطريق الى
 الخلاص عن هذا المضيق ، فتأمل فيما قدمت اليك من العلوم اسما ورسمها ،
 وموضوعا ونفعا ، وفيما اخترت من التفصيل فى طريق التحصيل ، ومن
 آداب بها فرس التمنى يثر .. فان سهل عليك تحصيل تلك العلوم كلها
 فحبذا وقل : « الحمد لله الذى هدانا لهذا » (الأعراف : آية ٤٣) كما
 قال أفلاطون : ما من علم مستقبح الا والجهل به أقبح ، وكما قال
 القائل :

أحرص على كل علم تبلغ الأمسلا ولا تهوتن بعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل مأكهة أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسل
الشمع في الليل ضوء يستضاء به والشهد يبرى باذن البارء العلاء
وان أمجلك الوقت وخشيت ان يخترمك الشواغل بالغوث ، فخذ
ما قال القائل :

ما حوى العلم جميعا أحد لا ولو مارسه ألف سنة
انما المسلم منيع غوره فخذوا من كل علم أحسنه « (٤١)

ولقد كتب هارون الرشيد الى الأمصار بغطاء كل متعلم على قسدر
عليه في رسالة وجهها الى الأمصار يقول فيها : « أما بعد : فانظروا من
القرن الاذان عندكم مآكثوبه في ألف من العطاء ، ومن جمع القرآن وأقبل
على العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأديب مآكثوبه في ألفي دينار من
العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وثقة في العلم واستبحر مآكثوبه
في أربعة آلاف من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا
الأمر من المعروفين بة من علماء عصركم ومضلاء دهركم فاسمعوا قولهم
وأطيعوا أمرهم فان الله تعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم » (سورة النساء : الآية ٥٩) وهم أهل العلم « (٤٢) ورغم
اشتهار كل عالم بفرع أو أكثر من فروع العلم كالطب والهندسة أو الفلك
أو الفقه أو الأدب ... (٤٣) الخ ، ورغم أنه على أساس تلك الشهرة ،
كان ينال الحظوة من الأمراء والكبراء ، الا ان كتب الحضارة الإسلامية
تذكر أنه كان لكل طائفة من العلماء رزق محدود من لدن الأمراء ، وان
بعض العلماء كان يأخذ رزقا أكثر من طائفة واحدة أمثال الزجاج المتوفى
عام ٣١٠ هـ فقد كان له رزق في الندماء ، ورزق في الفقهاء ، ورزق في
العلماء (٤٤) . وكان سيف الدولة بن حمدان « اذا أكل الطعام حضر
على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ، وكان بينهم من يأخذ رزقين لأجل
تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم ، وكان من جملته
عيسى الرقي المعروف بالتفليسي ، وكان مليح الطريقة وله كتب في المذهب
وغيرها . وكان ينقل من السرياني الى العربي ، ويأخذ أربعة أرزاق ،

ورزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب النقل ، ورزقين بسبب علمين آخرين « (٤٥) . بل ان مدى ما يتقن الانسان من علوم كان احد العوامل التى تؤثر حتى على ثمن الجوارى . فقد عرضت جارية موهوبة للبيع على هارون الرشيد بثمن باهظ ، ووافق الخليفة على دفع هذا الثمن بشرط أن تجيب الجارية على أى سؤال يوجه اليها أعلم الحاضرين فى تلك الفروع من المعرفة التى كانت تدعى النبوغ فيها . وبدأ كبار علماء الدين والتفسير والطب والفلك والفلسفة والبلاغة والشطرنج يمتحنونها الواحد تلو الآخر ، وفى كل فرع من هذه الفروع لم تكف الجارية باجاباتها البارعة ، على كل ما وجه اليها من أسئلة ، ولكنها كانت تطرح على استاذ كل فرع فى نهاية الامتحان عددا من الاسئلة لم يحرلها جوابا . وكان الامتحان الخاص بالطب يشتمل على موجز علم التشريح وعلم وظائف الاعضاء وتشخيص الأمراض من واقع الاعراض ، وعلم الأمراض والصحة والتغذية الى غير ذلك من فروع الطب (٤٦) . واذا كان هذا هو تقدير المجتمع لثقافة الجوارى ، فماذا عن تقديره لثقافة العلماء ؟ وهل نستغرب بعد ذلك هذا الاقبال على التخصص العلمى بالمعنى العميق ، وهذا التبحر فى علوم الطب وغيرها من العلوم الخادمة أو المساعدة ؟ وهل انضح لنا بعض اسرار هذا التفوق العلمى فى ميدان الطب الذى حققه العلماء المسلمون فى مدة وجيزة ، بحيث حولوا العلوم الطبية من دراسات دخيلة الى علوم عربية اسلامية أصيلة ؟ .

ثالثا - مؤسسات التعليم الطبى :

بعد أن تحدثنا عن العوامل المادية والأدبية التى دفعت الى دراسة الطب ، وبعد أن بينا أن الاتجاه الى تعليم الطب كان اتجاها يأخذ بالتخصص العميق ، نريد أن نعرض هنا لأهم المؤسسات التربوية التى مارست هذا التعليم الطبى .

١ - المساجد :

منذ أنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة كمكان للعبادة والتعليم وإدارة شئون المسلمين (٤٧) ، ومنذ نزل قوله تعالى :

« الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » (الحج ، الآية ٤١) ، أصبح تقليدا إسلاميا أن يهتم الحكام المسلمون بانشاء المساجد كرمز لقيام دولة الاسلام وسيادته على الاقطار الداخلة فيه . وتمثل المساجد الجامعة الكبيرة في العواصم الاسلامية رموزا حضارية لسيطرة الاسلام السياسية والدينية والثقافية ، وكانت تلك المساجد عبر العصور أماكن علم وعبادة وقيادة وتوجيه ، ويذكر المؤرخون أمثلة لذلك : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذى أنشئ سنة ٢١ هـ ، وجامع المسكر الذى أنشئ عام ١٣٣ هـ وجامع أحمد بن طولون الذى أنشئ عام ٢٥٩ هـ ، والجامع الأزهر الذى أنشئ عام ٣٦١ هـ ... الخ (٤٨) . اذ كانت هذه المساجد الجامعة مركزا للنشاط الدينى والاجتماعى ، ومكانا للاحتفالات الدينية فى الأعياد والمناسبات الاسلامية ، ومقرا لرجال القضاء والخسبة يباشرون منه تنفيذ أحكامهم ، ومؤسسة للتعليم بشتى أنواعه العقلية والعقلية ، يجلس بجوار أعمدته الأساتذة والمعلمون فيلتف الطلاب حولهم وينهلون من علومهم ومعارفهم . ولعل فيما يذكره ابن تغرى بردى ، والمقريزى عما كان يدور فى الجامع الأزهر أن يعطى صورة عامة عما كانت تعج به تلك المساجد الجامعة من أوجه النشاط الدينى والثقافى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى (٤٩) .

وبجوار هذه المساجد الجامعة فى العواصم ، انتشرت المساجد فى مدن العالم الاسلامى ، وقراه ، لكى تقوم بدورها الدينى والتربوى فى حياة المسلمين (٥٠) . ولقد اشرنا فى الفصل السابق الى دور المسجد فى التعليم الابتدائى ، ويهنا هنا أن نبرز دوره فى التعليم الأملئ المتخصص Further Education ، وبالأذات التعليم الطبى موضوع الدراسة .

مقد يظن البعض أن « التعليم الطبى » كان خارج اهتمام دائرة المساجد ، لأن علم الطب كان نوعا من مروع « العلم الطبيعى » وهو من العلوم العقلية لا العقلية ، أو على أساس أن دراسة الطب تحتاج الى أدوات وتجهيزات خاصة ، وممارسات عملية ليس مكانها المسجد ، ولكن هناك إشارات عديدة تنفى ذلك ، وتؤكد أن أعلام الطب الاسلامى قد مارسوا

تدريس الطب في المساجد الجامعة وغير الجامعة ، فالبيهقي عند ترجمته للقاضي الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرازق يقول : « وكان القاضي عبد الرازق ببخارى يدرس في مسجد محلته الطب والحساب حتى توفي بها ، وكان محترماً مكرماً » (٥١) . وابن أصيبعة يذكر أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي كان يدرس الطب في الجامع الأزهر طوال مدة إقامته في مصر . وينقل عن سيرته الذاتية التي كتبها البغدادي نفسه : « وكانت سيرتي في هذه المدة ، أنني أقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار أرجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفي الليل أشتغل مع نفسي » (٥٢) . ولقد نزل البغدادي مصر في عهد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣ هـ ، وظل بها حتى سنة ٥٩٧ هـ ، واشتغل في تلك الفترة بالتدريس ودراسة الخواص النباتية والطبيعية ومزاولة الطب ، والتفحوله جمهرة من الاساتذة والطلاب (٥٣) . ومثل هذه الشواهد تؤكد أن الطب عندما مرب ، واشتغل به الأطباء المسلمون ، فأنهم أدخلوه ضمن فروع العلم الاسلامي ، أو شجرة المعرفة الاسلامية ، ومن ثم وجد طريقته الى المسجد ، أهم المؤسسات التعليمية في حياة المسلمين . ومن المرجح أن يكون « التعليم الطبي » الذي مارسه العلماء في المساجد مقتضراً على « الجانِب النظري » من الدراسات الطبية ، تاركين الجانب العملي والتطبيقي الى المدارس والبيمارستانات . ويظل التعليم الطبي يدرس في رحاب المسجد بصورة أو بأخرى طوال العصور الاسلامية وحتى مطلع العصر الحديث ، عندما يصبح « التعليم الطبي » مثثراً مرة أخرى باللغة الأجنبية ، وبالأخذ من مصادر غير عربية أو اسلامية ، وعندما يسود الاعتقاد الخاطيء أن المساجد للعبادة ، وللتعليم الديني في أجسن الأحوال ، أما العلوم الحديثة فلها مؤسساتها المستحدثة المأخوذة عن الغرب (٥٤) . وهنا يتفصل الطب عن شجرة « المعرفة الاسلامية » ، وينمو بعيداً عن « روح المسجد » وهيئة تعاليم الاسلام وسيطرة اللغة العربية على أبحاثه ودراساته .

٢ - المدارس الطبية :

ظهرت المدارس كمؤسسات تعليمية متخصصة في تقديم الوان العلوم
النقلية والمقلية ومنها الطب ، ووقف الدارسون امام ظهورها محاولين
تفسير اسبابه ، ولماذا لم يكتب المسلمون بالمساجد لتحقيق تلك الغاية ؟
ورأوا ان ظهورها كان تطورا طبيعيا لتنوع العلوم وشدة اقبال الناس
على حلقات العلم حتى حفلت كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية
لا بحلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت
المدرس يلقي الدرس ، واصوات الطلاب يسألون ويناقشون وكانت تتلاقى
الاصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث في المسجد شيئا قليلا
او كثيرا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من ان تؤدي على وجهها ،
وشيء آخر هو ان العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف واصبحت
هناك مواد تستدعي دراستها كثير من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام
وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تنافى طبيعتها تدريسيها
مع ما يجب ان يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال ، ثم تبعا لرأى
Von Kremer « كان هناك جماعة اشتغلوا بالتعليم معظم وقتهم
وحاولوا ان يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس
ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد
حينئذ من انشاء المدارس لتضمن لهم جريات تقوم بحاجاتهم » (٥٥) .
ورغم وجاهة هذه الاسباب السابقة الا انها تتغافل السبب الجوهرى
الذى يتمثل في « روح الخير العمام » الذى يسود المجتمع الاسلامى ،
والذى يلتمس افضل ابواب الانفاق في سبيل الله ، وافضل اسباب الحصول
على رضا الله . ولا شك ان الانفاق على نشر العلم والتعليم كان من اهم
ابواب هذا الانفاق - يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات
ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، او علم ينتفع به ، او ولد
صالح يدعو له » . وفهم المسلمون ان الوقف على التعليم هو افضل
انواع الصدقات الجارية فظهرت الاوقاف التعليمية وزادت ايراداتها ،
واندفع الخلفاء والأمراء والأثرياء والعلماء الى انشاء انواع متعددة
من المدارس يتفرغ فيها الطلاب والاساتذة لدراسة علوم معينة يحددها
(م ٨ - الاعداد التربوى للطبيب)

الواقف (٥٦) . ولقد امتاز التعليم في المدارس بأنه تعليم نظامى طولى الوقت (٥٧) Full time ويقول « خودابخش » : « ان عددا كبيرا من الطلاب كان يسكن هذه المدارس التى يمكن تشبيهها بالكليات الداخلية في جامعتى أوكسفورد وكمبريدج » (٥٨) .

ولقد كانت معظم هذه المدارس آية من آيات الفن الاسلامى انفتحت في بنائها الأموال الطائلة وحُبست عليها الأوقاف العظيمة ، وجعلت الرواتب السخية لاساتذتها وطلابها والموظفين بها . فمدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) على سبيل المثال تعد من أعظم الآثار الاسلامية في العالم وأروعها في مصر . وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص الفن الاسلامى . ففيها الخط الكوفى والخط النسخى وفيها الزخارف التى نقلها المسلمون من الأمم والزخارف التى ابدعوها وصارت من اخص مميزات فنهم (٥٩) . وتصميم المدرسة من الداخل وما به من افنية ومبان رائعة يعطى صورة جيدة لتصميم المبانى المدرسية ، ومحتويات المبنى الدراسى . ونفس الصورة نجدها في تصميم المدرسة المستنصرية وما اشتملت عليه من حمامات ومطابخ وحدائق وساعة عجيبة الصنع عملت لترشد الناس الى اوقات الصلاة والدراسة كما انها عملت بشكل غريب لطيف لتكون زينة تخلق باب المدرسة . ولقد استوقف جمال هذه الساعة انظار المؤرخين فنقلوا لنا وصفها واسم صانعها نور الدين على بن تغلب الساعاتى . ويقول صاحب الحوادث الجامعة : « وفي سنة ٦٣٣ هـ تكامل بناء الايوان الذى انشئ مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ، ويقصده المرضى ويدأويهم ، وبنى في حائط هذه الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طلاقات لحاف لها أبواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طابستان من ذهب ، وراءهما بندقتان من شبه (نحاس يصبغ فيصفر ويشبه الذهب بلونه) لا يدركهما الناظر . فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ويتبع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطلاقات ، والباب من ذهب فيحير حيثئذ مفضضا ، وإذا وثبتت البندقتان في الطابستان تذهبان الى موضعهما ثم تطلع أقمار من ذهب

في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيوبتها فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ، ثم يبتدىء في الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة » (١٠) . كذلك نلاحظ أن المسجد كان يمثل جزءا هاما من المبنى المدرسي ، وأن افتتاح المدرسة كان يؤرخ له بتاريخ أول صلاة أقيمت فيها . فعند التاريخ لافتتاح مدرسة الطب التي أنشأها مهذب الدين يقول ابن أصيبعة : « وأبتدا بالصلاة في هذه المدرسة يوم الجمعة صلاة العصر ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة » (١١) . ولا شك أننا لو درسنا تصميم المباني المدرسية الإسلامية وما اشتملت عليه من مرافق ، وما روعي فيها من أصول هندسية وفنية وإسلامية ، لاستفدنا كثيرا في تطوير تصميمات حديثة لمدارسنا نراعى فيها تلك القيم الجمالية والإسلامية .

ويروى لنا المؤرخون أن علماء ما وراء النهر أصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد ، وأنهم أقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشغل به أرباب الهم العالية والآنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفعون بهم ويعلمهم ، ، وإذا صار عليه أجرة تدانى اليه الأخساء وأرباب الكسل (١٢) . إلا أن هذا الخوف سرعان ما تبدد ، إذ ارتفع أكثر علماء المدارس وطلابها الى مستوى المسئولية العلمية ، ومارسوا واجبه العلمى دون الخضوع لاهواء الحكام ، بحيث كانوا محترمين لهم كرامة وحرمة ، يسمى اليهم الخلفاء والملوك والأمراء وهم لا يسمعون الى أحد منهم (١٣) . وبذلك انتشرت المدارس انتشارا كبيرا ، حتى أن المقرئى يذكر لنا ثلاثا وستين مدرسة كانت في القاهرة وحدها ، والرحالة ابن جبر يصف لنا حوالى ثلاثين مدرسة كانت في بغداد ، وكانت جميعها تفوق أجمل القصور جمالا وروعة (١٤) . والنعمى الدمشقى يفرد مؤلفا خاصا يصف فيه مدارس دمشق وحدها (١٥) . ويهنا أن نلفت النظر هنا الى توغر التجهيزات العلمية لتلك المدارس وبالذات المدارس الطبية موضوع الدراسة ، ونسبة المدرستين الى عدد الطلاب ، والمستوى

المعيشى الجيد للطلاب والعلماء . ويكنى أن نذكر هنا أنه في مدرسة الطب بالمستنصرية ، كان هناك طبيب ، يعلم عشرة طلاب فقط ، وكان هذا الطبيب مسئولاً عن علاج طلاب وأعضاء هيئة تدريس المستنصرية بمدارسها المختلفة ، مما يعتبر مجالاً حيويًا له ولتلاميذه لإجراء التجارب ومعالجة المرضى ، كذلك ضمت المستنصرية دار كتب عابرة بأنواع المؤلفات بلغ عددها عند الافتتاح ثمانين ألف كتاب عدا ما حمل إليها بعد ذلك ، وكانت هذه الدار تساعد طلاب المستنصرية على النسخ والمطالعة والتأليف ، كذلك فقد توفرت للطلاب والعلماء المستوى المادى والأدبى والحرية العلمية مما أتاح لهم التفرغ للعلم والبحث (١٦) .

كذلك ينبغي الإشارة هنا إلى أن إنشاء المدارس لم يكن عملاً حكومياً رسمياً فقط ، وأن الحركة الواسعة التى قام بها نظام الملك فى بلاد الشام ، وصلاح الدين الأيوبي فى مصر من إنشاء عدد كبير من المدارس لا يمكن أن يحجب الحقيقة ، وهى أن الأفراد أيضاً قد أنشأوا الكثير من المدارس ومنها المدارس الطبية ، ولقد سبق أن ذكرنا كيف أن المسلمين قد أدركوا الحاجة إلى تعريب التعليم الطبى والحاجة إلى كسر احتكار غير العرب والمسلمين لصناعة الطب مما دفعهم إلى الاهتمام بإنشاء المدارس الطبية حكماً وأفراداً . وكان بعض الأطباء مثل رضى الدين الرجبى « يرى أن لا يقرئ أحداً من أهل الذمة أصلاً صناعة الطب ، ولا أن يجده أهلاً لها . وكان يعطى الصناعة حقها من الرئاسة والتعظيم . وقال لى أنه لم يقرئ فى سائر عمره من أهل الذمة سوى اثنين لا غير أحدهما الحكيم عمران الأسرائيلى والآخر إبراهيم بن خلف السامرى بعد أن ثقلاً عليه بكل طريق وتشغلاً عنده بجهات لا يمكن ردهم . وكل منهما نبغ وصار طبيباً فاضلاً » (١٧) . ومما يدل على أن إنشاء المدارس الطبية لم يقتصر على الطبقات الحاكمة ما رواه ابن أضيعة فى ترجمة شرف الدين الزهينى : « ولما وقف شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن على رحمه الله الدار التى له بدمشق وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب وانتفع المسلمون بقراءتهم فيها » أوصى أن يكون مدرستها شرف الدين بن الرجبى ،

لما قد تحققته من علمه وفهمه ، فتولى التدريس بها مدة ... الخ « (٦٨) ، ثم صار المدرس فيها بعد الحكيم بدر الدين المظفر رئيس الأطباء في ذلك الوقت (٦٩) . ولقد وقف مذهب الدين لتلك المدرسة « ضياعا وعدة أماكن يستغل ما ينصرف في مصالحها ، وفي جامكية المدرس وجامكية المشتغلين بها » (٧٠) .

ويقف أحمد شلبي عند ظاهرة قلة عدد مدارس الطب ، بالقياس الى عدد المدارس الأخرى ، ويرجع ذلك الى أن الطب كان لا يدرس في مدارس خاصة الا قليلا ، والغالب أن يدرس في المستشفيات ليتمكن التطبيق العملي للنظريات الطبية التي يلقيها الأساتذة على الطلاب (٧١) . ويمكن أن يضاف الى ذلك أن عدد المؤسسات التعليمية الطبية انما يوقف على مقدار حاجة المجتمع الى عدد معين من الأطباء ، وهو عدد اقل عظاما من عدد غيرهم من المثقفين . ولعل في وجود ستة آلاف دارس للطب وحوالي ألف ممارس طبي في بغداد وحدها (٧٢) ، ما يكفي لكي يجعل الواقفين يتجهون بأوقافهم الخيرية الى مؤسسات تعليمية أو خدمات اجتماعية أخرى يشعرون بحاجة المجتمع اليها أكثر وأكثر . كذلك فانه مع تعريب التعليم الطبي وتيسيره للدارسين ، دخل الطب المساجد ، ومقدت له حلقات في منازل الأطباء ودور الكتب وغيرها من مؤسسات التعليم ، مما قلل الحاجة بالفعل للتخصيص مزيد من الأوقاف لإنشاء « مدارس الطب » ، وهذا يفسر لنا لماذا جاءت « مدارس الطب » اقل عددا من غيرها من المدارس في المراجع والمصادر العربية . ولكنها على كل حال ، قللة تلغى دورها كمؤسسة تخصصت في تقديم التعليم الطبي .

٣ - البيمارستانات :

كلمة البيمارستان ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض أو عليل أو مصاب ، (وستان) بمعنى مكان أو دار ، فهي إذن دار المرضى ، ثم اختصرت في الاستعمال فصارت بيمارستان كما ذكرها الجوهري في صحاحه (٧٣) . ويرى المسلمون أن ابقرط كان أول من اخترع البيمارستانات وأوجدها ، وذلك أنه عمل بالترب من داره في موضع

من بستان كان له موصفا مفردا للمرضى وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه أفسندوكين ، أى مجمع المرضى (٧٤) . أما فى الاسلام ، فان الوليد ابن عبد الملك الخليفة الاموى (فى سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) يعتبر اول من بنى البيمارستان ، وجعل فيه الاطباء واجرى لهم الارزاق ، وأمر بالحجر على المجذومين لئلا يخرجوا فتنتشر العدى بين الناس ، وأجرى عليهم وعلى العميان الارزاق (٧٥) . ومنذ هذا التاريخ أصبح بناء البيمارستانات عملا من أعمال الخير يقوم به الخلفاء والسلطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة ، وحسبة ، وخدمة للانسانية وتخليدا لذكراهم (٧٦) . وانتشرت البيمارستانات فى كل العواصم العربية والاسلامية فى مرو والرى ودمشق واطاكية ومكة والمدينة والقاهرة والقروان ومراكش وغرناطة وغيرها (٧٧) . ولدينا معلومات موثقة على نحو أربع وثلاثين من هذه المؤسسات الموزعة فى أرجاء العالم الاسلامى من ايران الى المغرب ومن شمال سورية الى مصر (٧٨) . لعل من أشهرها بيمارستان المقتدرى والسيدة فى بغداد وبيمارستان ابن طولون والداودى فى القاهرة ، ومستشفى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ومستشفى يعقوب المنصور فى مراكش (٧٩) .

ولقد تم اختيار الأماكن المناسبة لاقامة تلك المؤسسات الطبية ، واختيار أشهر أطباء العصر للعمل بها كأطباء وأساتذة فى نفس الوقت . من ذلك أن عضد الدولة عندما أراد بناء البيمارستان العسدى جمع الأطباء واستشارهم فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه المارستان ، وكان الرازى فى جملة من اجتمع على هذا الأمر ، فأمر أن يعلق بعض الغلمان فى كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ، ثم اختار الموضع الذى لم تتغير فيه رائحة اللحم بسرعة موصفا لبناء تلك المستشفى ، ثم أمر عضد الدولة أن يحضروا له ذكر الأطباء المشهورين حينئذ ببغداد وأعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة ، فاختار منهم نحو خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم فى صناعة الطب ، فكان الرازى منهم ، ثم أنه اقتصر من هؤلاء أيضا على عشرة ، فكان الرازى منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازى أحدهم . ثم انه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازى أفضلهم ، فجعله سامورا.

(متفقد المرضى ورئيس الأطباء) البيمارستان العضدى ، وعين معه أربعة وعشرين طبيباً من مختلف التخصصات ، فكان من الطبائعين أبو الحسن بن كسكرى المعروف بتلميذ سنان ، وأبو يعقوب الأهوازي وبنو حسنون وغيرهم . وكان في البيمارستان من الكحالين الفضلاء أبو نصر بن الدحلى ، ومن الجراحين أبو الخير وأبو الحسن بن تقاح وجماعته ، ومن المجبرين المشار إليهم أبو الصلت (٨٠) .

وقد أغدق الملوك والسلاطين والأمراء وأهل الخير على إنشاء تلك البيمارستانات واعدادها وتجهيزها بكل ما تحتاج إليه من أطباء وادوية وأسرة وخدمات ، بحيث اتسعت خدماتها لتشمل القادرين وغير القادرين المقيمين من أهل البلدة والغرباء والوافدين عليها ، المسلمين وأهل الذمة على السواء (٨١) . كذلك فقد توافر لتلك المؤسسات أن تكون أماكن صحية من حيث تصميم حدائقها وأبنيتها وناظوراتها جنباً إلى جنب مع تصميم بنائها الهندسى وأقسامها الطبية بجوار ما نالته من رعاية وعناية الحكام . يقول ابن جبير عند وصفه لبيمارستان صلاح الدين بالقاهرة : « وما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة . وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً ، أبرزه لهذه الفضيلة تاجراً واحتساباً ، وعين قيمياً (رئيس الأطباء) من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت في مقاصير (غرف) ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين ذلك القصر خدمة (أطباء مارسون) يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأفضية والأشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضاً من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء به مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت مجالس للمجانين ، ولهن أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهن ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التاكيد » (٨٢) . أما في المغرب فإن عبد الواحد المراكشى يقدم لنا وصفاً لمستشفى مراكش ، يكاد يعكس نفس الملامح

العامة للبيمارستانات في الاسلام . يقول : « بنى يعقوب المنصور في مدينة
مراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير له مساحة
فسحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه ،
فأثقفوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ،
وأمر أن يغرس فيه مع ذلك جميع الأشجار والمشجومات والمأكولات ،
وأجرى فيه مياه كثيرة ، تدور على جميع البيوتات (حجرات المستشفى) ،
زيادة على أربع برك في وسط أحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش
النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على
الوصف ويأتى فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم يرسم
الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب إليه من الأدوية ، وأقام فيه
من الصيدلة لعمل الأشرطة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب
ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا برىء المريض فإن كان
فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنياً
دفع إليه ماله وتركته وسيبه . ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ،
بل كل مريض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح
أو يموت . وكان المنصور في كل جمعة بعد ضلّاته يركب ويدخل
(البيمارستان) يعود المرضى ويسأل عن أهل بيته (الأقسام الداخلية) ،
يقول : كيف حال القومة (الأطباء الممارسين) عليكم ؟ إلى غير ذلك
من السؤال ثم يخرج . ولم يزل مستمراً على ذلك إلى أن مات ،
رحمه الله » (٨٣) .

ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات في الغالب مقصورة على مداواة
المرضى بأقسامها الداخلية والخارجية ، بل كانت في نفس الوقت معاهد
علمية ، ومدارس لتعليم الطب يتخرج منها المتطببون والجراحون
« الجراحيون » والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب (٨٤) .
بل لفسل طلبة الطب في العصر الاسلامي قد أتيخ لهم من فرص التدريب
العملي والملاحظة السريرية ، وتفرغ الأساتذة للتعليم To train doctors
واعطاء المثل الجيد للممارسة To set an Example to practice ما لم يتح

لاكثر طلاب الطب لدينا الآن . فقد تعسدد وجود الأطباء في البيمارستان الواحد ، مما اتاح للطلاب رؤية كثير من امثلة الفحص والعلاج Clinical demonstration والحكم السريري الجيد Clinical judgement (٨٥) . وعلى سبيل المثال ، فان البيمارستان الكبير بدمشق كان يضم بجوار مذهب الدين الدخوار رئيس اطباء عصره ، والحكيم عمران « وهو من اعيان الادباء واكابرهم في المداواة والتصرف في انواع العلاج ، فتضاعفت اللوائد المكتسبة من اجتماعهما ، ومما كان يجرى بينهما من الكلام في الامراض ومدائنها ومما كانا يصفاه للمرضى » (٨٦) . وكان معهما ايضا في نفس البيمارستان الشيخ رضى الدين الرحبي — الذي كان مسئولاً عن العيادة الخارجية — « وهو من اكبر اطباء سنا واعظمهم قدرا واشهرهم ذكرا ، وكان يجلس على دكة ويكتب لمن ياتى الى البيمارستان ، ويستوصف منه للمرضى اوراقا يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الاشرية والادوية التى يصفها » . ويذكر لنا ابن اصبعة انه كان بعد ان « يفرغ الحكيم مذهب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان (الأقسام الداخلية) وأنا معهم ، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبي فاعاين كيفية استدلاله على الامراض ، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وأبحث معه في كثير من الامراض ومدائنها » (٨٧) .

كذلك فقد ضمت تلك البيمارستانات « مكتبات طبية » يرجع اليها الطلاب والاساتذة ، اذ لا يكتفى الاساتذة بالشرح ، بل يأخذون الطلاب الى المكتبة ، ويدلونهم على المراجع في موضوع الدرس . وتند يظل الطلاب في قراءات ومناقشات مع الاساتذة داخل المكتبة بالساعات الطوال . ويصف لنا ابن اصبعة صورة من ذلك عند ترجمته لأبى المجد بن أبى الحكم الذى كان طبيباً بالبيمارستان الكبير الذى انشأه نور الدين زنكى (١١١٨ — ١١٧٤) بدمشق . فقد كان أبو الحكم « يدور على المرضى به ، ويتفقد احوالهم ، ويعتبر امورهم ، وبين يديه الماشرفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك ... وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه الى القلعة

وافتهقاده المرضى من اعيان الدولة * ، يأتى ويجلس فى الايوان الكبير الذى للبيمارستان وجميعه مفروش ، ويحضر الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت فى الخرستانين (الخزانتين) اللتين فى صدر الايوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ، ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية ويقرء التلايذ ، ولا يزال معهم فى اشتغال ومباحثة ونظر فى الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب الى داره « (٨٨) . ولعل ما كان يفعله ابو الحكم يعطى صورة لعمل عضو هيئة التدريس بالبيمارستانات الاسلامية . فهو يمارس الكشف والعلاج وحوله الطلاب ، ثم بعد ذلك ينصرف معهم الى القراءة والمناقشة والبحث الطبى فى الحالات المرضية التى تستدعى ذلك ، ويعجب الدارس لاهتمام المسلمين بالكتبات المهمة بتلك البيمارستانات وتزويدها بأعداد ضخمة من الكتب والمراجع المختلفة ، حتى ذكر أن عدد الكتب التى وجدت فى مستشفى قلاوون بالقاهرة قد بلغت حوالى مائة ألف مجلد ، أخذت أغلبها من دار الحكمة بالقاهرة (٨٩) . مما أتاح للطلاب والأساتذة جواً علمياً مناسباً .

وطبيعى فى ظل هذه الظروف العلمية ، أن يشمر طلاب الطب فى البيمارستانات بعد تخرجهم بالثقة العلمية والعملية فى أنفسهم ، اذ كان العمل كطبيب ممارس بالبيمارستان دليلاً كافياً على حق الطبيب وكفاءته ، ويروى ابن أصحمة قصة تعكس ذلك ، ذلك أن الفضل أخبر جبرائيل بنليب الرشيد ذات مرة ، أن ماسويه يزعم أنه أعرف الناس بالكحل مما أشار الغيرة فى نفس جبرائيل — وكان بينه وبين ماسويه مناجسة — فقال للفضل : ومن هذا ؟ لعله الذى يجلس بالبواب ؟ فقال له : نعم . قال جبرائيل : هذا كان أكارا (فلاحاً) لى فلم يصلح للكروث (للزراعة)

* لاحظ كيف بدأ أبو الحكم يتفقد الأقسام الداخلية للجمهور العساذى ، ثم بعد ذلك توجه الى افتقاد المرضى من اعيان الدولة ، ثم بعد ذلك انتقل الى التدريس . وقارن ذلك بما يحدث بكلليات الطب من انصراف الأساتذة بمباداتهم الخاصة عن واجبهم التعليمى والاكاديمى .

نطردته ، وقد صار الآن طبيباً ! وما عالـج الطب قط ! فان شئت فاحضره
وانا حاضر . وتوهم جبرائيل — لانه طبيب الخليفة ورئيس اطباء عصره —
انه يدخل بين يديه ويتذلل له . فامر الفضل باحضاره ، فدخل وسلم
وجلس بحذاء جبرائيل . فقال له جبرائيل : يا ماسويه ، اصرت طبيباً ؟
فقال له : لم ازل طبيباً ، انا اخدم البيمارستان منذ ثلاثين سنة ، تقول
لى هذا القول ! ففزع جبرائيل ان يزيد فى المعنى ، فبادر وانصرف فى
الحال وهو خجل ، كذلك عندما دخل ماسويه على الخليفة هارون الرشيد
وساله : تحسن شيئاً من الطب سوى الكحل ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين ،
وكيف لا احسن وانا قد خدمت المرضى بالبيمارستان منذ ثلاثين سنة ؟
فادناه منه (٩٠) مما يدل على ان الخدمة فى البيمارستان (الطبيب الممارس) ،
كان دليلاً كافياً على كفاءة الطبيب .

٤ — منازل الأطباء :

لم يكتف الأطباء المسلمون بتدريسهم فى المساجد ، والمدارس ،
والبيمارستانات بل نجد لاكثرهم « مجالس طبية » كانت تعقد فى منازلهم
ويحضرها الطلاب . ويبدو ان تلك المجالس كانت اقرب الى « السيمينارات
العلمية » المتخصصة التى تمتاز « بالتعمق العلمى » من ناحية وشيوع
روح « الزمالة العلمية » من ناحية أخرى . ويصف لنا ابن اصبينة تلك
الجلسات العلمية ، وكيف كانت تدار ، من ذلك الجلسة التى كان يحضرها
ابن اصبينة لى يقرأ على موقف الدين يعقوب بن سقلاب شيئاً من كلام
أبقراط . يقول : « مكنت أرى من حسن تأنيه فى الشرح وشدة استقصائه
للمعانى بأحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى ، ما لا يجسر أحد على مثل
ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكره ، وحاصل ما قاله ، حتى
لا يبقى فى كلام أبقراط موضع الا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه فى
الجودة ، ثم انه يورد نص ما قاله جالينوس فى شرحه لذلك الفصل على
التوالى الى آخر قوله : ولقد كنت أراجع شرح جالينوس فى ذلك فأجده
قد حكى جملة ما قاله جالينوس بأسره فى ذلك المعنى ، وربما الفاظ كثيرة
من الفاظ جالينوس يوردها بألفاظها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص . وهذا

شيء تفرد به في زمانه » (٩١) . أما جلسة مهذب الدين عبد الرحيم بن على فكانت تأخذ صورة أخرى ، وذلك أنه كان رحمه الله ، اذا تفرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرهم وغيرهم ، يأتى الى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة ، ولابد له مع ذلك من نسخ ، فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون اليه ، ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمستغفلين . وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ، ويبحث معه فيه ، ويفهمه اياه بقدر طاقته ، ويبحث فى ذلك مع المميزين منهم ، ان كان الموضوع يحتاج الى غمض بحث ، أو فيه بحث يحتاج الى تحرير . وكان لا يقرأ أحدا الا ويده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ ، ينظر فيه ويتأمل به ، فان كان فى النسخة الذى يقرأ غلط أمر باصلاحه . وكانت نسخة الشيخ الشيخ مهذب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة ، وكان أكثرها بخطه . وكان أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري ، والمجل لابن فارس وكتاب النبات لأبى حنيفة الديورى . فكان اذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو الى نفسه ، فيأكل شيئا ثم يشرع بقية نهاره فى الحفظ والدرس والمطالعة ويسهر أكثر ليله فى الاشتغال (٩٢) . أما فى منزل الشيخ الرئيس ابن سينا فقد كان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، وتلميذه أبو عبيد يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومى من القانون نوبة ، وابن زيلة يقرأ من الاشارات نوبة ، ويهمن يار يقرأ من الحاصل والمحصل نوبة ، فإذا فرغوا حضر المفقون واشتغلوا بالشراب ؟ وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار (٩٣) . وهكذا تتعدد صور تلك الجلسات العلمية من الشرح والتفسير ، لمراجعة المؤلفات الطبية وتصحيح الترجمات والطبعات ، للمناقشة والبحث وتحرير الرسائل (٩٤) . ولا شك أن تلك الجلسات العلمية الخاصة كانت فرصة لمزيد من الاحتكاك العلمى ، وتبادل الآراء والأفكار الطبية المختلفة .

٥ - المكتبات المتخصصة للدراسات العليا : (Further Education)

يعجب الدارس للعناية التى وجهها المسلمون لاقامة الكثير من المكتبات ، وهذا العدد الهائل من دور الكتب ودور العلم المنتشرة فى أنحاء

العالم الاسلامى . لقد كان عددها يزداد باستمرار كما وكيفا . وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأغراض التى تؤسس المكتبات من أجلها لذلك « نجد فى دنيا الاسلام جميع أنواع المكتبات : المكتبات العامة المفتحة للجمهور على اختلاف أنواعه وأجناسه وثقافته ، والمكتبات الخاصة التى يمتلكها أفراد معينون لخدمة أغراضهم الشخصية ، والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط والخانقاة ، ومكتبات الدولة التى ينشئها الخليفة أو الأمير أو حاكم الولاية ، والمكتبات المخصصة للدراسات العليا ، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعها ، والمكتبات الموجودة فى المشافى والمستشفيات ، وما شابه » (٩٥) . ولقد تعودت كثير من الدراسات أن تنسب فضل ظهور « دار الحكمة » — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا — الى عصر المأمون المباسى ، اذ شاهد عصره أكبر حركة للترجمة وجمع الكتب وتيسيرها ، للباحثين والدارسين . ولكن بالعودة الى المصادر الاسلامية وجدت شواهد كثيرة تدل على أن فكرة جمع الكتب وترجمتها وتيسيرها للدارسين والباحثين يمكن أن ترجع الى زمن الخليفة معاوية ، أو الأمير خالد بن يزيد . ولقد أوضح يوسف العشى فى دراساته القيمة حول المكتبات العربية "Les Bibliothèques Arabs, P. 17" ، أن خالد بن يزيد احتفظ بمكتبة جده معاوية (بيت الحكمة) وأغناها بمجموعات الحديث وكتب الكيمياء والفلك والطب والفلسفة ، وأنه أنشأ حركة لترجمة الكتب الأجنبية الى اللغة العربية وجمع حوله العلماء فى كل مجال . وهذه الأعمال تجعل منه الرجل الذى أعطى لمؤسسة بيت الحكمة طابعها الخاص الذى تطور فى عصر المأمون « (٩٦) . كذلك ورد فى ترجمة ماسرجويه الطبيب المصرى الذى كان معاصرا للخليفة مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ) أن ماسرجويه « كان فى أيام بنى أمية ، وأنه تولى فى الدولة مروانية تفسير كتاب اهرن بن أعين الى العربية الذى وجدته عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله فى خزائن الكتب ، فأمر بإخراجه ووضع فى مصلاه ، واستخار الله فى إخراجه الى المسلمين للانتفاع به ، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحا أخرجه الى الناس وبثه فى أيديهم » (٩٧) . كذلك يذكر المؤرخون أن أبا

جعفر المنصور طلب من ملك الروم أن يرسل اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث له بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (٩٨) . أى أن فكره نقل الكتب من اللغات الأجنبية الى العربية وتيسيرها لطلاب الدراسات العليا فكرة سابقة لعصر المأمون ، الا أن المأمون قد أعطى تلك البدايات الأولية دفعة قوية بحبه للعلوم العقلية وشغفه بنشر العلم ، ولم تقتصر مهمة دار الحكمة في عصره على الترجمة ، وجمع الكتب بل ألحقت بها مكتبة واسعة للخطوط وعدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء بترجمتها وأنشئ الى جانبها مرصد فلكي ، والى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك (٩٩) . وبذلك صارت مثوى العلماء للدراسة والمناقشة والبحث العلمى المتخصص ، حتى لقد اعتبرها هانز « أول جامعة اسلامية » تمارس التعليم العالى والبحث العلمى بالمعنى المعاصر (١٠٠) . وصارت دار الحكمة بصورتها الأخيرة في عصر المأمون هي المثال الذي احتذاه كثير من الملوك والسلاطين والأمراء في القاهرة وقرطبة وبلاد ما وراء النهر وغيرها (١٠١) .

وسيقرا الباحث كيف ان الكتب الأجنبية لم تكن تترجم مرة واحدة ، بل كانت تترجم أكثر من مرة ، يترجمها أكثر من مترجم ، وأن الباحثين في ذلك العصر كانوا يقارنون بين الترجمات الجيدة والرديئة . فكتب جالينوس في الطب على سبيل المثال ترجمها حنين بن اسحاق ، وكان نصيحا بليغا عالما بآراء جالينوس ، وترجمها غير ابن اسحاق ، ولذلك يقول ابن أصيعة : « وجدت بعض الكتب الستة عشر لجالينوس ، وقد نقلها من الرومية الى السريانية سرجس المتطبب ، ونقلها من السريانية الى العربية موسى بن خالد الترجمان ، فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين لى بين نقلها وبين الستة عشر التى هى نقل حنين تبين كثير وتفاوت بين . وأين الألكن من البليغ والثرى من الثريا » (١٠٢) . وسيقرا الباحث كيف أن المأمون كان يعطى حنينا من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مثلا بمثل ، ولذلك كان حنين يتعمد أن تأتى الترجمة فى أكبر عدد من الصلحات ، وفى أفضل نوع من الأوراق فكان يكتب حروفا كبيرة فى أسطر متفرقة ، ورقها كل ورقة بغلظ ما يكون من هذه الأوراق الممنوعة بومئذ ثلاث ورقات أو أربع . « وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب

وتكثير وزنه ، لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله .
 بالقصد ، ولا جرم أنه لفظه بقى هذه السنين المتطاولة من الزمان « (١٠٣) .
 وسيقرأ الباحث الشيء الكثير عن حرص الملوك والأمراء والسلاطين على
 تزويد تلك المكتبات بالجديد من المؤلفات ، وأرسلهم البعوث بحثا عن
 الكتب الجديدة لشراؤها واستجلابها الى تلك المكتبات ، وحرصهم الا تخرج
 الكتب من بلادهم بالبيع . . من ذلك أن الأفضل بن أمير الجيوش سمع أن
 رجلا من العراق كان قد أتى الى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه
 بها ، وأنه اجتمع مع افرائيم بن الزمان الطبيب المصري المشهور ، واتفق
 معه على أن يشتري منه عشرة آلاف مجلد من الكتب التي يكتبتها
 الخاصة — وكان بها أكثر من ثلاثين ألف مجلد — ولكن الأفضل حرصا
 منه على أن تظل الكتب بالديار المصرية ولا تنقل الى موضع آخر ، بعث
 الى افرائيم بثمن الكتب ونقلها الى دار الكتب (١٠٤) . ولما سمع صاحب
 أمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل بكتاب « طبقات الأطباء لابن
 أصيبعة من جماعة من الأطباء ، وكان في دار كتبه عشرين ألف مجلد ،
 حرص على شراء الكتاب الجديد وأرسل في طلبه وكافا بؤلفه على ذلك
 بأن أرسل اليه « المال الجزيل ، والخلع الفاخرة وتشكر ، وقال أشتهى
 منك كل ما تضعه من الكتب تعرفنى به » (١٠٥) . وعندما يطالع الباحث مجرد
 أسماء المؤلفات الطبية الواردة في كتاب واحد مثل كتاب « طبقات الأطباء »
 لابن أصيبعة فإنه سيسيرك ضخامة هذا الكم الهائل من الكتب الطبية
 المترجمة والمؤلفة ، ما بين مختصرات ومراجع موسعة ورسائل صغيرة * ،

* حاول الباحث أن يضم هذا البحث ثبنا بأسماء الكتب الطبية الواردة
 في كتاب ابن أصيبعة كأحد ملاحق البحث ، وأن يرتبها ترتيبا أبجديا بحسب
 الأقطار الإسلامية : العراق والجزيرة ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد المغرب ،
 مصر ، الشام ، وشرع في ذلك فعلا ، ولما وصل الى صفحة ٥٦ من الكتاب
 وهو حوالى ثمانمائة صفحة كان قد جمع أسماء حوالى أربعمائة مؤلف مما
 جعل أعداد هذا الثبت يأخذ وقتا وجهدا طويلا ، ويفطى صفحات عديدة
 لا تتحملها الدراسة الحالية .

ويشعر بهذا الجو العلمي الغنى الذى أتيح للنمو الأكاديمى للطبيب . وهى ظروف قلما تتوافر لكثير من مكاتبنا الطبية وغير الطبية فى عصرنا الحديث (١٠٦) . يضاف الى ذلك التسهيلات والخدمات المكتبية التى كانت تقدمها تلك المكتبات المتخصصة (١٠٧) ، مما وفر للطلاب والأساتذة ظروفًا بحثية مساعدة على البحث والدراسة فى شتى المجالات ومنها الطب .

رابعاً - مناهج التعليم الطبى النظرى :

من الطبيعى أن تتأثر مناهج اعداد الطبيب عند المسلمين فى بداية الامر بآخر المدارس اليونانية وأشهرها وهى مدرسة الاطباء الاسكندرانيين ولقد ظهر هذا الأثر اليونانى فى امرين : الامر الأول : هو الاعداد الثقافى العام اللازم لى يصبح المتعلم طبيباً حكيماً . والامر الثانى : الاعداد المهنى المتخصص لتلك المهنة . اما من الاعداد الثقافى العام فان حنين بن اسحاق بعد أن يسرد بعضاً من حكم وآداب أرسطو - طاليس يقول : « وهذا الصنف من الآداب أول ما يعلمه الحكيم للتفنيذ فى أول سنة مع الخط اليونانى ، ثم يرفعه من ذلك الى الشعر والنحو ثم الى الحساب ثم الى الهندسة ، ثم الى النجوم ثم الى الطب ثم الى الموسيقى ثم بعد ذلك يرتقى الى المنطق ، ثم الى الفلسفة ، وهى علوم الآثار العلوية ، فهذه عشرة علوم يتعلمها المتعلم فى عشر سنين » (١٠٨) . وتكرر هذه العلوم فى منهج اعداد جالينوس الطبيب فهو يقول : « ان أبى لم يزل يؤدبنى بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التى تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سنة ، ثم انه سلمنى فى تعليم المنطق ، وقصد بى حينئذ فى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعتة الى تعليمى الطب فأسلمنى فى تعليم الطب ، وقد أتت على من السنين سبع عشرة سنة » (١٠٩) . ويشير هذان النصان الى أن دراسة الطب كانت احدى الدراسات العقلية اللازمة لاعداد الفيلسوف ، وأنه كان يسبق دراسة الطب : دراسة الشعر والنحو والحساب والنجوم . وسنجد أن هذه الدراسات السابقة لتعلم الطب تكرر دراستها عند الأطباء المسلمين لما يوهى أنها أصبحت متطلباً تعليمياً سابقاً لدراسة الطب . فابن سينا قبل أن يدرس الطب يتعلم حساب الهندسة والجبر والمقابلة على يد

استأذه محمود المساح ، ويتعلم المنطق وشيئا من الفلسفة الطبيعية على يد الحكيم أبى عبد الله الفاتلى (١١٠) . والكندرى قبل أن يدرس الفلسفة يدرس الحساب والمنطق وتآليف اللحون وطبائع الاعداد وعلم النجوم والطب (١١١) . ويبدو أن دراسة المنطق كأحد المباحث العقلية ، اكتسبت أهمية كبيرة فى اعداد الطبيب لأنها تمكن الطبيب من دقة النظر وسلامة القياس (١١٢) . وسنجد أن أحمد بن الأشعث يؤلف كتابه « الأدوية المفردة » لئن تجاوز درجة تعلم الطب الى درجة الفقه فى الطب ، وهو الذى يستطيع أن يفرع ويقيس ويستخرج منه ما هو فيه بالقوة مما لم يذكره المؤلف (١١٢) . ومنذ أن ألف جالينوس كتابه باسم « أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا » ، وجدنا أن كبار الأطباء المسلمين هم أيضا من الفلاسفة المشهورين . ويقول الرازى فى تسمية الطبيب الفناجح : « أن من يريد أن يصل الى مرتبة عالية فى الطب فيجب أن يكون قادرا على فهم ما يقرأ ، وأن يكثر القراءة فى الكتب ، ودائم الاتصال بالفلاسفة والمفكرين ، وأن يدرس الهندسة والنجوم ، والا فانه لا يعرف الأزمنة وحال البلدان ، كما يجب أن يعرف المنطق والا فلن يحسن تقسيم أجناس الأمراض الى أنواعها ، ولا يعرف صواب من أصاب وخطأ من أخطأ ، وكان ابن رضوان الطبيب المصرى يرى أيضا أن لقب الطبيب يجب الا يطلق الا على من يتعاطى الفلسفة والطب معا ، والا فليس طبيا بل متطببا » ، ولكن هذا الاتجاه الذى ربط الطب بالفلسفة سرعان ما واجهه اتجاه معارض رأى أن ابتداء الطب مرتبطا بالفلسفة قد يعوق تقدمه وتطوره الى الأحسن ، وكان أول دعاة هذا الاتجاه عبد الله بن جبرائيل (ت ٤٥٠ هـ) « الذى دعا الى قطع العلاقة بين الطب والفلسفة وتدريس الطب كموضوع مستقل بنوعية معارفه ، وأن يكون تعليمه بالتطبيق أكثر من اعتماده على الجانب النظرى » (١١٤) . ولقد تدعم هذا الاتجاه الأخير بكثرة المؤلفات الطبية التى تعتمد على الملاحظات السريرية وتجارب الأطباء العملية ، وكثرة البيمارستانات التى كانت مجالا خصبا لتقديم أمثلة عملية للفحص والعلاج والممارسة الاكلينيكية .

كذلك فان منهج الاعداد المهنى للطبيب عند المسلمين قد تأثر أيضا

(م ٩ - الاعداد التربوى للطبيب)

في البداية بمدرسة الأطباء الاسكندرانيين من حيث تقديم كتب جالينوس الستة عشر على سبع مراحل ، تشمل كل مرحلة مجموعة معينة من الكتب . أما المرحلة الأولى ، فقد جعلوها بمثابة المدخل الى صناعة الطب ، فان كان الطالب متفرغا للدراسة وله استعداد عقلي لمواصلة التعليم انتقل الى المرحلة الثانية ، وهكذا يزال الطالب يتقدم في دراسته حتى المرحلة السابقة حيث يصبح طبيا « لا يخفى عليه شيء من صناعة الطب » . أما الطالب الذي يظهر عدم استعداده للدراسة ، فانه يتوقف عند المرحلة الأولى التي يستفيد بها ، بأن يستطيع تعاطي أعمال الطب الجزئية السهلة (١١٥) . ولكن هذا المنهج الاسكندري في دراسة الطب سرعان ما وجه اليه النقد من حيث عدم كفاية المحتوى الدراسي ، وعدم سلامة تنظيم الموضوعات . فقد رأى الأطباء المسلمون أن هذه الكتب الستة عشر ليست كافية ، وأن هناك كتباً لجالينوس وغير جالينوس لابد أن تضاف وتدرس . كذلك فان ترتيب تقديم هذه الكتب للطالب لابد أن يعاد النظر اليه ، بحيث يؤخر التشريح مثلا وتقدم دراسة وظائف الأعضاء ، يقول « أبو الفرج بن هندو في كتاب « مفتاح الطب » : أن هذه الكتب التي اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع وزعموا أنها تغني عن متون كتب جالينوس ، وتكفي كلفة ما فيها من التوابع والفصول ، قال أبو الخير الخمار ، وهو استاذ أبي الفرج بن هندو : « أنا أظن أنهم قد قصروا فيها جمعوه من ذلك ، لأنهم يعوزهم الكلام في الأغذية والأهوية والأدوية » . قال : والترتيب أيضا قصروا فيه ، لأن جالينوس بدأ من التشريح ثم صار الى القوى والأنعال ثم الاسطقسات » . ورغم ذلك حاول بعض الأطباء المسلمين أن يدافع عن هذا المنهج من حيث المحتوى والترتيب . يقول أبو الحسن على بن رضوان في « كتاب المنافع » : إنما اقتصر الاسكندرانيون على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس في التعليم ليكون المشتغل بها اذا كانت له قريحة جيدة وهمة حسنة وحرص على التعليم ، فانه اذا نظر في هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس في الطب الى أن ينظر في باقى ما يجد من كتبه » . ولعل دافع أبى الفرج بن هندو امام هجمات استاذه أبى الخير الخمار هو

أوفى دفاع وأشمه ، فهو يذكر أن الاختصار على تلك الكتب الستة عشر إنما جاء لأنها كتب دراسات تحتاج إلى معلم يدرسها مع الطالب ، أما ما سوى ذلك ، فيستطيع الطالب أن يحصله بنفسه دون مراجعة أو مذاكرة أو مطارحة . كذلك فإن الموضوعات أو الكتب التي يريد أبو الخير أن يضيفها إلى الدراسة كتب ستأتي حتماً لأن الطبيب مضطر إلى معرفتها بنفسه وإضافتها إلى الموضوعات التي درسها مع أساتذته فيما قبل ، وسيتمكن أن يفعل ذلك بسهولة ما دام قد درس الكتب الستة عشر وفهمها واستوعبها . أما الهجوم على ترتيب الموضوعات الدراسية ، فإن الترتيب المنطقي لها غير مهم في نظر ابن هندو ، والمهم عنده أن تدرس تلك الموضوعات على أي حال . ورغم أنه يعترف أن ترتيب أبي الخير المقترح هو أكثر منطقية إلا أنه يفضل أن يحافظ على ترتيب الاسكندرانيين « لأن المعلم حاصل على كل حال ، وخرق أجماع الحكماء معدود من الخرق » (١١٦) .

وإذا كان المنهج الاسكندري في تعليم الطب أن يستمر مع هذا النقد ، فقد كان استمراراً إلى حين . إذ بظهور أعلام الطب الاسلامي وظهور ألوان متعددة من التأليف الطبي ، بدأ واضحاً أن المؤلفات العربية تمثل مرحلة أعلى في تطور التعليم الطبي ، إذ استفادت بكل المؤلفات السابقة وزادت عليها وتجنب ما فيها من قصور . وهذه هي سنة تطور العلوم . يقول الرازي : « فإن الصناعات لا تزال تزداد وتقرب من الكمال على الأيام وتجعل ما استخرجه الرجل القديم في الزمان الطويل (في مثال) الذي جاء من بعده في الزمان القصير حتى يحكمة ، ويصير سبباً يسهل له استخراج غيره به ، فيكون مثل القدماء في هذا الموضع مثل المكتسبين ، ومثل من يجيء من بعد مثل المورثين ، المسهل لهم ، ما ورثوا اكتساباً أكثر وأكثر » (١١٧) . وهذا اعتراف من الرازي بفضل القدماء مع التأكيد على تطور الطب بتقدم المصور . ولقد تعددت أنواع المؤلفات الطبية في العصر الاسلامي بحيث يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع :

(١) النوع الأول : كتب ابتدائية على صفة مدخل لعلم الطب ، وهي كتب مختصرة وسهلة المنال والحفظ مثل كتاب : « ما الفارق » للرازي

وهو مؤلف من أسئلة وأجوبة دقيقة على كل سؤال للتشخيص التفريقي بين الأمراض المتشابهة . وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة ، وهو تقويم مؤلف من مبرعات ومستطيلات ليس على الطالب إلا أن ينظر في الكلمة التي يبحث عنها حتى يجد الجواب مقسما كما يريد (١١٨) . وكتاب الأسباب والعلامات لنجيب الدين السمرقندي ، وما لا يسع الطبيب جهله لجمال الدين الكتي وغيرها من المختصرات (١١٩) .

(ب) النوع الثاني : الكتب المطولة المستصى فيها كل شئ من الطب وأقسامه ولعل كتاب القانون لابن سينا ، وكتاب « الحاوى » في الطب للرازي يمثلان هذا النوع من الكتب المطولة ، التي تعتبر موسوعات طبية * .

Physiology	فقاؤون ابن سينا على سبيل المثال تشمل أعمال البدن
Pathology	وتشريح البدن Anatomy وعلم الأحوال
Symptomatology	وعلم الأسباب Aetiology وعلم الملاحظات
Sphygmology	وعلم التشخيص Diagnosis ، والنمض
Stool	والقارورة Urinology ، والبراز
Hygiene, (Preservation of Health)	وعلم حفظ الصحة
Pediatrics, (Regimen for infants)	وتدبير الأطفال
Regimen for Adults	وتدبير البالغين
Geriatrics (Regimen for old ages)	وتدبير المشايخ
Exercise, Gymanastice	والرياضة
Regimen for Travellers	وتدبير المسافرين
Various Methods of treatment	وطرق العلاج المختلفة
Homeopathy	بالضد Heteropathy أو العلاج بالمثل
والتدبير بالعلاج	

* كان الباحث يود أن يضمن بحثه فهرست كتابي القانون لابن سينا ، والحاوي للرازي كملاحق للدراسة ، حتى يأخذ القارئ فكرة عن موسوعة هذا المؤلفات ، ولكن اتضح أن ذلك سوف يأخذ صفحات كثيرة (خمسة وعشرون صفحة على الأقل) فكتفى بما ذكره هنا .

Treatment by Nutrition والعلاج بالغذاء Regiminal Treatment
والعلاج بالدواء Treatment by Medicine ، والعلاج بالجراح
Manipulation (surgery) (١٢٠) .

أما كتاب الحاوي للرازي فربما كان أشمل مؤلف كتبه رجل طب ،
اذ يحتوى على المعلومات الطبية الكاملة التى وردت فى اللغة اليونانية
والسريانية والعربية بالإضافة الى تجاربه وخبرته الطبية الخاصة .
والكتاب يتناول جميع أمراض البدن من الرأس وحتى القدم : فالجزء الأول :
يتناول أمراض الرأس ، والثانى : أمراض العين ، والثالث : أمراض الأذن
والأنف والاسنان ، والرابع : أمراض الرئة ، والخامس : أمراض المريء ،
والمعدة ، والسادس : الاستفراغات والتسمين والهزال ، والسابع : أمراض
الثدى والقلب والكبد والطحال ، والثامن : فى قروح الأمعاء وأورامها
والمنفص ، والتاسع : فى أمراض الرحم والحمل ، والعاشر : فى أمراض الكلى
ومجارى البول وغيرها ، والحادى عشر : فى أمراض الحيات والديدان
فى البطن والبواسير والحذب والنقرس والدوالى وداء الفيصل وغيرها ،
والثانى عشر : فى السرطان والأورام والدمامل وغيرها (١٢١) . ونرى الرازى
عند مناقشته لى مرض من هذه الأمراض يبدأ بذكر كل ما أورده الاغريق
والسريان والعرب والفرس والهنود عن هذا المرض ثم ينتهى بعرض آرائه
وتجاربه الخاصة (١٢٢) .

(ج) النوع الثالث : الكتب المعدة للأطباء الممارسين يرجعون اليها
عند ممارسة المهنة ، وهى كتب مجردة فى الأغلب من ذكر أقوال السابطين
فى كل حالة ، وتكتفى بعرض الحالة والعلاج الشائع لها ، وكانت تسمى
فى الغالب « كناشات » . و « الكناش » كتاب طبى يضمه أحد الأطباء
المشهورين لنفسه أو طلابه أو لغيره من الأطباء الممارسين يودعه خلاصة
تجاربه الطبية مثل : « التذكرة المفيدة والذخيرة الحميدة » لعز الدين
ابن السويدى (١٢٣) ، وفردوس الحكمة فى الطب لأبى الحسن على بن سهل
الطبرى (١٢٤) ، أو مجرد كناش « ملان » ، اذ كثيرا ما يورد ابن أصيعة
عند ترجمته لأطبائه عبارة : وله من الكتب كناشه ، وهو الذى يعرف به

ويُنسب إليه ، وهو ما استخرجه وجربه في أيام حياته ، أو وله « كتاب لطيف » ... الخ (١٢٥) . وفي الغالب فإن الأطباء لم يؤلفوا هذه الكتابات إلا في أواخر أيام حياتهم ، بعد أن تكون لهم خبرات واسعة في ميدان الممارسة العملية تستحق التسجيل . يقول على بن رضوان : « وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لى وأغيرها في كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقدير الذى استقبل به السنة الستين من ذلك » (١٢٦) . والذى يقرأ ابن أصبعية سوف يلاحظ الكثرة الهائلة لهذا النوع من المؤلفات .

(د) النوع الرابع : كتب ورسائل وضعت في موضوعات طبية خصوصية واقتصرت على معالجة هذا الموضوع الخاص مثل : كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها ، للرازي (١٢٧) ، وكتاب في الفالج ، وكتاب في هيئة العين له أيضا ، وكتاب في القولنج ، وآخر في النبض لابن سينا ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة الكحالين لعلى بن عيسى الكحال ، والمعرى مقالات في العين المنسوب لحنين بن إسحاق ، ومنهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان لابن أبى نصر العطار (١٢٨) إلى غير ذلك من المؤلفات العديدة التى تتناول موضوعا واحدا مثل أمراض المفاصل ، والمولودين لسبعة أشهر ، وأمراض القلب ... الخ (١٢٩) .

والإدريس لكتاب واحد مثل عيون الأتباء في طبقات الأطباء يستطيع أن يجسد اثباتا طويلة من أسماء الكتب والمؤلفات الطبية . ولقد حاول الباحث بالفعل أن يحصى تلك المؤلفات وأن يصنفها على تلك الأقسام الأربعة السابقة ، أو يصنفها حسب بلدان المؤلفين ، ولكن وجد أنه عمل يحتاج إلى وقت وجهد كبير ، يرجو أن يتفرغ له فيما بعد ، ولكن المهم هنا أن نلفت الانتباه إلى أن « التعليم الطبى » تحول بالتدريج من التركيز على المنهج السكندرى في « تعليم الطب » إلى التركيز على تلك المؤلفات الإسلامية . ولذلك فإن السمرقندى (٥٠٠ — ٥٥٢ هـ) عندما يعرض لمتاهج اعداد الطبيب ، فإن المؤلفات الإسلامية في الطب تحتل أهمية بارزة

في هذا المنهج ، يقول السمرقندي : « وعلى الطبيب أن يحصل في علم الطب . . فصول بقراط ، ومسائل حنين بن اسحاق ومرشد محمد بن زكريا الرازي وشرح النيلي الذي أجمل هذه المؤلفات . وعليه أن يطالعها بعد قراءتها على أستاذ مخلص . ثم ان عليه أن يستقصى استقصاء تاما الكتب المتوسطة وهي : ذخيرة ثابت بن قرة ، أو المنصوري لمحمد ابن زكريا الرازي ، أو الهداية لأبي بكر الأجويني أو الكفاية لأحمد بن مرج ، أو الأفراس لسيد بن اسماعيل الجرجاني وذلك على أستاذ مخلص . ثم عليه بعد ذلك أن يحصل على أحد الكتب المفصلة مثل : « الست عشرة رسالة » لجالينوس ، أو الحاوي لمحمد بن زكريا الرازي ، أو كامل الصناعة أو صدياب (مائة باب) لأبي سهل المسيحي أو القانون لأبي علي ابن سينا ، أو الذخيرة للخوارزمي . وأن يقرأ هذا الكتاب في وقت الفراغ . فإذا أراد أن يستغنى عن هذه الكتب كلها ، فقد يكتفى بالقانون ، فإن سيد الكونين وإمام الثقلين يقول : « كل الصيد في جوف الفرا » . فكل ما ذكرت موجود في القانون مع زيادات كثيرة . وكل من يحيط علما بما في المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شيء من أصول علم الطب وكنياته . ولو بعث بقراط وجالينوس الى الحياة لحق لهما أن يسجدا لهذا الكتاب (١٢٠) .

ولقد كان طالب الطب يتلمذ في الغالب لأستاذ مشهور ، يقرأ عليه تلك الكتب ، ويتدرج معه من المختصرات الى المتوسطات ، ثم الى الكتب المفصلة . وكانت التلمذة ضرورية لحسن تخرج الطالب . لأن « المعلم » يعطي فكرة عن الكتاب ، وصاحبه ، وأسلوبه في التأليف ويشرح الغامض منه ويناقش المحتوى ويتأكد من حسن فهم الطالب . وبعد مرحلة « القراءة على المعلم » ، تأتي مرحلة « الاطلاع الذاتي » والتبحر في الدراسات الطبية . ويبدو أنه بازدياد التأليف الطبى وكثرة الشروح والمبسوطات ظهر « اتجاه تعليمي » محدود يرى أن تعليم الطب ليس محتاجا الى وجود المعلم ، وأن الطب أصبح من العلوم السهلة التي يستطيع أن يحصلها الطالب بنفسه ويقرأ فيها منفردا . وكان ابن سينا وابن رضوان خير مثلين لهذا الاتجاه ، إذ تعلموا الطب بدون معلم ، ولابن رضوان كتاب

يعرض فيه رأيه في هذا الموضوع ، ويوضح فيه أن تحصيل الطب من الكتب أوفق في تحصيله على يد معلمين . وقد رد ابن بطلان على هذا الكتاب في مؤلف امرده لذلك وأورد فيه البطل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من التعلم من الكتب . إذ لا شك أن التعلم من انسان ناطق أدمى لصحة الفهم من التعلم من جماد ، وهو الكتاب — كذلك فإن الكتب قد تكون صعبة الأسلوب ، أو مشتملة على مصطلحات علمية لا يدركها الطالب منفردا ، وقد توجد بهما من الأخطاء ما يصد عن العلم أو يفسد المعنى المراد « مثل التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالاعراب ، أو عدم وجوده مع الخبرة به ، أو فساد الموجود منه . واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب ، ونحو التعليم ونط الكلام ومذهب صاحب الكتاب ، وسقم النسخ ورداءة النقل ، وادماج القارئ مواضع المقاطع وخلط مبادئ التعليم ، وذكر الفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة ، والفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس ، وهذه كلها معوقة عن العلم وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند شراسته على المعلم ، وإذا كان الأمر على هذا فالقراءة على التلماء أفضل واجسد من قراءة الانسان لنفسه » (١٢١) . وإذا تتبعنا سيرة حياة أكثر الأطباء المسلمين الذين ترجم لهم ابن أصيبعة لوجدنا أن الغالبية العظمى تعلمت على يد أستاذ أولا ، ثم تابعت القراءة ولازمت الاطلاع الذاتي فيما بعد ، مما يؤكد على غلبة هذا الاتجاه في التعليم الطبى النظرى .

ويلاحظ أننا نستخدم هنا مصطلح « التعليم الطبى النظرى » وثق التعريف السينوى الذى يشمل دراسات الطب نسواء ما اتصل بأصول الطب وعلومه الأساسية ، أو ما يتعمل بكيفية مباشرته . أما الممارسة الطبية الفعلية ، أو التعليم السريرى فسوف نعالجه فيما بعد عند حديثنا عن أساليب الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . ويعرف ابن سينا ميدان هذا التعليم النظرى فيقول : « الطب علم تتعرف منه أحوال بدن الانسان من جهة ما يصح وتزول عنه الصحة ؛ ليحفظ الصحة حاصله ويستردها زائلة » ويرى ابن سينا ، أن من الطب ما هو نظرى ، ومنه ما هو عملى ،

لكن لا يصح الظن « أن أحد قسمي الطب هو تعلم العلم ، والقسم الآخر هو المباشرة للعمل » لأن كلا من القسمين « علم ، لكن أحدهما علم أصول الطب والآخر علم كيفية مباشرته » . والقسم الأول يفيد التصور بالفكر من غير بيان كيفية عمل ، مثل القول : « بأن أصناف الحميات ثلاثة » . والقسم الثاني يفيد رأيا يبين كيفية عمل ، وإن لم يصاحبه مزاولة حركة بدنية مثل القول : « بأن الأورام الحارة يجب أن يقرب اليهسا في الابتداء ما يردع ويبرد » (١٢٢) . فالتعليم الطبى النظرى بهذا المعنى يقابل التعليم بالممارسة ، والتعليم بالملاحظة السريرية ، ومن ثم فقد شمل هذا التعليم خبرات الأطباء السابقين في الميدان . ولقد أدرك المسلمون أهمية هذا التعليم النظرى للنجاح في ميدان الممارسة العملية ، يوضح ذلك ما ذكره الرازى في كتابه المنصورى في الطب : « هذه صناعة لا تمكن الانسان الواحد ان لم يحتذى فيها على مثال من تقدمه ، أن يلحق فيها كثير شيء ولو أفنى جميع عمره فيها ، لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الانسان بكثير ، وليست هذه الصناعة فقط ، بل كل الصناعات كذلك . وإنما أدرك من أدرك من هذه الصناعة الى هذه الغاية في الوفاء من السنين الوفاء من الرجال . فإذا اقتضى المقتضى أثرهم صار أدركهم ، فكم عساه يمكنه أن يشاهده في عمره ، وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس واشدهم عناية بهذا الباب ، على أن من ينظر الى الكتب ولم يفهم صورة المثل في نفسه قبل مشاهدتها ، فهو وإن شاهدها مرات كثيرة أغفلها ومر بها صفحا ولم يعرفها البتة » (١٢٣) . وإذا كان الرازى يؤكد هنا على أهمية التعليم النظرى في أعداد الأطباء فإنه لم يقلل من أهمية الممارسة ومزاولة المهنة ، بل هو يوضح هذه العلاقة المتبادلة بين الأعداد النظرى الجيد ، والممارسة العملية والملاحظة السريرية المستمرة عندما يقول في كتابه المرشد أو الفصول : « ليس يكفى في أحكام صناعة الطب قراءة كتبها ، بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى ، إلا أن من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبل التجربة كثيرا . ومن زاول المرضى من غير أن يقرأ الكتب يفوته ويذهب عنه دلائل كثيرة

ولا يشعر بها البتة ، ولا يمكن أن يلحق بها في مقدار عمره ولو كان أكثر لناس مزاوله للمرضى ، ما يلحقه قارئ الكتب مع أدنى مزاوله ، فيكون كما قال الله عز وجل : « وكأين من آية في السموات والأرض يهرون عليها وهم عنها معرضون » (١٢٤) (سورة يوسف : الآية ١٠٥) .

خامسا : طرق الاعداد التربوى والمهنى :

لقد تعددت طرق التدريس وأساليب الاعداد التربوى والمهنى عند المسلمين ، تعددا ساعد على جودة « التعليم الطبى » ، وزاد من كفاءته الداخلية والخارجية ، ويمكن ان نلمس جودة هذا التعليم الطبى بما أنتجه لنا من حضارة طبية زاهرة ، وبما وصل اليه من مستحدثات في ميدان الوقاية والعلاج . ولعلنا نستطيع ان نوجز الطرق المستخدمة في تربية الطبيب واعداده وتدريبه على النحو التالى :

١ - الملاحظة السريرية والممارسة :

ادرك المسلمون ان التعليم الطبى النظرى لا يمكن أن يغنى عن الملاحظة السريرية ، والممارسة العملية ، فالطبيب لا يصبح طبيا الا اذا جمع بين التعليم الطبى والنظرى والملاحظة السريرية والممارسة العملية . وفى ذلك يقول الفارابى : « فان الطبيب انما يصير معالجا كاملا بقوتين : احدهما القوة على الكليات والقوانين التى استفادها من كتب الطب والأخرى القوة التى تحصل له بطول المزاوله لأعمال الطب فى المرضى ، والحكمة فيها بطول التجربة والمشاهدة لأبدان الأشخاص . وبهذه القوة يمكن الطبيب أن يقدر الأدوية والعلاج بحسب بدن بدن فى حال حال » (١٢٥) .

فقرأة الكتب الطبية لا تكفى فى احكام صناعة الطب كما يقول الرازى « بل يحتاج مع ذلك الى مزاوله المرضى » (١٢٦) . ولقد كان لانتشار البيمارستانات فى العالم الاسلامى أثره فى ازدهار التعليم الطبى عن طريق الملاحظة السريرية والممارسة . ويخفى كتاب ابن أصبغة بالحديث عن مشاهدات الطلاب لكبار الأطباء وهم يجرون فحوصاتهم المختلفة بدقة وعناية (١٢٧) . فهذا موفق الدين يعقوب بن سقلاّب « وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان اذا افتقد مريضا لا يزال يستقصى منه

عرضا مرضيا ، وما يشكوه وما يجده من مرضه حالا حالا ، الى أن لا يفترق عرضا يستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبره ، فكانت معالجاته لا مزيد عليها في الجودة « (١٣٨) . وعلى بن رضوان يوضح لطلابه طريقة التشخيص الكاملة بقوله : « تعرف العيوب هو أن تنظر الى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملبس البشرة ، وتفتقد أفعال الأعضاء الباطنية والظاهرة ، مثل أن تنادي من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه ، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة ، ولسانه بجودة الكلام ، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشي وأنحاء ذلك ، مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا ، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ومدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما ، وتعتبر بذلك حال أحشائه ، وتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق ، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط ، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء ، ونهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء ، وأخلاقه الى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها بما يحركه أو يسكنه ، وعلى هذا المثال أجز الحال في تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق . أما فيما يمكن ظهوره للحس فلا تقتنع فيه حتى تشاهده بالحس ، وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة . وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة . حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب ، حاضر ، أو كان أو متوقع ، أم الحال حال صحة وسلامة » (١٣٩) . وهي طريقة كما ترى شاملة في الفحص السريري لا تكاد تترك عرضا من الأعراض الا وتوقفت عنده ولا وسيلة من وسائل التشخيص الا أوصيت به . ولما كان التشخيص عن طريق النبض يحتاج الى مهارة فائقة خصوصا في غياب « الأجهزة الطبية الخاصة بقياسه » فقد لفت الأطباء المسلمون نظر الطلاب الى ضرورة التدريب عليه لاكتساب المهارة الخاصة بالتشخيص عن طريقه . يقول المجوسى : « ان العلم بأمر النبض صعب ومعرفته عسرة المأخذ ، وذلك من ثلاثة أشياء : أحدها أنه لا يسهل على الانسان أن يتدرب في مجسدة العروق درية يصير بها الى معرفة التغير اليسير الحادث في النبض . والثانى : أنه يحتاج (الطبيب) عند جسي الشريان أن يعرف أجناس النبض كلها في زمان يسير وهي عشرة أجناس ، والثالث : أن نبضات العروق ليس لها شبيه ولا مقياس يقاس به ويتعلم

عليه ، ولذلك قد يجب على الطبيب أن يرتاض في جس العروق زمانا طويلا .
رياضة ثامة بعناية وفهم « (١٤٠) .

ولقد أعطى كبار الأطباء أمثلة جيدة لممارسة مثل هذه الفحوصات الدقيقة عمليا أمام الطلاب . ويحدثنا ابن أصيبعة عن مشاهدة وتجربة أن الحكيم عمران « كان يظهر أمام طلابه من حسن المعالجة وتحقيقه للأمراض ما يتعجب منه ، حتى أنه عالج أمراضا كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة وينس الأطباء من برئهم فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها ، ومعالجات بديعة عرفها » (١٤١) . ولعل أسلوب التعليم السريري الذي مارسه الرازي أن يعطى فكرة عما كان عليه أسلوب التعليم السريري عند المسلمين . فقد كانت تعرض الحالات السريرية ، فيتصدى لها الطلاب بمناقشة الحالة ، فإذا صعب عليهم تشخيص الحالة ووصف العلاج دخل بينهم الرازي ليوضح لهم ما عسر عليهم فهمه (١٤٢) . أما الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم ، فكان يهر على المرضى في المستشفى ومن ورائه عدد من التلاميذ فيستجوب المريض عن شكواه ، ثم يفحص بدنه ، ثم ينظر الى قارورته وبصاقه ونبضه وما الى ذلك من شواهد المرض وعلاماته . ثم ينسحب أبو المجد ، بعد ذلك الى ايوان خاص بالمستشفى فيقوم على دكة فيه ويقعد التلاميذ من حوله على بسط مشروشة . ويبدأ المعلم في استعراض ما يشكو منه المريض أمام التلاميذ والأمراض المرضية التي لاحظها عليه ويربط بين هذه وبين شكواه ، ويصل بالاستنتاج الى تشخيص المرض ثم يذكر طريقة معالجته . فإذا صعب على المعلم تشخيص المرض أو طريقة علاجه التفت كتابا من مكتبة المستشفى وقرأ به عن ذلك المرض . ويطول هذا الدرس التطبيقي أو يقصر بحسب عدد المرضى وغرابة الحالات المرضية التي تحتاج الى كثير من التدارس وتعليم الطلاب عليها (١٤٣) . وأما في العمليات الجراحية ، فإن استيعاب دروسها يعتمد في الدرجة الأولى على نباهة التلميذ ومتابعة خطواتها العملية ، ولابد أن الدروس الجراحية كانت قليلة بسبب قلة العمليات الجراحية التي يمارسها الأطباء . يعكس عمليات

الفصد التي كانت شائعة ، وكان المعلمون يدرّبون تلاميذهم على هذه العمليات باستعمال أوراق النباتات التي تبرز فيها عروق الماء كالخس والسلق ، فيتمرن التلميذ على العثور على هذه العروق بالنظر واللمس وقطعها بالموس الى أن تستقيم ضربات يده قبل تطبيقها على عروق جسم الانسان (١٤٤) . ولقد كان أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى (٥٠٠ هـ) اكبر من برع فى الجراحة وأجرى العمليات الجراحية واستعان بالآلات والأدوات فى ذلك (١٤٥) . ويعطينا كتابا « آلات القلب والجراحة والكحالة عند العرب » و « دعوة الأطباء على مذهب كيلة ودمنة » (١٤٦) ، صورة مجلدة لآلات الجراحة المستخدمة فى ذلك العصر ، والتي تدرب الطلاب على استخدامها تحت اشراف اساتذتهم .

٢ - القراءة الذاتية :

تعددت المؤلفات الطبية تعددا كبيرا من مبسطة ومختصرة . وكان لكل مؤلف مميزاته وخصائصه وإضافاته التي يضيفها الى ميدان الطب ، بحيث بدا من المحال أن يدرس الطالب هذه الموضوعات كلها على يد أستاذ ويقراها تحت اشراف معلم . يقول الحكيم أبو سعيد : « كثرت التصانيف فى الصناعات الطبية مبسطة ومختصرة ، ولكل جامع نظم وترتيب مفرد ، وكل مجموع لا يخلو عن فوائد غريبة ونكت عجيبة ، ولكل واحد غرض صحيح ليس لسواه » (١٤٧) . ولذلك فإن تعليم الطب النظرى كان يستلزم بجوار القراءة على يد أستاذ ضرورة اللجوء الى القراءة الذاتية والاطلاع الخارجى . ولقد أظهر الأطباء المسلمون ادراكا كبيرا لاهمية القراءة وأبدوا حرصا فائضا على الاطلاع . ورغم عدم توافر الطباعة فقد اقبلوا على استنساخ الكتب واقتنائها بخطوطهم ، أو خطوط النساخ والكتبة . ويمعب الدارس كيف استطاع الأطباء فى ظل هذه الظروف أن يجمعوا هذا العدد الهائل من الكتب فى مكتباتهم الخاصة . فابن أصيبعة يروى لنا على سبيل المثال أن أبا كثير أفرائيم بن الحسن ، كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان أبدا عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفائتهم منه . ولقد باع أبو كثير عشرة آلاف مجلد من مكتبته الخاصة قبل وفاته ، وخلف من الكتب ما يزيد على عشرين ألف

مجلد (١٤٨) . وموفق الدين أبو النصر مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجا عما استنسخه . وكان في خدمته ثلاثة نسخا يكتبون له أبدا ، ولهم منه الجمايكة والجراية . كما كتب موفق الدين أيضا بخطه كتب كثيرة « وقد رأيت عدة منها ، وهى فى نهاية حسن الخط والصحة والأعراب ، وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته ، وأكثر الكتب التى كانت عنده توجد وقد صححها وأثقت تحريرها وعليها خطه بذلك » (١٤٩) . فهو لا يكتفى بالقراءة ولكنه يصحح ما يقرأ ويحرره ويعلق عليه بخط يده . وعلى بن رضوان بعد المستين من عمره يرى أن حاجته الى القراءة قد قلت بعد هذا العمر الطويل من الدراسة ، ويريد أن يقتصر مكتبته ويستغنى عن غير الضرورى فى مثل هذه السن ، فيرى أن يقتصر منها على : « خمسة كتب من كتب الادب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب أبقراط وجالينوس فى صناعة الطب وما جئناها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكتب روفس ، وأريباسيوس ، وبولس ، وكتاب الحاوى للرازي . ومن كتب الفلاحة والصيد أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله ، وما انتفع به فيه ، والرياسة لبطليموس ، ومن كتب العارفين كتب افلاطون ، وأرسطو طاليس ، والاسكندر ، وثامطيوس ، ومحمد الفارابى ، وما انتفع به فيها ، وما سوى ذلك اما أبيه بأى ثمن اتفق ، واما أن أخزنه فى صندوق ، ويبيعه أجود من خزنه » (١٥٠) . فحتى هذه السن المتأخرة ، وبعد هذه الشهرة الذائعة التى حققتها ابن رضوان ، يذكر لنا هذا الثبت من المؤلفات الأمهات التى يرى أنه لا يجوز الاستغناء عنها لطبيب . وقل أن يترجم ابن أصيبعة لطبيب دون أن يذكر عبارات مثل : « وكان أبدا سائر أوقاته لا يوجد الا معه كتاب ينظر فيه » أو « وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته » أو « فكان أبدا لا يفارق فى كبه مجلدا يطالع به أين توجه » الى غير ذلك من العبارات التى تدل على مقدار شيوخ القراءة الذاتية كاسلوب من أساليب الاعداد الجيد للطبيب .

فالطالب ينتقل من القراءة على يد أستاذ (١٥١) ، الى القراءة الدقيقة المتأنية التى يعلق فيها الطالب على ما يقرأ ، ويحقق ويقارن ويستخرج

مختارات لنفسه ، ثم الى القراءة السريعة الخاطفة التى ينتجه فيها من الكتاب الى الموضوع المحدد الذى يريده ، حيث الاضافات الجديدة التى يضيفها الكتاب . ويصف لنا البيهقى هذا النوع الأخير من القراءة من خلال صحبة أبى عبيد الجوزجاني ومعاشرته لابن سينا بقوله : « ومن عجائب أحوال الشيخ ، أن أبا عبيد صحبه ثلاثين سنة ، قال : انه ما رآه ينظر فى كتاب جديد على الولاء ، بل يقصد المواضع الصعبة والمسائل المشككة منه فينظر ما قاله المصنف فيها ، فيتبين عنده مرتبته من العلم (١٥٢) . ولا شك أن هذا النوع من القراءة كان فى مرحلة متأخرة من حياة ابن سينا ، أما طريقة ترجمات ابن سينا فى مدة الأعداد الحقيقية فنجدها أيضا عند البيهقى وغيره حيث يذكر عن ابن سينا « وفى هذه المدة ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل بشئ سوى المطالعة ، وجمع بين يديه ظهورا من القراطيس ، وكل حجة ينظر فيها يثبت مقدماتها القياسية ويكتبها فى تلك الظهور ، وراعى شرائط المقدمات ومضل ما هو منتج مما هو عقيم . وإذا تحير فى مسألة ما ، وما ظفر فيها بالحد الأوسط تردد الى الجامع وصلى وابتهل الى الله تعالى حتى يفتح الله له المنطلق منها . وكان يعود كل ليلة الى داره ويضع السراج ويشتغل بالقراءة والكتابة » (١٥٢) . والواقع أن أى قراءة لتراجم الأطباء سوف تظهر الدور الكبير الذى لعبته القراءة الذاتية فى حياة الأطباء ، والأهمية البالغة التى منحها الأساتذة والطلاب للاطلاع الذاتى كاحدى الأدوات الضرورية للتمكن فى العلم والتبريز فيه .

٣ - الملازمة :

يستخدم ابن أصيبعة كثيرا مصطلح « الملازمة » للدلالة على مصاحبة الطالب للأستاذ لأوقات طويلة ، سواء فى دروسه النظرية أو حلقاته الخاصة المنزلية ، أو ممارساته العملية فى البيمارستان . و « الطالب الملازم » غير « الطالب القارىء » . وكلاهما موجود عند ابن أصيبعة ، فنجد كثيرا ، أن فلانا قرأ على فلان « أو » اشتغل بالطب على يد فلان . ويجوز ذلك نقرأ مثلا : أن سعيد الدين محمود بن عمر قرأ الطب على فخر الدين الماردينى ، ولزمه مدة طويلة ولم يكن يفارقه فى سفره

ولا حضره (١٥٤) . وأن ابن جميع قرأ صناعة الطب على الشيخ الموفق أبي نصر عدنان بن العين ولزمه مدة (١٥٥) ، وأن رشيد الدين أبو سعيد اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين علي بن خليفة « ، ولم يكن في تلامذته مثله ، فإنه لازمه حق الملازمة ، وكان لا يفارقه في سفره وحضره ، وأقام عنده بدمشق وهو دائم الاشتغال عليه » (١٥٦) . وأبو عبيد الجوزجاني كان من خواص أبي علي بن سينا ، وملازمه مجلسه ، وظل متصلا به حوالي خمس وعشرين سنة إلى آخر عمر الشيخ (١٥٧) . وطبيعي أن هذه الملازمة الطويلة لكبار الأطباء قد أتاحت للطلاب مزيدا من الاحتكاك العلمي بالأساتذة أكثر بكثير من الذين اكتفوا بمجرد الشراء على يد أستاذ ، وخصوصا أن الطلاب لم يكونوا يألزمون غالبا إلا الأطباء الأعلام ، كما يدل على ذلك أسماء الأطباء الذين ذكر ابن أصيبعة أن لهم « تلاميذ ملازمين » (١٥٨) .

٤ — الإملاء :

في غيبة الطباعة واعتماد العلم والتعليم على النسخ ، اشتدت الحاجة إلى أن يملأ الأساتذة على طلابهم بعض الإمالي . وكثفت الإمالي لتشتمل على ذكر آراء السابقين في المسألة ، ومناقشة الأستاذ لتلك الآراء ثم طرح لآراء الأستاذ أو تجاربه العملية في الموضوع . وكان الطالب يكتب في أول الدرس : « أملاه شيخنا فلان » ثم يدعو لأستاذه بالخير . فعلى إحدى إمالي أبو الفرج بن الطيب الطبيب وجدت هذه العبارة : « هذه الكراسة بخط سيدنا الأجل أبي النصر محمد بن علي بن برزج تلميذ أبي الفرج ، أملاها الشيخ أبو الفرج ، أطال الله بقاءه ، ونكب أعداءه عليه ببغداد » (١٥٩) . وعلى إمالي أخرى قد نجد مثل هذه العبارة « مقالة أملاها فلان » في جواب ما سئل عنه من أن « كذا » وتذكر المسألة موضوع المحاضرة . ويقتصر الطالب في الغالب أنه كان من تلاميذ « فلان الطبيب » ، وأنه حضر أماليه الطبية « وكتبها بنفسه » . فابن الدهمان ، أحد تلاميذ أبي البركات هبة الله يروي أنه حضر إمالي أبي البركات مع غيره من الطلاب الذين يذكر أسماءهم ، وكان من بينهم علي

يوسف والد الشيخ عبد اللطيف البغدادي الطبيب المشهور (١٦٠) . ولكن الاعتماد على « الإملاء » كطريقة للتعليم الطبي تقل بالتدريج لتحل محلها طريقة « القراءة من كتاب » وشرحه ، وذلك برواج صناعة الورق ، وانتشار الكتب ، وإن لم تختلف طريقة الإملاء تماماً من التعليم الطبي أو غيره من العلوم (١٦١) .

٥ - المناقشات والمناظرات والاستشارات الطبية :

كان الفكر التربوي الإسلامي — بعكس ما هو سائد — يؤمن عموماً بضرورة توازن عنصر المناقشة والمناظرة والمطالبة في التعليم ، وليس مجرد المذاكرة والحفظ لموضوعات الدراسة . « إذ لا بد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطالبة » لأن فائدة المطالبة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار ، لأن فيه تكراراً وزيادة ، وقيل بمطالبة ساعة خير من تكرار شهر (١٦٢) .

ولقد انعكس ذلك على « التعليم الطبي » فكانت المناقشات بين الأطباء بعضهم بعضاً ، وبينهم وبين طلابهم . ونصح الطبيب مهما كان حاذقاً أن يستشير غيره من الأطباء في الحالات المرضية الصعبة . فالعماني الطبيب يقول : « من استبد بمعالجته في حال مرضه وإن كلن طبيباً حاذقاً فقد يعرض للخطأ بجده » والاستشارة أداة كاملة (١٦٣) . ولذلك وجدنا موفق الدين بن سقلاب كثيراً ما كان يجلس مع مذهب الدين ابن على « في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دوار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب . . » (١٦٤) كذلك كان مذهب الدين يتباحث أيضاً مع عمران الإسرائيلي ويتناقشان معاً في الحالات المرضية التي كانت تعرض لهما في المستشفى الكبير بدمشق . وقد استفاد طلابهما بتلك المناقشات والاستشارات الطبية (١٦٥) . أما ابن خطيب الرى ، فكان يشرك طلابه في مناقشة الحالات . « وكان إذا جلس للتدريس يكون قريباً منه جماعة من تلاميذه الكبار ، مثل زين الدين الكشي والطبيب المصري وشهاب الدين النيسابوري ، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم ، فكان من يتكلم في شيء من العلوم يباحثه أولئك التلاميذ الكبار ، (م ١٠ - الأعداد التربوي للطبيب)

فإن جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه ، وتكلم في ذلك المعنى بما يفوق الوصف » (١٦٦) . وتحرص أدبيات التربية الإسلامية أن تتم المناقشات والمناظرات في جو علمي يتسم بالبحث عن الحقيقة ، ولا يتدخل فيه الغرور ، أو تقليل شأن الآخرين . إذ « ينبغي أن تكون المناظرة والمطالبة بالانصاف والثاني والتأمل ، ويتحرز عن الشغب والغضب ، فإن المناظرة مثاورة ، والمشاورة لاستخراج الصواب ، وذلك إنما يحصل بالتأمل والانصاف » (١٦٧) . وإذا كان ابن أسيمة يسوق لنا في مواضع مختلفة من كتابه صورا لهذا النقاش العلمي الرصين ، وتلك الاستشارات الطبية التي كان يتبادلها الأطباء ، فقد توقف أحيانا مستنكرا تلك المناقشات التي لم تكن في خدمة العلم بقدر ما كانت للتشنيع على جهود الآخرين . فهو يقول عند حديثه عن علي بن رضوان : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه . وكانت عنده سفاهة في بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . وأكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحاق وعلى أبي الفرج بن الطبيب ، وكذلك أيضا على أبي بكر محمد بن زكريا الرازي » (١٦٨) ولا شك أن هذه المناقشات والمناظرات والاستشارات كانت أداة طبية لتبادل الآراء والأفكار الطبية بين الأساتذة والطلاب .

٦ - المراسلات الطبية :

سوف يلاحظ الدارس هذا العدد الهائل من « الرسائل الطبية » التي كتبها الأطباء الكبار ، إما ردا على سؤال طالب ، أو زميل في المهنة ، أو لشرح موضوع من الموضوعات الطبية الخاصة ، ويكفي أن نذكر هنا أن طبيباً واحداً هو « ابن مندويه الأصفهاني » كانت له أربعون رسالة مشهورة في الطب كتبها إلى أصحابه وطلابه وتناول موضوعات طبية مختلفة . فهناك رسالة إلى أحمد بن سعد في تدبير الجسد ، ورسالة إلى حمزة بن الحسن في تركيب طبقات العين ، ورسالة إلى أبي جعفر أحمد بن محمد في القولنج وغيرها » (١٦٩) . وقد أن يوجد طبيب مشهور لم توجد بينه وبين طلابه وزملائه مراسلات طبية مما يبرز أهمية « المراسلات » كأحدى « الوسائل التعليمية » في هذا العصر . ولم تقتصر تلك المراسلات الطبية على أطباء الاقليم الواحد ، بل كانت هناك أيضا

- ١٤٧ -

مراسلات « عبر البحار » - إذا جاز هذا التعبير - فإن بطلان الطبيب البغدادي كان معاصرا لعلي بن رضوان الطبيب المصري ، وكان بينهما « المراسلات الفجائية والكتب البديعة الغريبة » ، ولم يكن أحد منهم يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا الا ويرد الآخر عليه « (١٧٠) كذلك كان البيروني الدمشقي على مراسلات طبية مع ابن رضوان المصري ومع غيره من الأطباء المصريين (١٧١) . ولا شك أن هذا « التواصل العلمي » بين الأطباء قد هيا المناخ العلمي المناسب لتبادل الآراء والافكار الجديدة في ميدان الطب . لم يجعل الأطباء يمثلون « دوائر علمية مغلقة » غير مفتحة على ممارسات الأطباء الآخرين . ولقد ثبت أن الباحث الجيد في أى تخصص ينبغي أن يكون على صلة علمية بثلاثة من الباحثين المهتمين بمجال دراسته على الأقل (١٧٢) ، ولعل تلك المراسلات العلمية التي قامت بين « الأطباء المسلمين » كانت تمثل نوعا من أنواع هذا « الاتصال العلمي » بين المهتمين بمجال الطب .

٧ - الرحلة :

في عالم اسلامي واحد ، لا يعرف الحدود بين اقاليمه ودوله ، وفي ظل ظروف حياتية وفرتها الأوقاف الاسلامية ، استطاع الطالب أن ينتقل من مكان الى مكان باحثا عن الطبيب المشهور الذي يقتلذ عليه ، فيلازمه حتى يتخرج ويتقن الصنعة ، ولقد كان الفكر التربوي الاسلامي يحث على الرحلة في طلب العلم ، لما في الغربة من تفرغ بالبعد عن الأهل والوطن ، ومن فوائد الاحتكاك بروافد ثقافية جديدة ومختلفة ، ولما في تحمل مشاق الرحلة من تقوية ارادة الطالب وعظيم الثواب وادراك لذة العلم (١٧٣) . يقول الزرنوجي : « ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع ، فلهذا اختاروا الغربة . ولابد من تحمل النصب والمشقة في سفر التعلم ، كما قال موسى صلوات الله على نبيينا وعليه في سفر التعلم ، ولم ينقل عنه ذلك في غيره من الاسفار : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » (الكهف : آية ٦٢) ، وليعلم أن سسفر العلم لا يخلو من التعب ، لأن طلب العلم أمر عظيم وهو افضل من الغزاة عند أكثر العلماء . والأجسر على قدر التعب والنصب ، فمن صبر على ذلك التعب وجد لذة العلم تفوق لذات الدنيا . ولهذا كان محمد بن الحسن اذا سهر الليالي وانحلت

له المشكلات يقول : « أين أبناء الملوك من هذه اللذات ؟ » (١٧٤) . ولذلك نجد البيروني الدمشقي يستنال عن امام وقته في معرفة صناعة الطب والمعرفة بها جيسدا فنكروا له أن ببغداد ابا الفرج بن الطيب وله خبرة ومفضل في صناعة الطب وفي غيرها من الصنائع الحكيمة ، فنجدته يتأهب للسفر الى بغداد ، ويأخذ سوارا كان لأمه لنفقته ويتوجه الى بغداد ، ويستنفل على ابي الطيب الى أن مهر في صناعة الطب (١٧٥) . وكذلك أبو الفضل بن أبي الوفا الدمشقي يرحل الى بغداد ويقرأ على أفاضل الأطباء من أهلها ويعود الى دمشق وقد أصبح مثبزا في صناعة الطب علمها وعملها (١٧٦) . ومهذب الدين بن النقاش البغدادي يرحل الى دمشق ، ثم يتوجه الى الديار المصرية ويقيم بها مدة لكي يجتمع بأفاضل أطبائها ، وأبو زكريا يحيى البياسي الأندلسي يأتي الى ديار مصر متعلما ثم يتوجه الى دمشق طبيا حاذقا ... (١٧٧) الخ ... الخ . وتعدد رحلات الطلاب والأطباء الممارسين من قطر الى قطر بحثا عن الأستاذ الحاذق ، وبحثا عن مزيد من الخبرات والتجارب والممارسات الطبية الجديدة .

وفي الغالب ما تتم تلك الرحلات في أول مرحلة الشباب ، وبخى لنا ابن أبي شيبة كيف أن عمه رشيد الدين بن خليفة ، وهو في أول شبابه « قصد السفر الى الموصل ليجتمع بالشيخ كمال الدين بن يونس ويستنفل عليه ، لما بلغه من علمه وفضله الذي لم يلحقه فيه أحد وتجهز للسفر ، فلما علمت بذلك والدته ، جدتي ، بكت وتضرعت اليه أن لا يفارقتها ، وكان يأخذ بقلبه فلم يمكنه مخالفتها ، وأبطل الزواح اليه » (١٧٨) . ولقد لعبت فريضة الحج دورا مشجعا على التواصل العلمي بين الأطباء ، إذ جعل طلاب الطب وأساتذته من الهند وإسبانيا وآسيا الصغرى وأمريكا يهرون في طريقهم الى مكة والمدينة ببلاد عديدة ، حيث يزورون المدارس الطبية والبيمارستانات والمساجد ومعاهد العلم التي تضم الأطباء البارزين فيكون هناك حوار ونقاش وتعلم وتعليم (١٧٩) . كذلك يسر على الطلاب والأطباء القيام بتلك « الرحلات العلمية » ما كان يخصه الأمراء والسلاطين لطلب العلم الوافدين من منشآت تلبى احتياجاتهم المادية والصحية . من ذلك ما يذكره ابن جرير عن زيارته الى مصر : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره الفائدة في الحقيقة الى سلطانه : المدارس والمحارس

(جمع محرس ، وهى ماوى مخصص للدارسين والزهاد والمسيافرين والفقراء) الموضوعه فيه لاهل الطب والتبهد ، يقدون من الاقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا ياوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء (مرتب) يقوم به فى جميع احواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرياء الطارئين حتى امر بتعيين حمايات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم الاطبياء يتفقدون احوالهم ، وتحت ايديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب ايضا فيه اقوالهم برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرياء خاصة وينهون للأطباء احوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم « (١٨٠) . وهذه العناية بالطلاب والعلماء الوافدين يسرت بدون شك اسباب الرحلة فى طلب « التعليم الطبى » لملاقاة كبار الاطباء والاستفادة من علمهم وتجاربهم الطبية .

٨ — الحفظ :

لقد مضت مدة طويلة واغلب الدراسات تؤكد على أن الحفظ ولو بدون فهم هو أكثر الأساليب شيوعا فى التعليم الإسلامى . ولقد أشاع هذا الاعتقاد ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع . ونقل الدارسون المسلمون هذا الخطأ الشائع بدون تحقيق علمى (١٨١) . حتى أن الباحث الحالى كتب فى دراسته عن ابن سينا لنيل درجة الماجستير عام ١٩٦٩ : « فالعالم فى التصور الإسلامى هو الحافظ ، وبقدر ما يكون الطالب حافظا لشئى الكتب يكون عالما . ويبدو أن الحفظ والاستظهار لم يكن قاصرا على العلوم النقلية التى تستدعى هذا الحفظ والاستظهار بل اجأ اليه طلاب الدراسات العقلية أيضا « (١٨٢) . وبذلك أصبحت الفكرة السائدة فى الأذهان أن الطالب المسلم كان يعكف على الكتب — فى أى موضوع — لى يحفظها ولو بدون فهم حتى يكون عالما . وأن التعليم فى الإسلام يقوم على الرواية لا الدراية . أى على الحفظ لا الفهم . وسنجد أن باحثا معاصرا بعد أن يعرض لبعض أراجيز ابن سينا فى الطب يصدر هذا الحكم القاطع : « وأهمية هذه الأراجيز من الناحية التربوية أنها

تؤكد على أهمية كم المعلومات ، اذ ان الغرض الاساسى من نظنها هو ولا شك تيسيرها للحفظ بغض النظر عن الفهم والتطبيق » ، ويدل ذلك على امرين ، اولهما : تقسيم الالفية للطب تقسيما منطقيا الى نظرى وعلمى ولكل من هذين اجزاؤه . فالنظرى ينقسم الى سبع طبيعيات ، وست ضروريات ، وثلاثة امور خارجة عن الطبيعة ، اما الطلب العلمى فهو من قسمين : الباطنى منه ، وهو ما يدبر بالاغذية والادوية ، والجراحى وهو ما يعمل باليد . . . وهكذا . اما الدليل الثانى : فهو ما حكى عن ابن سينا انه « ما كان يسمح لتلاميذه بالجلوس اليه والتلقى عنه الا بعد ان يحفظوا ارجوزته عن ظهر قلب » (١٨٢) .

والواقع اننا اذا رجعنا الى ادبيات التربية الاسلامية ، والى تراجم اعلامها المختلفة ، لتأكد لنا مقدار ما فى هذه الفكرة من مجانية للواقع العلمى والتعليمى . فقد اكد فلاسفة التربية المسلمون على ضرورة توافر عنصر الفهم قبل الحفظ ، وان يبدأ الطالب بالكتب الصغيرة السهلة قبل الكتب المطولة . وفى ذلك يقول الزرنوجى : « وينبغى ان يبتدا بشئ يكون اقرب الى فهمه ، وكان الشيخ الامام الاستاذ مشرف الدين العقلى رحمه الله يقول : « الصواب عندي فى هذا ما فعله مشايخنا رحمه الله ، فانهم كانوا يختارون للمبتدىء صفارات المبسوط ، لانه اقرب الى الفهم والضبط ، وابعد من الملالة واكثر وقوعا بين الناس » ، ويحذر الزرنوجى : « من ان يكتب المتعلم شيئا لا يفهمه ، فانه يورث كلاله الطبع ، ويذهب الفطنة ويضيع اوقاته » ، ويدعو الى الاجتهاد فى الفهم والتأمل فيما يتعلم لأن « فهم حرفين خير من حفظ سطرين ، وان تهاون فى الفهم ولم يجتهد مرة او مرتين يعتاد ذلك فلا يفهم الكلام اليسير » ، فينبغى الا يتهاون فى الفهم ، بل يجتهد ، ويدعو الله ويتضرع اليه فانه يجيب من دعاه ولا يخيب رجاه » (١٨٤) . ويؤكد طاش كبرى زاده هذا المعنى فيقول : « وينبغى لطالب العلم ان يكون متأملا فى جميع الأوقات فى دقائق العلم ، ويعتاد ذلك ، فانما يدرك الدقائق بالتأمل . ولذلك قيل تأمل تدرك ، خصوصا قبل الكلام ، فان الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل أولا » (١٨٥) . فاذا تركنا مؤلفات رجال التربية ، وطالعنا كتابا مثل عيون الانبياء فى طبقات

الأطباء وذهبنا نقرا عن أسلوب هؤلاء الأعلام الذين يترجم لهم ابن أصيبعة، وكيف تعلموا بالفعل ؟ وحظهم من الحفظ أثناء حياتهم الدراسية ، وجدنا أن أسلوب الحفظ لا يظهر إلا في المرحلة الأولى لحفظ شيء من الأدب ، وحفظ القرآن الكريم ، أما في المرحلة التالية فإن عناصر الفهم والتأمل والمناقشة تمثل عناصر أساسية من العملية التعليمية على نحو ما ذكرنا في الصفحات السابقة . مما يؤكد بالفعل على أن اعتماد التعليم الإسلامي على الحفظ والاستظهار إنما هو تعميم خاطيء أشاعه المستشرقون تحت وهم أن العرب كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ، أو أنهم لم يعرفوا الورق إلا متأخرا . . . الخ فاعتمدوا على الذاكرة ، أو أن عدوى الحفظ قد انتقلت إليهم من علوم اللغة وعلوم الدين إلى سائر العلوم ، وهي دعوى يكذبها الواقع التربوي الإسلامي على المستوى النظري ممثلا في آراء فلاسفة التربية المسلمين ، وعلى المستوى العملي ممثلا في الممارسات التربوية الفعلية للطلاب والعلماء على نحو ما ذكرنا . وإذا كان المسلمون في عصور الانحطاط العلمي والثقافي ، والكبت الفكري والسياسي قد أهملوا ملكات الفكر الحر الناقد ، واعتمدوا بصورة أكبر على استرجاع ثقافة العصور السابقة ، فإن هذا التردى التربوي لا يمكن أن يتخذ دليلا على أن « التعليم الإسلامي » قد اتخذ من الحفظ ولو بدون فهم وسيلة تربوية شائعة (١٨٦) .

أما الأراجيز الطبية التي استعملها بعض الأطباء المسلمين في التعليم الطبي سواء كانت لابن سينا أو غيره من الأطباء فلم تكن تحفظ بدون فهم ، بل كان الطالب مطالبا بأن يفهم محتواها ، والا فما الفائدة أصلا من حفظها ؟ واستخدام الشعر لأغراض تعليمية له تاريخه عند اليونان والرومان ، ثم استخدمه المسلمون فيما بعد ، ونظموا شعرا تعليميا في شتى المجالات ومنها الطب (١٨٧) . ولابن سينا سبع أراجيز طبية مشهورة هي (١٨٨) :

١ - أرجوزة التشريح مطلقها :

الحمد لله على تهذيبي

وعاصمي من أمم تهذي بي

— ١٥٢ —

٢ — أرجوزة في تدبير الصحة مطلعها :

الحمد لله اللطيف الكافي

الواحد الفرد الحكيم الشافي

٣ — أرجوزة في الوصايا الطبية في ٧١ بيتا مطلعها :

أول يوم تنزل الشمس الحمل

تشرب ماء فاترا على عجل

٤ — أرجوزة في المجربات الطبية في خمسة وثلاثين بيتا مطلعها :

بدأت باسم الله في النظم الحسن

أذكر ما جربته طول الزمن

٥ — أرجوزة في الفصول التي فيها تناول الطعام مطلعها :

يقول راجي ربه ابن سينا

ولم يزل بالله مستعينا

٦ — أرجوزة في حجر الذخيرة وتسمى أيضا أرجوزة في الباه مطلعها :

يا سائل من وجع في الوسط

ونقطة تأتي له لم تخطى

٧ — أما الأرجوزة السابعة أشهر الأراجيز وأطولها والمسماة بالفية ابن سينا

في الطب، ولو أنها تحتوي على ألف وثلاثمائة وعشرين بيتا وموضوعها

حفظ الصحة ومطلعها :

الطب حفظ صحة برء مرض

ومن سبب في بدن عنه عرض

وشعر العنترى الطبى كثير نذكر منه قطعة مختارة هنا كنموذج لهذا

الشعر ولدوره التعليمي ، في تقديمه المعلومات الطبية على شكل أشعار

يسهل تذكرها . يقول العنترى (١٨٩) :

— ١٥٣ —

احفظ بنى وصيتى واعمل بها
 فالطب مجبوع بنص كلامى
 قدم على طب المريض عناية
 فى حفظ قوته مع الايام
 بالشبه تحفظ صحة موجودة
 والخذ فيه شفاء كل سقام
 اقل نكاحك ما استطعت فانه
 مناء الحياة يراق فى الارحام
 واجعل طعامك كل يوم مرة
 واخذر طعاما قبل هضم طعام
 لا تحقر المرض اليسير فانه
 كالثمار يصيح وهى خرام
 واذا تغير منك حال خارج
 فاحتل لرجعه حل عقد نظام
 لا تهجرن القىء واهجر كل ما
 كئيبه سبب الى الاستقام
 ان الحمى عون الطبيعة مسعد
 شاف من الامراض والالام
 لا تشربن بمقرب اكل عاجلا
 او تأكلن بمقرب شرب مسدام
 والقىء يقطع والقياس كلاهما
 بهما وليس بنوع كل قيسام
 وخذ الدواء اذا الطبيعة كررت
 بالاحتلام وكثرة الاحتلام

واذا الطبيعة منك نقت باطنا
فدواء ما في الجسد بالحمام
ايك تلزم اكل شيء واحد
فتقود طبيعك للأذى بزمام
وتزيد في الأخلاط ان نقت به
زادت فنقص فضلها بقوام
والطب جهلته اذا حققته
حل وعقد طبيعة الأجسام
ولمقل تدبير المزاج فضيلة
يشفى المريض بها وبالأوهام

ومن الذين ألفوا الشعر الطبى سعيد بن عبد ربه (١٩٠) ، وسديد الدين ابن رقيقة الذى يقول عنه ابن أصبغة : « وأما الرجز فأننى ما رأيت فى وقته من الأطباء أحد أسرع عملا له منه ، حتى انه كان يأخذ أى كتاب شاء من الكتب الطبية وينظمه رجزا فى أسرع وقت مع استيفائه للمعانى ومراعاته لحسن اللفظ » (٩١١) . ولا شك أن ذلك يدل على تمكن ابن رقيقة فى الحلب والشعر معا . ونس على هؤلاء غيرهم من الأطباء الأدباء الذين ألفوا الشعر الطبى ، كإحدى الوسائل التعليمية المعينة للطلاب على تذكر بعض المعلومات الطبية الهامة .

وفى النهاية ، نحب أن نؤكد هنا على امرين : الأمر الاول : انه اذا كان قد ورد عن بعض الأطباء مثل ابن سينا ضرورة حفظ بعض « المتون الطبية » أو تذكر بعض الحقائق المتعلقة بالطب ، فإن هذا الأمر لم يكن خاصا بالمعرب المسلمين ، بل سيوجد دائما بين المعلمين على مر العصور من يؤكد على أهمية تذكر الطالب لبعض حقائق العلم ، وأن تكون حاضرة فى ذهنه عند الطلب ، ويروى ابن أصبغة أن سقراط لم يصنف كتابا ولا ألقى على أحد من تلاميذه ما أثبتته فى قرطاس ، وإنما كان يلقنهم علمه تلقينا لا غير ، وأنه تعلم ذلك من أستاذه طبيقاتوس فانه قال له فى صياحه :

لم لا تدعنى أدون ما أسمع منك من الحكمة ؟ فقال له : ما أوثقتك بجلود البهائم الميتة ، وأزهذك فى الخواطر الحية ، هب أن انسانا لتقيك فى طريق فسالك عن شئ من العلم ، هل كان يحسن أن تحيله على الرجوع إلى منزلك والنظر فى كتبك ؟ فإذا كان لا يحسن فالزم الحفظ ، فلزمها سقراط » (١٩٢) . الأمر الثانى : أنه فى كل علم وتعليم فإن هناك قدرا معيناً من حقائق العلم لابد أن تستظهر ، وليس ذلك بقادح فى عملية العلم والتعليم ، ما كان هذا الاستظهار مصاحباً للفهم والتأمل وحسن استخدام المعلومة المحفوظة . وفى هذه الحدود يمكن أن نفهم الدور الذى لعبه الحفظ فى التعليم الطبى عند المسلمين دون أى تضخيم لهذا الدور ، أو إلغاء لآثره القوى فى نجاح هذا التعليم عند المسلمين .

سادساً — عدد سنوات التعليم الطبى :

سبق أن ذكرنا عند حديثنا عن « مرحلة التعليم الأولى » أن المسلمين لم يتقيدوا بتحديد سن معينة لبداية التعلم أو نهايته ، وتركوا ذلك لاستعداد الطالب وتقدير الأستاذ ومتابعة الوالدين . وسنرى هنا أيضاً أن « التعليم الطبى » لم يخضع لعدد سنوات دراسية معينة ، فابن سينا على سبيل المثال عندما وصل إلى الثامنة عشر من عمره كان قد قرأ شيئاً من الطب ، واشتهر به حتى أن الأمير نوح بن منصور السامانى قد طلب مشاركته فى علاجه (١٩٣) . وعلى بن رضوان كان يتكسب فى مثل هذه السن أيضاً من الطب (١٩٤) . ولكن يبدو أن المقصود بالاستغفال بالطب فى مثل هذه السن هو ممارسة بعض الأمور الطبية البسيطة غير الممتدة ، خصوصاً إذا عرفنا أنه كان من رأى ابن سينا أن الطالب فى تلك المرحلة الدراسية بعد أن يختار العلم الذى سيتخصص فيه ، وبعد أن يقطع فيه شوطاً فمن الأفضل أن يمارس هذا العلم عملياً . فإذا كان قد اختار الطب حاول أن يزاول عملياً هذه المهنة ، وإن كان يدرس الأدب أو الكتابة والانشاء حاول التكسب بهذا العلم ، وفى ذلك كما يرى ابن سينا منفعتان : أحدهما : إذا ذاق حلاوة الكسب بضاعته وعرف غناها وجددها عظيمة فلم يضيع (يقصر) فى أحكامها وبلوغ أقصاها . والثانية : أن يعتاد طلب المعيشة » (١٩٥) . وابن رضوان أيضاً الذى مارس شيئاً من الطب

انبسيط في سن مبكرة من أجل التكبسب ، يذكر أنه بجوار ذلك واصل الاجتهاد في التعليم كما يذكر « الى السنة الثانية والثلاثين ، فاني اشتهرت فيها بالطب ، وكفاني ما كنت اكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عني انى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتى املاكا في هذه المدينة أن كتب الله عليها السلامة وبلغنى بسن انشيخوخة كفاني في النفقة عليها » (١٩٦) . فكان ابن سينا وابن رضوان قد درسا الطب لمدة ثلاث سنوات لممارسة بعض الاستشارات الطبية البسيطة ثم درسا الطب بعد ذلك مدة أطول لينالوا الشهرة ويكتسبوا الحذى بالصنعة . أما ابن جلجل صاحب طبقات الأطباء والحكباء فقد بدأ طلبه للطب في الرابعة عشرة ، وافتى فيه في الرابعة والعشرين ، وغلب عليه هذا الفن وبه عرف ، وفي رجاله كانت مؤلفاته (١٩٧) ، أى أنه ظل يدرس الطب حوالى عشر سنوات . وهناك اشعارات كثيرة تدل على أن بعض الطلاب كان سريع التحصيل . فرشيد الدين خليفة يقول له استاذة في حضور ابن أصيبعة : « والله يا رشيد الدين ، هذا الذى علمته في نحو شهر دأب غيرك في خمس سنين حتى يعلمه » (١٩٨) . ولذلك فمن الطبيعى أن يخضع عدد سنوات التعليم الى عوامل مثل : استعداد الطالب العلمى ، ودوافعه للتعلم : وهل يريد أن يكون ممارسا لفرع واحد من الطب للتكسب به ، أم يريد أن يكون « حكيما » ويصل الى درجة الفتى في الطب « الذى يفرع ويقيس ويستخرج » (١٩٩) . كذلك فإن الدارس للكثير من تراجم الأطباء يلاحظ ظاهرة تكاد أن تكون عامة وهى أن المشهورين من الأطباء كانوا دائمى التعلم والقراءة والاطلاع مدى حياتهم الطبية تقريبا (٢٠٠) . وهؤلاء بلا شك هم فقهاء الطب وحكماؤه كما يصفهم أحمد بن الأشعث في صدر كتابه : « الادوية المفردة » .

سابعاً - نظام الامتحانات :

يبدو أن الأطباء في بداية الأمر كانوا يمارسون المهنة بعد أن يقرأوا بعض كتبها على أحد الأطباء البارزين ويجدوا في أنفسهم القدرة على مزاولتها دون أن يكون عليهم شروط علمية بامتحان أو حكومية باجازه (٢٠١) . ولكن البعض قد تعجل مزاوله المهنة ، والحق الذى

بارواح الآخرين ، وادمى آخرون المعرفة بالطب ، لابتزاز أموال المرضى ، وأطلق على معرفة هؤلاء بالطب أنه « طب الطرقات » كناية عن جهلهم بالطب الحقيقى ، وابتذالهم المهنة (٢٠٢) ، كما أطلق عليهم أيضا لفظ « المتطيين » أى الذين يمارسون الطب وهم ليسوا أطباء على الحقيقة (٢٠٣) . ولذلك كان لابد أن تنظم ممارسة المهنة بحيث لا يتصدى لها إلا من لديه الكفاءة العلمية والمهنية . ونستطيع أن نميز بين نوعين من الامتحانات ظهرا لقياس تلك الكفاءة . أحدهما للأطباء الأحداث عند التخرج ، والثانى للأطباء الممارسين . أما امتحان التخرج فقد شمل النظرى والعملى ، وطبيعى أن نجد كل عضو هيئة تدريس يركز أكثر فى امتحانه على أحد الجوانب أكثر من الأخرى . فالرازى على سبيل المثال لم يكن يعترف بالطبيب ما لم يكن ملما بتشريح جسم الإنسان ويجعل هذا الموضوع فى مقدمة ما يسأل عنه الطالب ، فإذا فشل فى معرفة التشريح فإن ذلك يكفى لرسوبه دون حاجة الى اختباراه فى العلوم السريرية . يقول الرازى : « فأول ما تسأله عنه التشريح ومنافع الأعضاء ، وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية فى معرفة كتب القدماء . فإن لم يكن عنده ذلك فليس بك حاجة الى امتحانه فى المرضى . وإن كان عالما بهذه الأشياء فأكمل امتحانه حينئذ فى المرضى ، فإن رأيته يدرى ففى الأدوية » . أى أن الرازى كان يبتدأ بالجانب النظرى ويؤكد عليه أما على بن رضوان فقد كان له رأى مخالف ، إذ كان يركز على الجانب العملى اعتقادا منه أن القسم النظرى يستطيع الطالب أن يتعلمه فيما بعد دون الحاجة الى استاذ مشرف . أما القسم العملى فهو الذى يجب التأكد فى الامتحان من أن الطالب قد أتقنه ومارسه على يد استاذ قبل تخرجه (٢٠٤) .

أما امتحان الممارسين للمهنة ، فقد وضع امتحان الصيدالة فى عهد المأمون ، ويزوى ابن أصيبعة قصة بداية هذا الامتحان وكيف أن يوسف ابن إبراهيم قد أخبر المأمون « أن الصيدلانى لا يطلب منه انسان شيئا من الأشياء كان عنده أو لم يكن إلا أخبره بأنه عنده ، ودفع اليه شيئا من الأشياء التى عنده ، وقال هذا الذى طلبت . فإن رأى أمير المؤمنين

أن يضنع اسما لا يعرف ، ويوجه جماعة الى الصيدلة في طلبه ليداعه فليعمل ، فقال له المأمون : قد وضعت الاسم وهو سقطيئا — وسقطيئا ضيعة تقرب من مدينة السلام . ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن سقطيئا ، فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع اليهم شيئا من حائوته ، فساروا الى المأمون بأشياء مختلفة ، فمنهم من أتى ببعض البذور ، ومنهم من أتى بقطعة من حجر ، ومنهم من أتى بوبر « ، وكانت هذه الحادثة سببا في امتحان الصيدلة والايتصدي لتلك المهنة أحد الا بعد امتحانه للتأكد من علمه وأمانته (٢٠٥) . أما امتحان ممارسة الطب فقد بدأ في عهد المقتدر . ويروى لنا ابن أبي شيبة أيضا قصة بداية هذا الامتحان فيقول نقلا عن ثابت بن سنان : « لما كان في سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل بالمقتدر أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل — فأمر ابراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سنان المتطببين من التصرف الا من امتحنه والذى سنان بن ثابت . وكتب له رخصة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فساروا الى والدي وامتحنهم ، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه . وبلغ عددهم في جانبى بغداد ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا ، سوى من استغنى عن محنته بإشتهاره بالتقدم في صناعته ، وسوى من كان في خدمة السلطان » (٢٠٦) . وبذلك أصبحت مهنة الطب والصيدلة لا تمارس الا بعد اجتياز امتحان تديره رئاسة الأطباء بمعونة هيئة الحسبة ، التى مارست وظيفة التفتيش والرقابة على الأطباء والصيدلة في تلك العصور (٢٠٧) . وإذا كان رئيس الأطباء هو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في ممارسة المهنة فقد كان رئيس الكحالين يمارس نفس الدور مع طائفة الكحالين ، ورئيس الجراحية بالنسبة للجراحية والمجبرين (٢٠٨) .

ولقد تطور هذا الامتحان شيئا فشيئا بحكم الزمن وتقدم الصنعة ، حتى إذا حل القرن العاشر الهجرى صار على كل من يكمل تعلم المهنة ويرغب في ممارستها ، أن يقدم طلبا الى رئيس الأطباء مشفوعا بما يشبه الأطروحة تتضمن شيئا من أعماله الشخصية في الطب ، أو تطبيقا على أحد الكتب البارزة فيه . ويمتحنه رئيس الأطباء في بحث هذه الأطروحة ،

وفي كل ما له علاقة بها من علوم الطب ، ويجيزه على ممارسة الصنعة بحسب معلوماته بذلك (٢٠٩) .

ثامناً - أساتذة الطب :

كان اختيار الأستاذ مهما في التعليم الطبى الإسلامى ، ولذا حرص الطلاب على أن يختاروا الأطباء المشهود لهم بالكفاءة ليتلقوا عليهم العلم النظرى والتدريب العملى سواء كان هذا الأستاذ داخل الاقليم أو رحلوا اليه أينما وجد . وتؤكد أدبيات التربية الإسلامية على أهمية حسن اختيار الأستاذ ، وأن يترىث الطالب فى ذلك ، وأن يشاور وأن يسأل عن الأستاذ الأعلام والأروع والأسمن ، « اذ أن أول ما يذكر من المرء أستاذه ، فان كان جليلاً جل قدره » فإذا وجد الطالب أستاذاً جليلاً القدر لازمه وأخذ عنه (٢١٠) . ويحثنا عن الأستاذ الحاذق رحل طلاب الطب من مكان الى آخر (٢١١) . فرضى الدين الرحبى على سبيل المثال يرحل اليه الطلاب لذيوع شهرته ، ولذلك « اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ، ونبغ منهم جماعة عدة ، وأقرأوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين فى صناعة الطب » (٢١٢) . ولقد كان الطالب ينسب دائماً الى أستاذه الذى تخرج على يده ، ولذا فكثيراً ما يذكر ابن أصيبعة فى تراجمه أن فلاناً أخذ الطب عن فلان ، وكان من تلامذته فلان وفلان ... الخ (٢١٣) . فعلى سبيل المثال عند الترجمة لأبى الفرج بن الطيب يقول : « أخذ عن ابن الخمار وخلف من التلاميذ أبا الحسن بن بطالان ، وابن بدرج ، والهروى ، وبنى حيون ، وأبا الفضل كتيفات ، وابن أثردى ، وعبدان ، وابن موصى ، وابن الطليق » (٢١٤) . وعند امتحان ممارسة الطب كان أول ما يسأل عنه الطبيب الممارس : على من تلقى الصنعة ؟ (٢١٥) اذ كان تلقيه الصنعة على يد أستاذ حاذق يرفع من شأنه بعكس ما اذا لم يعرف له أستاذ جليل القدر .

ويرسم لنا ابن أصيبعة فى أكثر من موضع صورة مشرفة لأساتذة الطب سواء فى تطويرهم للتعليم الطبى ، بعد نقله وترجمته واستيعابه ، أو فى تدريبهم للطلاب على ممارسة المهنة عملياً ، أو فى إعطائهم المثل الجيد لطلابهم من حيث أخلاق المهنة ، ومواصلة العلم والدراسة حتى آخر لحظة فى حياتهم لقد كان أساتذة الطب فى البداية يعرفون اللغات الأجنبية

مثل السريانية أو اليونانية أو الرومية أو الفارسية (٢١٨) . ولكنهم بجوار ذلك كانوا يتقنون العربية ويهتمون بها الى أبعد الحدود ، حتى تأتى ترجماتهم جيدة . وبلغ حرصهم على اللغة العربية واحترامهم لها ، أنهم لم يكونوا يسمحون لطلابهم باللحن فى قراءة الكتب الطبية ، فمذهب الدين عبد الرحيم على سبيل المثال كان « أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة ، كتاب الصحاح للجوهري والمجلد لابن فارس » (٢١٧) . وأمين الدولة بن التليذ « كان يحضر مجلسه فى صناعة الطب خلق كثير يقرأون عليه ، وكان اثنان من النحاة يلازمان مجلسه ولهما منه الانعام والافتقاد ، وكان من يجده من المشتغلين عليه يلحن كثيرا فى قراءته أو هو الكن يترك أحد ذينك النحويين يقرأ عنه وهو يسمع » (٢١٨) . ولعل هذا الاهتمام باللغة العربية هو الذى مكّنهم من اجتياز مرحلة الترجمة الى مرحلة الإبداع والتأليف الطبى باللغة العربية ، وذلك ازدهر التعليم الطبى وأصبح ميسرا للطلاب ، كما شاعت « الثقافة الطبية » بين المثقنين وطبقات العامة .

كذلك سنرى الأساتذة فى البيمارستانات يقدمون لطلابهم المثل الجيد للممارسة الطبية وللحكم السريرى الجيد ، ويتيحون لهؤلاء الطلاب فرص التعليم النظرى والتعليم السريرى على نحو ما يصف لنا ابن أصيبعة فى أكثر من موضع (٢١٩) . اذ قل أن يتحدث عن أستاذ ، الا ويذكر طلابه من حوله يدرسون ، أو يطالعون ويناقشون أو يشاهدون ملاحظات سريرية . . ولقد بلغ من حرص الطلاب على الاستفادة بأساتذتهم أن الطلبة والمشتغلين على أبى الفضل بن الناقذ كانوا يقرأون عليه حتى وهو راكب وقت مسيره وافتقاده للمرضى (٢٢٠) . وهكذا قام أساتذة الطب الإسلامى بدورهم كأفضل ما يكون دور الأستاذ الجامعى من حيث تطوير المعرفة الطبية ، وتدريب الأطباء ، واعطاء المثل الجيد للممارسة العلمية والمهنية (٢٢١) .

تاسعا — المرأة والتعليم الطبي :

لقد ترجم ابن أصيبعة في طبقاته لأكثر من أربعمائة وخمسة عشر طبيبا في العصر الإسلامي (انظر الملحق رقم ٢) ، ومع ذلك لم يخص المرأة من هذا العدد ، الا ترجمة واحدة لزينب طيبة بنى أود . ويقول ابن أصيبعة في ترجمتها انها « كانت عارفة بالأعمال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداواة العين مشهورة بين العرب بذلك » . ويحكى لنا عنها قصة رواها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني ملخصها « انها كحلت مريضا من رمد أصابه ، ثم قالت له : اضطجع قليلا حتى يدور الدواء في عينيك ، فاضطجع المريض ثم تبث قول الشاعر :

امخرمى ريب المنون ولم أزر

طبيب بنى أود على الناي زينبا

فضحكت ثم قالت : أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا ، قالت : في والله قيل ، وأنا زينب التي عناها وأنا طيبة بنى أود . أمتدرى من الشعراء ؟ قلت : لا ، قلت : عمك أبو سهاك الأسدي » (٢٢٢) .

ويقف الدارس أمام هذه الظاهرة ، عدم وجود تراجم للطبيبات المسلمات ويحاول أن يسأل : لماذا لم يترجم ابن أصيبعة لطبيبات سوى زينب ؟ وهل يعقل أنه لم تكن هناك طبيبات سواها ؟ وأن المرأة المسلمة لم تتعلم الطب ؟ وأن هناك ظروفًا خاصة كانت تحول بينها وبين تعلم الطب ؟ ولكن لقد مرت بنا قصة الجارية التي كانت تعلم الطب ، وأجابت على أسئلة الأطباء في مجلس الرشيد ، وكان ذلك سببا في أن يشتريها المأمون بثمن باهظ ، فهل يعقل أن تتعلم الجوارى والاماء ولا تتعلم الحرائر ؟؟

لقد وقف أحمد شلبي وقفة سريعة أمام ما سباه قلة نسبة عدد المتعلمات بين النساء كثيرا عن نسبتها بين مدد المتعلمين من الرجال في العصر الإسلامي ، وأرجع ذلك الى أن تعليم المرأة كان بواسطة أحد ذويها أو يقوم به معلم خاص . وكلا هذين لا يتيسر للجهمرة العظمى (م ١١ — الإعداد التربوي للطبيب)

من النساء في حين ان الوسيلة لتعليم الولد سهلة ، فهو يلتحق بالكتاب صبيا ، وينضم الى حلقات العلم في المؤسسات التعليمية المختلفة اذا شب ونمت ثقافته (٢٢٢) . فهل كان هذا هو سبب قلة عدد الطبيبات المسلمات ؟ ام ان هناك اسبابا اخرى مثل تعذر الرحلة في طلب الأستاذ ؟ وصعوبة الممارسة والملاحظة السريرية في البيمارستانات ، وانشغال المرأة بأمورها المنزلية ؟ ... الخ ، واذا كان ابن اصبهنة لم يذكر لنا أسماء الطبيبات المسلمات ، فأننا نجد باحثين آخرين يذكرون لنا أسماء طبيبات منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . كرفيدة وأم عطية وأميمة بنت قيس الخفارية والربيع بنت معوذ ، وأم الحسن بنت القاضي أبو جعفر الطنجالي وأخت الحفيد بن زهر وابنتها « وكانتا عالمتين بصناعة الطب والداواة » ولهما خبرة جيدة فيها يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبلن لمداواة أهل المنصور سواهما « (٢٢٥) . كذلك فان الفقهاء المسلمين كانوا لا يرون ان يداوى الرجل المرأة الا لضرورة ولا ينظرون من جسدها الا ما لابد منه (٢٢٦) ، مما يؤكد لنا انه كان بجوار الأطباء المسلمين وجدت طبيبات مسلمات ، وان كن أقل عددا من الأطباء . فلماذا لم يترجم لهن ابن اصبهنة ؟

يبدو ان ابن اصبهنة لم يترجم الا لمن اشتهل بوظيفة الطب ، وتخصص فيه ، وكانت له فاعليات في هذا المجال ، كان يكون له طلاب ، أو تكون له مؤلفات طبية ، أو تكون له ممارسات أودعها في كنائس ، ويبدو ايضا ان أغلب من مارس الطب من النساء لم تمارسنه كمهنة أو تخصص ، أو مصدر رزق ، ولم تكن لهن فاعليات في مجال الطب وتعليمه وممارسته . وإنما كن في الغالب متطوعات يقمن بالدور الذي تقوم به في العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر كما ترى Mugannam (٢٢٧) ، أو بالدور الذي يقوم به الطبيب العام الممارس General praction القادر على مواجهة مشاكل الجراحة الصغيرة والتوليد وأمراض الأطفال والكحل ... الخ من الأعمال الطبية البسيطة التي تحدث كثيرا ويمكن ان تقوم بها الطبيبات المسلمات دون أن يستلزم ذلك تخصصا دقيقا في الطب ، ودون أن يكون لهن كتب أو مؤلفات أو خبرات طبية خاصة

تستحق أن توضع للدراسة والاحتذاء لغيرهن من الأطباء . ولهذا لم يترجم
لهن ابن أصيبعة لأنه كما ذكر في صدر كتابه ، إنما كتب هذا المؤلف ليذكر
فيه « جماعة من أكابر أهل هذه الصناعة ، وأولى النظر فيها والبراعة
ممن قد ثاورت الأخبار بفضلهم ، ونقلت الآثار بعلوم تدرهم ونبلهم ،
وشهدت لهم بذلك مصنفاتهم ، ودلت عليهم مؤلفاتهم » (٢٢٨) . ولكن ذلك
لا ينفي أن موضوع تعليم المرأة بصفة عامة ، وتعليم الطب بصفة خاصة
ما زال موضوعا يتطلب دراسة خاصة على كل حال .

مراجع الفصل الثالث ومصادره

- (١) الباحث : « الفكر التربوي والنفسى فى تراثنا العربى الاسلامى »
من : بحوث فى التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ٥ — ص ١٢ .
- (٢) و (٣) ابن سينا : البرهان من الشفاء ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ ، ص ٥٧ .
- (٤) راجع فهرست موضوعات : « مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم » ، مرجع سابق ، الاجزاء الثلاثة .
- (٥) راجع : احمد زكى بك : موسوعات العلوم العربية ، المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٨٨٩ ، حيث يستعرض الكتاب اهم تلك المؤلفات التى اعتبرها جميعا موسوعات Encyclopedia ثم راجع مقدمة عثمان امين على كتاب : احصاء العلوم ، الفارابى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ — ص ٢٣ ، ومقدمة كامل كامل بكرى ، وعبد الوهاب ابو النور على كتاب : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مرجع سابق ، ص ٣٥ — ص ٧٦ ، حيث نجد تفرقة مهمة بين نوعين من هذه المؤلفات : مؤلفات تعتبر موسوعات او دائرة معارف عربية للعلوم ، ومؤلفات تعتبر مجرد كتب تعريف وتصنيف Classification
- (٦) الفارابى : احصاء العلوم ، تحقيق عثمان امين ، مرجع سابق ، ص ٥٣ — ص ٥٥ .
- (٧) ابن سينا : « كتاب السياسة » ، نشر لويس معلوف ، مجلة المشرق ، عام ١٩٠٦ م ، ص ١٠٧٥ .
- (٨) نفس المرجع والمكان .
- (٩) راجع النظرية الاسلامية فى حكمة اختلاف البشر فى الميول والقدرات كما عرضها ابن سينا ، الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ٧٣ — ص ٧٤ ، وهذه النظرة نجدها لدى اغلب المفكرين المسلمين ، كالفارابى وابن خلدون واخوان الصفا ... الخ .

- (١٠) ابن سينا : كتاب السياسة ، مرجع سابق ، ص ١٠٧٥ —
ص ١٠٧٦ .
- (١١) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ،
مرجع سابق ، ص ٦٣ .
- (١٢) طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ،
مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .
- (١٣) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٧ .
- (١٤) المولوي التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون ، ج ١ ،
ص ٧٣ ، نقلا عن : عبد اللطيف محمد العبد ، محقق اخلاق الطبيب ،
للرازي ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٥ .
- (١٥) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ،
مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ص ١٤٠ .
- (١٦) خضر بن علي الخطاب : « مخطوطة شفاء الاسقام ودواء
الآلام » في سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة
بجلب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٩٧٦ ، ص ١٠١ ،
ص ١٠٢ .
- (١٧) مظفر الدين الفيتابي المعروف بابن الامشاطي : « مخطوطة
شرح اللحة العنيفة المسمى تأسيس الصحة » ، نفس المرجع ، ص ١٣٠ .
- (١٨) راجع : ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،
مرجع سابق ، ص ١٨٣ — ص ٢٨٤ ، حيث تبدو تلك الظاهرة : ظاهرة
احتكار وتوارث التعليم الطبي بين أسر معينة من اهل الذمة غير العرب .
- (١٩) ادوارد ج. براون : الطب العربي ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .
- (٢٠) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٣٥٤ — ص ٢٥٥ .
- (٢١) محمد كرد علي : مقدمته لتاريخ حكماء الاسلام ، للبيهقي ،
مطبعة التركي بدمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٧ .

- (٢٢) ابن اصبعة : عيون الانبياء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .
- (٢٣) ناجى معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مطبعة الممانى ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٥٥ — ص ٥٦ .
- (٢٤) سعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .
- (٢٥) داود الانطاكى : تذكرة اولى الالباب والجامع للمعجب المعجب ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج ١ ، ص ٥ .
- (٢٦) الحافظ الذهبي : الطب النبوى ، البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .
- (٢٧) أحمد حسين القرني : قصة الطب عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .
- (٢٨) ابن بطلان : دعوة الاطباء على مذهب كلية ودمنة ، المطبعة الخديوية بالاسكندرية ، ١٩٠١ م .
- (٢٩) مؤاد سركين : محاضرات في تاريخ العلوم ، مطابع جامعة الازهر ، محمد بن سعود ، الرياض ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ .
- (٣٠) انظر مثلا : ص ١٨٦ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٢ . الخ ، وكذا الملحق رقم (١) .
- (٣١) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٢١ .
- (٣٢) نظامى العروضى السمرقندى : جهار مقاله (المقالات الاربع) ترجمة عبد الوهاب يحيى الخثساب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢٠ .
- (٣٣) الرازى : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ .
- (٣٤) ادوارد ج. براون : الطب العربى ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ — ص ١٤١ .

- (٣٥) انظر : تفاصيل التصور الاسلامي للمعرفة في :
 Zeyyed Hossein Nasr : **Islamic Science, World of Islam Festival**
 publishing Company LTD, London, 1976
- : **An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines,**
 Cambridge, London, 1976.
- : **Science and Civilization in Islam,** Cambridge, London,
 1970.
- John Rowland : **Mysteries of science, A study of the Limitations** (٣٦)
 of the scientific Method, Werner Laurie, London, 1955,
 p. 182.
- (٣٧) قارن التصور الاسلامي للمعرفة بالتصور المادي للعلم كما
 يعرضه :
 E.A. Burtt : **The Metaphysical Foundation of modern science,** Long-
 man, New York, 1954.
- H. Butterfield : **The origins of Modern Science,** Wiley, New York,
 1951.
- (٣٨) ابن سينا : **النجاة ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ ،**
 ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، **البرهان من الشفاء ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ .** ولاخذ
 صورة كاملة عن هذا التصور انظر رسالته : « أقسام العلوم العقلية »
 مطبوع ضمن مجموعة « **مجموع الرسائل** » ، مطبعة كردستان العلمية —
 القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ٢٢٥ — ص ٢٤٥ .
- (٣٩) عبد المجيد عابدين : **تقديم كتاب : مقدمة في تاريخ الطب العربي**
 — التجاني الماحي ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، ١٩٥٩ م ، ص ٤ .
- (٤٠) طائش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مرجع**
 سابق ، ص ٢ ، ص ٣ .
- (٤١) **نفس المرجع ، ص ٣ ، ص ٤ .**

(٤٢) محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر

العباسي الأول ، دراسة ونصوص ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة —

١٩٧٧ ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

(٤٣) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق.

ص ١٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، الخ . . حيث نرى

استهارة كل عالم بمجال من المجالات العلمية . .

(٤٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، ترجمة

عبد الهادي أبو ريده ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ،

ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) ابن أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،

ص ٦١٠ من ترجمة عيسى الرقي .

(٤٦) ألف ليلة وليلة ، ص ٤٤٩ — ص ٤٥٤ ، نقلا عن : نظير أحمد :

« بعض مشكلات البحث والدراسة للطب الإسلامي في العصور الحديثة »

من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الثاني للطب الإسلامي ، مرجع سابق ،

ص ٨٩٨ .

(٤٧) ابن هشام : سيرة ابن هشام ، مرجع سابق ، ص ٢٩٧ —

ص ٣٠٠ ، السهيلي : الروض الأنف ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٩

— ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٣٤ ، و

— The Encyclopaedia of Islam, Luzac, London, Vol III, 1936, pp.

317, 318.

(٤٨) التفرى بردى : النجوم الزاهرة ، المؤسسة المصرية ، القاهرة

١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٦٦ — ص ٦٨ ، ص ٣٢٦ — ص ٣٢٧ ، ج ٣ ،

ص ٨ ص ١٢ ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، المقرئى : الخطط المقرئية ، مطبعة

النيل ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ ، ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ٨٩ .

(٤٩) التفرى بردى : النجوم الزاهرة : ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ١٠٤ ،

المقرئى : الخطط المقرئية ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ — ص ٣٩٤ .

(٥٠) لأخذ فكرة عن هذا الدور قديما وحديثا راجع : عبد الفتاح جلال وآخرون : **المسجد وتعليم الكبار ، في المجتمع المعاصر ،** سرس الليان ، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ١٩٧٨ ، عبد الله عبد الخالق المشد : « وظيفة المسجد في المجتمع المعاصر في التوجيه الاجتماعي في الاسلام » من بحوث مؤتمرات **مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة ،** مجمع البحوث الإسلامية ، ج ٣ — ١٩٧٢ ، طلعت بدير الأديب ، « **دور المسجد في تلبية حاجات جمهوره** » ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الأزهر ، ١٩٧٩ .

(٥١) ظهر الدين البيهقي : **تاريخ حكماء الاسلام ،** مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٥٢) ابن أصيعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء ،** مرجع سابق ، ص ٦٨٩ .

(٥٣) محمد عبد الله عنان : « مصر في فاتحة القرن الثالث عشر كما يصورها عبد اللطيف اليفغادى » في : **مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ،** مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ — ص ١٤٠ .

(٥٤) راجع على سبيل المثال ، ما حدث من تطور الدراسة في الأزهر في :

A. Elnakib : **The Educational Reform of Al-Azhar 1872-1972.** op. cit, pp. 29 - 34.

(٥٥) أحمد شطبي : **التربية الإسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ،** مرجع سابق ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، وانظر أيضا :

سميد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامي ،** مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٤ ، عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى اوائل القرن العشرين ،** مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٦ .

(٥٦) عن أهمية الأوقاف في الحياة الثقافية والتعليمية راجع : محمد محمد أمين على : « **تاريخ الأوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك** »

١٢٥٠ — ١٥١٧ « ، دراسة تاريخية وثقافية ، دار النهضة العربية — القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣٣ — ص ٢٧٥ .

(٥٧) انظر الطابع الدراسي في تلك المدارس في :

George Makdisi : "Muslim Institution of learning In Eleventh century Baghdad" In The Bulletin of The School of Oriental and African Studies, University of London, Vol XXIV, pp 1-56. & A.L. Tibawi: "Origin and Character of Al-Madrasah", Ibid, Vol, XXV, pp 225 - 238.

(٥٨) عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٥٩) محمد مصطفى زيادة وآخرون : تاريخ الحضارة المصرية : العصر اليوناني والروماني والعصر الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ٥٨٨ — ص ٥٩٠ .

(٦٠) حسين أمين : من تاريخ التربية والتعليم في الإسلام « المدرسة المستنصرية » ، مطبعة شفيق ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٠ — ص ٤١ ، وراجع محتويات المبنى الدراسي من ص ٣٨ — ص ٤٢ .

(٦١) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٧٣٣ .

(٦٢) حاجي خليفة : كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون ، وكالة المعارف ، استانبول ، ١٩٤٣ ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٦٣) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مطبعة العسلي ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ٥٧ — ص ٦٠ .

(٦٤) عبد الله عبد الدايم : التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ ، سعيد اسماعيل على : معاهد التعليم الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ ، ص ١٨٠ .

(٦٥) عبد القادر محمد النعمي الدمشقي : المدارس في تاريخ المدارس ، مطبعة التركي بدمشق ، ١٩٥١ وانظر وصفه لمدارس الطب ،

— ١٧١ —

بالذات : الدخوارية ، الدينسرية ، اللبودية النجمية ، ج ٢ ، ص ١٢٧ -
ص ١٣٨ .

(٦٦) ناجى معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، مرجع سابق ج ١ ،
ص ٥٥ — ص ٦٠ .

(٦٧) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٦٧٣ .

(٦٨) نفس المرجع ، ص ٦٧٦ .

(٦٩) نفس المرجع ، ص ٧٢٤ .

(٧٠) نفس المرجع ، ص ٧٣٣ .

(٧١) أحمد شلبى : التربية الإسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ،
مرجع سابق ، ص ١٢٤ ، وانظر أيضا عماد عبد السلام رعوف : مدارس
بغداد في العصر العباسي ، مطبعة دار البصري ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ٦ ،
ص ٧ .

(٧٢) خوسيه لويس بارسلو : « أثر العلوم الإسلامية في تطور
الطب » من أعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي ،
مرجع سابق ، ص ١١٨ ، وتقرن هذا العدد الهائل من الأطباء والخدمات
الطبية التي توفرت للمسلمين ، بما يعانيه عالمنا العربي الإسلامي اليوم
من انخفاض المستوى الصحي ، وقلة عدد الأطباء والخدمات الصحية في :
R.E Nassif, J.D. Thaddeus : (Editors): Education for Health Man-
power in the middle East, American University of Beirut, 1967.

وبهيج ملاجويش : نحو دراسة صحية لمستقبل العالم الإسلامي ،
المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٥ ، د. نبيل صبحي الطويل : « الحرمان
والخلاف في ديار المسلمين » ، كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية ،
والشئون الدينية ، دولة قطر ، ١٩٨٤ .

(٧٣) أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، المطبعة
الهاشمية ، دمشق ، ١٩٣٩ ، ص ٤ .

- (٧٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنبياء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .
- (٧٥) أحمد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات في الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٠ .
- (٧٦) **نفس المرجع** ، ص ٣ .
- (٧٧) بول غليونجي : « اسهام علماء المسلمين في البحث العلمى في مجال الطب » **مجلة اتحاد الجامعات العربية** ، العدد السابع عشر ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٠ ، مرسى محمد عربى : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، مرجع سابق ، ص ٧٠ — ص ٧٥ .
- Seyyed Hossein Nasr: **Islamic Science**, Op. Cit PP. 19, 20.
- (٧٨) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفية اكتسابها ، واعداد تنظيمها » من **ابحاث واعمال المؤتمر العلمى الاول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ .
- (٧٩) احسان كارجاس : « بيان تمهيدى عن الاعمال التحضيرية من أجل اقامة نظام للآداب الطبية الاسلامية » **نفس المرجع** ، ص ٦٣٤ .
- (٨٠) ابن أصيبعة : **عيون الأنبياء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ ، ص ٤١٦ .
- (٨١) **نفس المرجع** ، ص ٣٠١ .
- (٨٢) ابن جبير : **رحلة ابن جبير** ، تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ ، ص ٢٠ ، ص ٢١ .
- (٨٣) عبد الهادى التازى : « المنشآت الصحية بالمغرب عبر التاريخ ، بمناسبة السنة الدولية للمعاقين » ، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى** ، العدد المزدوج ١٣ ، ١٤ ، السنة الرابعة ، ١٩٨١ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ .
- (٨٤) محمد عبد الرحيم غنيمية : **مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى في الاسلام** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٦٥ — ص ٧١ ، أحمد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات في الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٣ ، ص ٤ .

- (٨٥) قارن ذلك الجو التعليمي المناسب بمشاكل التعليم الطبى
فى سورية ومصر على سبيل المثال : د. كنعان وصفى الجابى : « نظرة
الى مشاكل التعليم الطبى فى سورية » فى مهرجان اسبوع العلم الرابع :
المجلس الاعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤ —
ص ٣٤ .
- (٨٦) ابن اصبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٧٢٨ ، ص ٧٣١ .
- (٨٧) نفس المرجع ، ص ٧٣٢ ، ص ٦٩٧ .
- (٨٨) نفس المرجع ، ص ٦٢٨ .
- (٨٩) محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها
ومصائرهما ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ — ص ١٤٦ .
- (٩٠) ابن اصبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٣ .
- (٩١) نفس المرجع ، ص ٦٩٨ .
- (٩٢) نفس المرجع ، ص ٧٣٢ ، ص ٧٣٣ .
- (٩٣) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٦٢ .
- (٩٤) ابن اصبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٤١٦ ، ٤٦٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٧ ، ٦٦٢ ، ٧٠٠ ، ٧٤٠ ، وغيرها .
- (٩٥) محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها
ومصائرهما ، مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ثم انظر تفصيل ذلك ص ٨٢ —
ص ١٤٧ .
- (٩٦) نقلا عن : ملكة ابيض : التربية والثقافة العربية الاسلامية
فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، مرجع سابق ،
ص ١٠٦ .
- (٩٧) ابن جليل : طبقات الاطباء والحكماء ، المعهد العلمى الفرنسى
للانثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٦١ .

(٩٨) محمد جواد رضا : الفكر التربوي الاسلامي مقدمة في أصوله الاجتماعية والعقلانية ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

(٩٩) نفس المرجع والمكان .

Hans Nicholas: Comparative Education, A study of Educational Factors and Traditions, Routledge & Kegan paul, London, 1958, P. 101.

Mehdi Nakosteen: History of Islamic origins of western Education: University of Colorado Press, Colorado, 1964, PP. 65 - 74.

(١٠٢) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(١٠٣) نفس المرجع ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ .

(١٠٤) نفس المرجع ، ص ٥٦٨ .

(١٠٥) نفس المرجع ، ص ٧٢٥ .

Khurshid, A. et-al : Fact Sheets on Libraries in Islamic Countries, University of Karachi, 1974.

(١٠٧) أحمد شلبي : التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ ، ص ١٨٠ .

(١٠٨) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

(١٠٩) نفس المرجع ، ص ١١٠ .

(١١٠) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(١١١) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

Seyyed Hossein Nasr : Science and Civilization In Islam, Op. (١١٢)
Cit, PP. 41,42.

(١١٣) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ؟
ص ٣٣٢ .

(١١٤) كمال السمرائي : « تعليم الطب في العصور الإسلامية »
في أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٣١٩ .

(١١٥) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ١٥٤ ، وراجع تفاصيل تلك المراحل السبع ، وكتب كل مرحلة
من ص ١٥٤ — ص ١٥٧ .

(١١٦) نفس المرجع ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ .

(١١٧) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازي
وابن سينا مع الإشارة الى اثر كل منهما في تقدم البحوث الطبية »
في أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٨ .

(١١٨) سلمان قطاية : « التعليم الطبى عند العرب » فى :

— The Arab Journal of Medicine, Vol. I, No. I, February, 1982,
P. 9١.

(١١٩) سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة

بغلب ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٩ — ص ١٢٢ .

(١٢٠) ابن سينا : القانون ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر
والتوزيع ، ١٢٩٤ هـ (ثلاثة مجلدات) ، مقدمة : قاموس القانون فى الطب
لابن سينا المشتمل على الاصطلاحات المستعملة فى الطب : ادارة تاريخ
الطب ، والتحقيق الطبى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد
الدكن ، الهند ، ١٩٦٧ . والواقع فان الباحث عندما يطالع هذا القاموس
الذى يشتمل على الاصطلاحات الطبية التى استعملها ابن سينا فى كتابه
القانون والذى غطت شتى المجالات يدرك عظمة هذا الطبيب ، الفارسى
الاصل ، والذى اتقن العربية كل هذا الاتقان ، وكان قادرا على خدمتها
بمعالم مرد كل هذه الخدمة فى مجال تعريب الطب ووضوح المصطلحات

العربية اللازمة لذلك . ثم يقارن الباحث بين هذا الجهد الفردى ولجوء معظم أساتذة الطب عندنا الى اللغات الأجنبية كلفة للتعليم والتأليف فيدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال .

(١٢١) الرازى : الحاوى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٥ م ، (١٢ مجلدا) .

(١٢٢) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفية اكتسابها ، واعادة تنظيمها » من ابحاث واعمال المؤتمر العلمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

(١٢٣) سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(١٢٤) أبو الحسن على بن سهل الطبرى : فردوس الحكمة في الطب ، مطبعة أفتاب ، برلين ، ١٩٢٨ .

(١٢٥) ابن أصيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٨ ، ... الخ .

(١٢٦) نفس المرجع ، ص ٥٦١ .

(١٢٧) وبهامشه أيضا : « دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية بتدارك أنواع خطا التدبير » : لابن سينا ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

(١٢٨) ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٢٩١ هـ .

— على بن عيسى الكحال : تذكرة الكحالين ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، بحيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ م .

— حنين بن اسحاق : العشر مقالات في العين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، تقديم ماكس مايرهوف .

— أبو المنى بن أبى النصر العطار : منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان ، دار الطباعة الخديوية ، القاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

- (١٢٩) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٥ ، ص ٥٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٥٧ ، ... الخ .
- (١٣٠) نظامي المروزي السمرقندي : جواهر مقاله (المقالات الأربع) ،
مرجع سابق ، ص ٧٦ .
- (١٣١) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ ، ص ٥٦٤ .
- (١٣٢) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ .
- (١٣٣) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لولفسات الرازي
وابن سينا مع الاشارة الى تأثير كل منهما في تقدم البحوث الطبية »
من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٣ .
- (١٣٤) نفس المرجع ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٤٧ .
- (١٣٥) الفسارابى : احصاء العلوم ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .
- (١٣٦) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لولفسات الرازي
وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما في تقدم البحوث الطبية »
من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ،
ص ٢٤٦ .
- (١٣٧) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٧٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٧ ، ٧٣١ وغيرها .
- (١٣٨) نفس المرجع ، ص ٦٩٨ .
- (١٣٩) نفس المرجع ، ص ٥٦٥ .
- (١٤٠) سلمان قطاية : مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة
بجلب ، مرجع سابق ، ص ٢٦ - ٢٧ .
- (١٤١) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٦٩٧ .
- (م ١٢ - الاعداد الترتيبي للطبيب)

— ١٧٨ —

- ١٤٢) نفس المرجع ، ص ٤١٦ .
- ١٤٣) نفس المرجع ، ص ٦٢٨ .
- ١٤٤) كمال السمرائي : « تعليم الطب في العصور الاسلامية »
من ابحاث واعمال المؤتبر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ،
ص ٣١٨ ، ص ٣١٩ .
- ١٤٥) احمد عيسى بك : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ،
مطبعة مصر ، بدون تاريخ ، ص ٥ .
- ١٤٦) نفس المرجع ، ابو الحسن المختار بن بطلان : « دعوة الاطباء
على مذهب كليلة ودمنة » ، مرجع سابق ، ص ٣٦ — ٣٨ .
- ١٤٧) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .
- ١٤٨) ابن ابي عمير : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦٧ ، ص ٥٦٨ .
- ١٤٩) نفس المرجع ، ص ٦٥٥ .
- ١٥٠) نفس المرجع ، ص ٥٦٢ .
- ١٥١) عن القراءة على يد استاذ ، نفس المرجع ، الصفحات : ٢٧٧ ،
٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٦١٠ وغيرها .
- ١٥٢) ظهير الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٦٤ .
- ١٥٣) نفس المرجع ، ص ٥٤٣ ، ابن ابي عمير : عيون الانباء
في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ٤٣٨ .
- ١٥٤) ابن ابي عمير : نفس المرجع ، ص ٤٠٢ .
- ١٥٥) نفس المرجع ، ص ٥٧٦ .
- ١٥٦) نفس المرجع ، ص ٥٩٩ .

- (١٥٧) الباحث : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .
- (١٥٨) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، الصفحات : ٤٠٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٦١٣ ، ٦٣٧ ، ٦٥٦ وغيرها .
- (١٥٩) نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .
- (١٦٠) نفس المرجع ، ص ٣٧٥ .
- A.S. Tritton, Materials of Muslim Education In the Middle Ages, Op. Cit, P; 32.
- (١٦٢) برهان الاسلام الزرنوجي : كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .
- (١٦٣) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .
- (١٦٤) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات لأطباء ، مرجع سابق ، ص ٦٩٨ .
- (١٦٥) نفس المرجع ، ص ٦٩٧ .
- (١٦٦) نفس المرجع ، ص ٤٦٢ .
- (١٦٧) طلائع كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣١ .
- (١٦٨) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٥٦٣ .
- (١٦٩) نفس المرجع ، ص ٤٦٠ .
- (١٧٠) نفس المرجع ، ص ٣٢٥ ، ص ٣٢٦ .
- (١٧١) نفس المرجع ، ص ٦١١ .
- Ziauddin Sardar : Science Technology and Development In (١٧٢)
The Muslim World, Croom Helm, London, 1977, PP.
147 - 148.

A.L. Tibawi: Arabic And Islamic Themes, Historical, Educational And Literary studies, op. cit, p. 182. (١٧٣)

(١٧٤) برهان الاسلام الزرنوجي : كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(١٧٥) ابن اصبعة : عيون الانبياء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ٦١١ .

(١٧٦) نفس المرجع ، ص ٦٣٥ .

(١٧٧) نفس المرجع ، ص ٦٣٦ .

(١٧٨) نفس المرجع ، ص ٤١٢ .

(١٧٩) نور حسين شودري : « فضائل الطب الاسلامي كيفية اكتسابها واعادة تنظيمها » من ابحاث واعمال المؤتمر العالمي الاول عن الطب الاسلامي مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(١٨٠) ابن جبر : رحلة ابن جبر ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(١٨١) انظر مثلا ما كتبه المستشرقان :

A.S. Tritton: Materials of Muslim Education In the Middle Ages, Op. Cit, P. 51 & R. Dodge : Muslim Education In the Medieval Times, Op. Cit, PP. 10,11.

(١٨٢) الباحثة : فلسفة التربية عند ابن سينا ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ . ولقد كان الباحث يريد اعادة النظر في تلك الرسالة قبل نشرها ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، فاكتفى بالاشارة في مقدمة الطبع انها تحتاج الى اعادة النظر في الكثير من مواضعها ، وضرب امثلة على ذلك . فلترجع مقدمة النشر .

(١٨٣) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوي والقانون في ضوء نظريات التعليم الطبي الحديثة » من اعمال وبعوث المؤتمر العالمي الثاني عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ ، ص ٨٥٠ .

(١٨٤) الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

- (١٨٥) طائش كبرى زادة : مفتاح السعادة ومضباح السيادة
في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .
- Ziauddin Sardar : Science, Technology and Development In (١٨٦)
the Huslim World, Op. Cit., PP. 161,162.
- (١٨٧) عصمة عبد الله غوثة : الشعر التعليمي في القرون الأربعة
الأولى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ،
١٩٧٠ ، ص ١ — ص ٣٩ .
- (١٨٨) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوى والقانون في ضوء نظريات
التعليم الطبى الحديثة » من اعمال وبحوث المؤتمر العالمى الثانى عن الطب
الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ .
- (١٨٩) ابن أصبغة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٣٩٠ ، ص ٣٩١ .
- (١٩٠) نفس المرجع ، ص ٤٩٠ .
- (١٩١) نفس المرجع ، ص ٧٠٣ .
- (١٩٢) نفس المرجع ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .
- (١٩٣) ظهر الدين البيهقى : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ٥٤ — ص ٥٦ .
- (١٩٤) ابن أصبغة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦١ .
- (١٩٥) ابن سينا : السياسة ، مرجع سابق ، ص ١٠٧٦ .
- (١٩٦) ابن أصبغة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٥٦١ .
- (١٩٧) ابن جليل : طبقات الأطباء والحكماء ، مرجع سابق ، مقدمة
النسائر .
- (١٩٨) ابن أصبغة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٧٤٠ .
- (١٩٩) نفس المرجع ، ص ٣٣٢ .

(٢٠٠) نفس المرجع ، الصفحات : ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٨ ،
٦٥٥ ، ٧٢٥ وغيرها من الصفحات .

(٢٠١) كمال السامرائي : « تعليم الطب في العصور الاسلامية »
من ابحاث واعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٣٢٢ .

(٢٠٢) ابن مبيمة : عيون الانباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٣٠ .

(٢٠٣) نفس المرجع ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٤) كمال السامرائي : « تعليم الطب في العصور الاسلامية »
من ابحاث واعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ،
ص ٣٢٣ ، سلمان قطاية : « التعليم الطبي عند العرب » .

— The Arab Journal of Medicine, Vol, I, No. 1 February, 1982,
P. 96.

(٢٠٥) ابن اصيعة : عيون الانباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ٢٢٤ .

(٢٠٦) نفس المرجع ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٧) احمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الاسلام ، مرجع
سابق ، ص ٥١ .

(٢٠٨) نفس المرجع ، ص ٢٥ .

(٢٠٩) نفس المرجع ، ص ٤٣ .

(٢١٠) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التصلم ،
مرجع سابق ، ص ٧٢ — ٧٤ ، طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة
ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٢١١) ابن اصيعة : عيون الانباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
الصفحات : ٣٢٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٦١١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ وغيرها من المواضع .

(٢١٢) نفس المرجع ، ص ٦٧٣ .

- (٢١٣) نفس المرجع ، الصفحات : ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ،
٥٧٦ ، ٥٩٩ ، ٦١٣ ، ٦٥٦ وغيرها .
- (٢١٤) نفس المرجع ، ص ٣٢٤ .
- (٢١٥) نفس المرجع ، ص ٣٥١ .
- (٢١٦) نفس المرجع ، الصفحات : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ ،
وغيرها .
- (٢١٧) نفس المرجع ، ص ٧٣٢ .
- (٢١٨) نفس المرجع ، الصفحات : ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ،
٦١٤ ، ٦٩٨ ، ٧٣١ و... الخ .
- (٢١٩) نفس المرجع ، ص ٣٥٣ .
- (٢٢٠) نفس المرجع ، ص ٥٨٠ .
- (٢٢١) راجع واجبات الأستاذ الجامعي الطبيب في : عز الدين شكاره ،
« نظرات في تفرغ أساتذة الطب » أسبوع العلم الثاني عشر ، المجلس الأعلى
للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٨١ ، ص ٨٦ .
- (٢٢٢) ابن أصيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ،
ص ١٨١ .
- (٢٢٣) أحمد شلبي : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ،
مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .
- (٢٢٤) نفس المرجع ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٨ ، عبد الحى الكتانى :
نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية ، مرجع سابق ، ج ١ ،
ص ٤٥٣ — ص ٤٥٤ ، أحمد شوكت الشطى : الطب عند العرب ، مرجع
سابق ، ص ٥٦ — ص ٦٠ ، محمود الحاج قاسم محيد : ألوجز لما أضافه
العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٠ .
- (٢٢٥) أحمد شلبي : التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ،
مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

- (٢٢٦) عبد الستار أبو غدة : « فقه الطبيب وأدبه » من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمي الأول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٥٩٧ ، ص ٥٩٨ .
- Mugannam : Arab women, London, 1937, P. 25. (٢٢٧)
- نقلا عن احمد شلبي : التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .
- (٢٢٨) ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٧ .

الفصل الرابع

صفات الطبيب وحقوقه وواجباته

أدرك المسلمون أهمية مهنة الطبيب في حياة المجتمع ، ولذلك حرصوا على حسن اختياره واعداده التربوي والمهني المناسبين ، كذلك حددوا له حقوقه وواجباته بصورة واضحة . وسنحاول هنا أن نرسم صورة موجزة للطبيب المسلم : صفاته ، وحقوقه ، وواجباته ، كما رآها المسلمون .

أولا — صفات الطبيب :

(١) الصفات الجسمية أو الطبيعية

لقد بلغ اهتمام المسلمين بحسن اختيار الطبيب وانتقائه أن تحدثوا عن الصفات الحسية والطبيعية التي ينبغي أن تتوافر فيه ، أو على الأقل انتفى يفضلون توافرها فيه . فوجد الحكيم أبا الخير الحسن يقول في كتابه « امتحان الأطباء » : « انه يجب أن يكون الطبيب حسن القد ، صحيح الأعضاء ، متناسبة تقاديرها ، حسنة في شكلها ، قوية في وضعها ، معتدل المزاج ، ناعم الكف ، وأن تكون الفرج بين أصابعه واسعة ، ولونه مائلا الى البياض ، مشرب الحمرة ، معتدل الشعر في الكثرة والقلة والبساطة والجمودة ، أشهل العينين ، يخالط نظره دائما سرور وفرح ، وفيه بشاشة وطلاقة ، فأما في نفسه فأن يكون ذكيا ذكورا ، حية التصور ، شديدا الحسد والتخمين ، صبوراً على التعب والنصب في درك الحق من الأمور ، كتوما متحملا ما يسممه من المرضى ، وهذه الأوصاف موجودة في الأعز بهاء الدين ، ونجيب الدين أبي بكر أبقاها الله تعالى » (١) . فالحكيم أبو الخير لا يكتفى بذكر صفات الطبيب المعنوية والعقلية ولكن يفضل أن يكون الطبيب أيضا حسن الصورة ، يائسا ، صحيح البنية ، ثم يذكر لنا المثل الحي في عصره وهما الدكتور الأعز بهاء الدين ، والدكتور نجيب الدين أبي بكر ، وكيف أنهما جمعوا الصفات الجسمية والطبيعية والعقلية والمعنوية . ويطلق ابن أصمعة أيضا في وصفه لاسقليبوس : وما كان عليه من عفة ووقار ، ونشاط وهمة ، إذا تأملته « وجدته قائما متشمرًا مجموع الثياب ، ترى الأعضاء منه التي يستحي من كشفها مستورة والأعضاء التي يحتاج الى استعمال الصناعة بها معراة مكشوفة ، حاد

النظر ، كثير السهر ، في غاية الذكاء يمكنه تشخيص المرض الحاضر ، وأن ينذر بما شأنه أن يحدث « (٢) ، من مضاعفات ويجمع لنا ابن رضوان صفات الطبيب كما يراها ، فلا يتناسى تلك الصفات الجسمية والطبيعية ، ويرى أن الطبيب ينبغي أن تجتمع فيه سبع خصال :

الأولى : أن يكون تام الخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرؤية ، عاقلا ، ذكورا ، خير الطبع .

الثانية : أن يكون حسن اللبس ، طيب الرائحة ، نظيف البدن والثياب .

الثالثة : أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم .

الرابعة : أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من أجره ، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء .

الخامسة : أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة في منافع الناس .

السادسة : أن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء ، والأموال التي شاهدها في منازل الأعداء فضلا عن أن يتعرض إلى شيء منها .

السابعة : أن يكون مأمونا ثقة على الأمور والأموال ، لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط ، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

والمعلم لصناعة الطب هو الذي اجتمعت فيه الخصال بعد استكمالها لصناعة الطب ، والمتعلم هو الذي فراسته تدل على أنه ذو طبع خير ، ونفس ذكية ، وأن يكون حريصا على التعليم ، ذكيا ذكورا لما قد تعلمه (٢) . فابن رضوان يذكر لنا صفات الطبيب الممارس ، والطبيب المعلم ، والطبيب في مرحلة الإعداد وطلب العلم . وبعد أن يذكر صفات الطبيب الممارس عموما ، يتوقف عند الطبيب المعلم الذي ينبغي أن يحوز صفات الطبيب الممارس ، بجوار استكمالها لصناعة الطب ، واتقانه له نظريا وعمليا ،

وطالب الطب لابد أن يختار من بين هؤلاء الذين تبدو عليهم سمات الطبع الخير والنفس الزكية والحرص على التعلم . وهذا يبدو ابن رضوان مهتما بحسن اختيار أبناء المهنة : ممارسين وأساتذة وطلابا . ولا شك أننا إذا أحسننا اختيار طالب الطب ، وأحسننا اعداد معلمه ، لارتقت المهنة علميا وأديبا واجتماعيا . وهذا ما حرص عليه الفكر التربوي الاسلامي في اختيار الطبيب وتربيته واعداده .

(ب) الصفات العقلية والمهنية :

إذا تركنا الصفات الحسية أو الطبيعية الى الصفات العقلية والمهنية لاحظنا الحرص الشديد على أن يكون الطبيب منصرفا الى متابعة نموه العلمي والمهني باستمرار ، وذلك بالمواظبة على قراءة الكتب ، والانتفاع بتجارب الآخرين ، وعدم الاعتماد على التجربة والخطأ في التشخيص والعلاج ، والتفرغ الكامل للمهنة وعدم الاشتغال بسواها . لذلك نجد أن الرازي يرى أن الانسان يجب أن يتأكد من حسن سير وسوابق الطبيب الذي يمهّد اليه بصحته وصحة اقاربه التي هي أعز شيء في الدنيا ، وذلك بأن يتجنب الطبيب الذي يتطع وقته بين الملامى والملذات ويشغل كثيرا بالفنون الأجنبية عن مهنته ويشرب الخمر ويتمادى في الشهوات . وبخلاف ما ذكر يجب أيضا على المرء أن يثق بمن أتم دروس الطب اتقانا وإقيا ، وشاهد كثيرا من المستشفيات وعاشر كثيرا من الأطباء الماهرين ، وعالج عددا وافرا من المرضى ، وأن يثق بالطبيب الواسع الاطلاع على كتب أعظم المؤلفين الذي يضم تجارب الآخرين الى مباحثه وملحوظاته الشخصية لأنه يستحيل على الانسان أن يقوى على رؤية كافة الأشياء واختبارها بنفسه (٤) . وعلى بن العباس المجوسى يرى أن الطبيب الناجح ينبغي ألا يكون تشاغله الا بقراءة الكتب ، والحرص على النظر فيها ، أعنى كتب الطب ، ولا يمل من ذلك ، ولا يضجر منه في كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قد قرأه واستظهاره وتذكره إياه في ذهابه ومجيئه ليحفظ جميع ما يحتاج اليه من علم وعمل . ويروض ذهنه فيه حتى لا يحتاج في كل وقت الى النظر في كتاب فإنه ربما نالت كتبه آفة فيكون رجوعه فيما يحتاجه الى حفظه حيث توجه ، وينبغي أن يكون حفظه لذلك في حد ذاته وشبابه

فإن الحفظ في هذا الوقت أسهل منه في وقت الشيخوخة ، إذ كانت الشيخوخة أم النسيان . وما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ، ومواضع المرضى كثير المداولة لأموهم وأحوالهم من الأساتذيين من الحذاق من الأطباء ، كثير التقصد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، مستذكراً لما كان قد قرأ من تلك الأحوال وما يدل عليه من الخير والشر ، فإنه إذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغاً حسناً « (٥) فعلى بن العباس يريد من طالب الطب القراءة الواسعة ، والملاحظة السريرية التي يطبق عليها ما يقرأ ، وملازمة حذاق الأطباء ليستفيد من تجاربهم . وسنرى شعور الأطباء المسلمين « بأن العمر قصير ، والصناعة طويلة والزمان جديد » ومن هنا وجب أن يقضى الطبيب وقته في الدراسة والاطلاع حتى يستطيع أن يمارس مهنته بنجاح . ويجب أن يكون الطبيب « قد أحكم الأصول وقرأ الفروع ، فإنه من غير هذين لا يصح له شيء ، ولا يهتدى لأمر من الأمور في الصناعة فعليهما ناعتد » (٦) . وسنلاحظ أيضاً أن دائرة اطلاع الطبيب ينبغي ألا تكون في حدود التخصص الضيق بل ينبغي أن تشمل بجوار ذلك اطلاعاً عاماً General knowledge يعين على التبحر في التخصص وإدراك العلاقات الأخرى المتصلة مثل دراسات من الحشائش الطبية ، وعن تأثير البيئة من الصحة والمناخ ، والأدوية ... الخ كان يعرف « منابت الحشائش والعقاقير ومواضع المعادن وخواصها ، وقوى أعضاء سائر الحيوان وخواصها ومضارها ومنافعها ، ويعرف سائر الأمراض والبلدان واختلاف أمزجة أهلها مع تفريق ديارهم ، ويعرف القوة التي تنتجها تركيب الأدوية ، وما يضاد قوة من قوى الأدوية ، وما يلائم مزاجاً مزاجاً وما يضاده ، مع ما يتبع ذلك من سائر صناعة الطب » (٧) . فالذكاء والاطلاع والاستمرار في التعلم والبحث ، صفات عقلية ينبغي أن يتحلى بها الطبيب الناجح . وقل أن يترجم ابن أبيصينة لطبيب في طبقاته دون أن يذكر لنا جظه من تلك الصفات العقلية اللازمة لحسن اعداد الطبيب (٨) .

(هـ) الصفات الأخلاقية وشرف المهنة :

تحتل الأخلاق بصفة عامة مكانة مهمة في تكوين شخصية المسلم مهما كانت مهنته أو وظيفته . ويكفى أن نذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق » . وقوله : « لا دين لمن لا خلق له » لنذكر لماذا اهتمت ادبيات التربية الإسلامية بالعنصر الأخلاقي في تكوين المسلم بحيث لا يخلو كتاب منها عن الحديث عن أخلاق الطالب ، والمعلم (٩) . ومن ثم فالطبيب المسلم إنما يستمد أخلاقه من أخلاق هذا الدين . غير أن كتب الطب ركزت بجوار ذلك على بعض الجوانب المهمة في حياة الطبيب اليومية كالرفق بالمرضى ، وحفظ أسرارهم ، وقض البصر عن عوراتهم ، وعدم الانصراف الجنسي ، أو تعاطي المسكرات ، وعدم التكبر أو العجب بما أحرزه الطبيب من نجاح ، يقول الرازي : « وأعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقا بالناس حافظا لغيرهم ، كتوما لأسرارهم ، لاسيما أسرار مخدومه ، فإنه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتنه من أخص الناس به مثل أبيه وأمه وولده ، وإنما يكتونه خواصهم ويفشونه إلى الطبيب ضرورة . وإذا عالج من نسائه أو جواريه أو غلمانهم أحدا فيجب أن يحفظ طرفه ، ولا يجاوز موضع العلة » فقد قال الحكيم جالينوس في وصيته للمتعلمين ، ولعمري لقد صدق فيما قال : « على الطبيب أن يكون مخلصا لله ، وأن يفض طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال ، وأن يتجنب لمس شيء من أبدانهم . إذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذي فيه معنى علاجه ، ويترك اجالة عينيته إلى سائر بدنهن » . قال : « ورأيت من يتجنب ما ذكرت ، فكبر في أعين الناس ، واجتمعت إليه أقاويل الخاصة والعامة . قال : ورأيت من تعاطى النساء فكثرت قالة الناس فيه ، فتجنبوه ورفضوه » (١٠) .

وليحذر الطبيب إذا اشتهر أن يتكبر على العامة أو يترفع عن معالجتهم يقول الرازي : « وأعلم يا بني أن من المتطبين من يتكبر على الناس لاسيما إذا اختصه ملك أو رئيس ، وقد قال الحكيم جالينوس : رأيت من المتطبين من إذا داخل الملوك فبسطوه تكبر على العامة وحرهم العلاج ، وغلظ لهم القول ، وبسر في وجوههم ، فذلك المحروم المنقوص

- ١٩٢ -

ندما الحكيم الى اعداد هذه الخصال التي ذكرها وحث عليها « (١١) .
ومهما نجح الطبيب في عمله ووفق في معالجاته فليتواضع ويحمد الله على
ذلك حتى لا يأخذه العجب بنفسه فيصيبه الغرور والتكبر على زملائه
ومرضاه . يقول الرازي : « ورأيت من المتطبيين من اذا عالج مريضا
شديد المرض فبرا على يديه ، دخله عند ذلك عجب وكان كلامه كلام
الجبارين ، فاذا كان كذلك فلا كان ولا وفق ولا سدد » (١٢) . وكلمنا
تواضع الطبيب كلما ازداد علما ونجاحا في عمله : يقول الرازي : « واعلم
ان التواضع في هذه الصناعة زينة وجمال (دون ضعة النفس) ، لكن
يتواضع بحسن اللفظ وجيد الكلام ولينه ، ويترك الفظاظة والغلظة على
الناس ، فمتى كان كذلك فهو المسدد والموفق » (١٣) . ثم يجتهد الطبيب
في التشخيص ووصف العلاج ويسأل الله التوفيق والسداد ، دون أن يظن
أنه وحده بعلمه ومهارته سبب الشفاء ، بل يتكل « في علاجه على الله
تعالى ، ويتوقع البرء منه ، ولا يحسب قوته وعلمه ويعتمد في كل أموره
عليه . فاذا فعل بضد ذلك ونظر الى نفسه وقوته في الصناعة وحذقه
حرمة الله البرء » (١٤) . وينهى الرازي « أن يتناول الطبيب شسينا من
المسكرات ، حتى يكون عقله حاضرا معه ولا سيما وقت العلاج ، حتى
لا يقع في علاجه من الخطأ ما لا يمكن تداركه ، كذلك فقد يحتاج الى الطبيب
في وقت يكون فيه سكرانا فيسقط ذلك من هيئته » (١٥) . ويجمل بعض
المعاصرين أهم تلك الصفات الأخلاقية التي يجب أن يكون عليها الطبيب
المسلم فيما يلي :

- ١ - الذي لا يحتسى الخمر .
- ٢ - الذي لا يتعاطى المخدرات .
- ٣ - الذي يصون الأمراض فيغض بصره ويحفظ فرجه .
- ٤ - الذي يشهد بالصدق في كل ما يطلب منه أو يشهد به .
- ٥ - الذي لا يكسب الا مالا حلالا . والذي يخشى الله فيقول لمريضه
الكلمة الصادقة والنصيحة الخالصة (١٦) .

ولقد بلغ من اهتمام المسلمين بهذا الجانب الأخلاقي في اعداد

الطبيب أنهم نصحوا ألا يتعلم الطب أصلاً إلا ذو أخلاق حسنة ، وتدين قوى . وأن كثيراً من أساتذة الطب رفضوا أن يعلّموا الطب إلا لمن حاز هذه الصفات الحسنة (١٧) ، وكان الحكيم أبو التماسم يرى أن الطبيب ينبغي عليه أن يعالج أخلاقه أولاً حتى يصبح محباً للخير ، كارهها للردئ ثم بعد ذلك يمارس المهنة : « فالطبيب الحقيقي من عالج بالفضائل نفسه ورأى مضرته في الرذائل ، ثم يهبط بعد ذلك إلى معالجة الأجسام ، فمن لا يهبط من معالجة النفس إلى معالجة الجسد فهو أسفل السافلين » (١٨) .

ثانياً — حقوق الطبيب وواجباته :

حقوق الطبيب :

تمتع الطبيب بمنزلة اجتماعية عالية في المجتمع الاسلامي مثل منزلة المعلم تماماً ، فالمعلم يقدم للمجتمع العلم والمعرفة ، والطبيب يمدّه بالصحة والعناية ، وكلاهما من القيم الغالية التي حرص المجتمع الاسلامي عليهما ، وعلى أدوات تحصيلهما ، يصور لنا ذلك قول الشاعر :

أكرم طبيبك ان أردت دواءه . . وكذا المعلم ان أردت تعلمها

ان المسلم والطبيب كلاهما . . لا ينصنعان اذا هما لم يكرما

ناصر لدائك ان جفوت طبيبه . . واقنع بجهلك ان جفوت معلما (١٩)

ولذلك أوصى الرازي أن ينال الطبيب منزلة محترمة في نفوس العامة والخاصة فيقول : « ينبغي لمن يختص المتطبب لنفسه من الملوك والأكابر والسوقة أن يتبالغ في تطيب قلبه بلطف الكلام ، وأن يرغمه فوق جميع من في مجلسه من خدمه وغيرهم ، فإن هم إلا خدام جسمه والمتطبب خادم روح » ، وإذا أكرم الناس الطبيب بذل أقصى ما لديه من علم وخبرة في خدمتهم ، ذلك لأن « المخدم إذا أحسن إلى من يختصه لنفسه من المتطبيين جد ذلك المتطبب في حفظ صحته ، ومداواة علته ، وقد صدق لعمرى الحكيم ابن قراط حيث قال : صانع الطبيب قبل أن تحتاج إليه ومما يضرب به المثل : عمله عمل من طب لمن أحب . . ولا شيء أجدى على الغليل من كون الطبيب مائلاً إليه بقلبه ، مجاباً له » (٢٠) ويرى الرازي أنه على « من استخدم الطبيب أن يقربه من نفسه ويكلمه كما يكلم أخص الناس به » ، والإيكتم عن الطبيب سرا يمكن أن يؤثر على علاجه لأن (م ١٣ — الاعداد التربوي للطبيب)

« الطبيب لا يهتدي إلى علاجه إذا لم يفش إليه سره » (٢١) كذلك ينبغي أن يثق المريض بطبيبه ولا ينتقل من طبيب إلى آخر كما ذكر الرازي : « ينبغي للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء مخطؤه في جنب صوابه يسير جدا » بعكس « من تطيب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع في خطأ كل واحد منهم » (٢٢) . والطبيب يمكن أن يخطئ في أثناء أدائه لعمله أخطاء طبية غير جسيمة وليست نتيجة جهل أو إهمال ، فهذه لا يحاسب عليها الطبيب أو يعاقب عليها . كذلك فمن حق الطبيب أن ينال أجره « من غير عقد أجارة ، بل يعطيه (المريض) أجره المثل ، أو ما يرضيه » (٢٣) . ولقد نال الأطباء المسلمون أجورا مناسبة جعلتهم يعيشون في مستوى معيشي مرتفع إذا قارناه بمستوى معيشة غيرهم من الطبقات المثقفة ، فضلا عن العامة (٢٤) ، مما كان سببا في الانقبال على ممارسة تلك المهنة ، وعندما نقرأ تراجم الأطباء كما ذكرها ابن أبي عمير يتضح لنا أن بالعمل الأطباء المسلمين قد نالوا حقوقهم الأدبية والمادية ، على صورة تقدير اجتماعي ، وأجور وهدايا مجزية بحيث كانت مهنة الطب محترمة ، ومحبوذة ، ومرغوب فيها . (انظر الملحق رقم ١) .

واجبات الطبيب :

إذا كان الطبيب المسلم قد نال حقوقه الأدبية والمادية فقد كان ذلك تقديرا من المجتمع لدوره ، وما يبذله الطبيب من جهد في سبيل أداء واجباته . ولقد كان من أول هذه الواجبات ألا يتصدى للمهنة إلا بعد أن ينتهزها نظريا وعمليا ، وألا تعرض للمسئولية في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطيب — ولم يعلم منه الطب قبل ذلك — فهو ضامن » (٢٥) . وكانت عقوبة من يتصدى للطب بدون كفاءة عقوبة تتناسب مع خطورة تلك الجريمة التي تعرض أنواع الناس للخطر ، وهي جريمة أخطر على المجتمع من اللصوصية وقطع الطرق . ذلك لأن « اللصوص وقطاع الطرق ، خير من أولئك القفر الذين يدعون الطب وليسوا بأطباء ، لأنهم يذهبون بالمال وربما أبغوا على الأنفس وهؤلاء (المتطبين) كثيرا ما يأتون على الأنفس النفيسة » (٢٦) . ولقد تناول الفقهاء بأساليب المبادئ الشرعية التي تحكم عمل الطبيب

ومسئوليته ومتى يكون طبيبا حاذقا ؟ ومتى يقع تحت دائرة العقاب ، اذا اخطأ ؟ ومتى لا يقع .. الخ (٢٧) .

كذلك وضعت مواصفات دقيقة للطبيب الحاذق ، وكيف يمارس المهنة (انظر الملحق رقم ٤) وما ينبغى عليه من تدقيق تشخيص المريض وتتبع حالة المريض ، وتاريخه المرضى حتى يعلم « كل يوم كمية طعامه وكيفية طبعه في قلته وكثرته ، وهشاشته لذلك أو كراهته ، فان من علم مطعم انسان ومشربه ونومه وسهره وفراغه وشغله وسائر أحواله من البهائم وغير ذلك ، فما أقل ما يقع في علاجه من الخطأ » (٢٨) كذلك عليه أن يعطى المريض الوقت الكافي للفحص الشامل وسماع خالقه وشكواه ، وأن يقوم بالكشف الدورى على المريض في الحالات التي تستدعى ذلك ، لأن من « العلل ما لا يمكن الاستغناء فيها عن الطبيب الحاضر المراقب ، لظهور العلامات الدالة على ما تحتاج الطبيعة اليه من معاونته والمبادرة الى تدبير ما يحدث بالمريض ساعة فساعة » (٢٩) . وعلى الطبيب ألا يقتصر بخدماته الطبية على الاغنياء وذوى الجاه بل يشمل بها الفقراء والمحتاجين وتحمل تراجم الأطباء لابن أصيبعة بأسماء أطباء رمضوا أن يقتصروا خدماتهم الطبية على الأمراء والسلاطين ، واضروا على أن يكونوا أطباء للقامة والخاصة في نفس الوقت (٣٠) . كذلك ينبغى على الطبيب ألا يستغل مهنته استغلالا ماديا جشعا كان يومه المرضى بطلن معينة ، أو يبالغ في تقدير جهده ، أو يختال لكسب أكبر قدر من المال ، « اذ لا ذنب أعظم من ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق ، لاسيما من كان ضعيفا أو مسكينا ولا عقل له ولا أمر ولا نهى » (٣١) . والمريض عندما تشرف نفسه على الهلاك يكون بين يدي الطبيب ضعيفا مسكينا لا عقل له ولا أمر ولا نهى ، فلا يجوز استغلاله في تلك الحالات الصعبة .

لقد كان الطبيب المسلم يؤدي واجبه ، وهو يراقب الله في هرثته لأنه يؤمن بقول الله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة ، فنبينكم بما كنتم تعملون » (التوبة : آية ١٠٥) ونرى أن نختم هذا الجزء من الدراسة

بما سماه « إبراهيم الصياد » أساليب ممارسة المهنة ، أو كيفية ممارسة الطبيب لواجبات المهنة والتي ذكر منها مايلي : (٢٢)

(١) بدء الفحص أو العلاج بذكر اسم الله فان ذلك له عدة اعتبارات :

— ادعى للتوفيق في العمل فالرسول يقول « كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو ابتر » .

— استئذان لدوره كسبب نفاذ ارادة الله في العلاج وهذا هو موقف العبودية لله .

— توجيه عمله لله حتى يثاب عليه .

— منح المريض دفعة روحية وهو في موقف حساس : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات : ٥١ ، ٥٢) .

(ب) قد يشهد وفاة المريض وبصفته مسلمات قبل أن يكون طبيباً فعليه أن يلقنه الشهادتين كما يقول : « لقنوا موتاكم لا اله الا الله » .

(ج) تجنب ما حرم الله في العلاج تنفيذا لقول الرسول : « ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم » . وفي الطب الحديث لكل علاج محرم بديله الحلال .

(د) تجنب الممارسات التي نهى الاسلام عنها كالأجهاض والوشم .. الخ فقد قال الرسول : « لعن الله الواشحات والمستوشمات والواشرات والمستوشرات » .

(هـ) الا يقدم على ممارسة الا اذا كان مطمئناً الى كفايته لتنفيذها فالرسول يقول « لا حكيم الا ذو تجربة » ، ويحترم التخصص المهني تنفيذا لقول الرسول : « من تطيب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن » .

(و) ان يحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر فان مهنته تتعداه الي غيره ، وعلمه من النوع التطبيقي والرسول يقول : « الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها ينشدها » .

(ز) أن يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الاسلام فيتجنب الغيبة والتجريح واحترام الكبير : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » ولا يتعالى على الصغير : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » ويقدم النصيح لمن يحتاجه « الدين النصيحة » ، وأن يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » ، « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا » .

(ح) أن يفيد بعلمه كل مريض يمكن مساعدته فالرسول يقول : « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع » ، « من كتم علمه عن أهله الجسم يوم القيامة لجاما من نار » .

(ط) أن يذيع ما يكشفه من جديد في العلاج تعميما للفائدة ولا يحتكر طريقة في العلاج يقصد الكسب منها فالرسول يقول : « لا يحتكر إلا خاطيء » .

(ي) أن يراعى حرمة الميت كما يراعى حرمة الحى ، فالرسول يخاطب الكعبة قائلا : « والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » ، ويقول : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحى فى الاثم » .

مراجع الفصل الرابع ومصادره

- (١) ظهر الدين البيهقي : « تاريخ حكماء الاسلام » ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .
- (٢) ابن اصبعة : عين الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ٣٤ — ص ٣٧ .
- (٣) نفس المرجع ، ص ٥٦٥ .
- (٤) محمود صدقي : رسالة عن الطب في أيام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .
- (٥) علي بن العباس المجوسي : كامل الصناعة الطبية — مطبوعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٤ هـ ، ج ١ ، ص ٨ و ص ٩ .
- (٦) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٧٦ ، ص ٧٨ .
- (٧) ابن اصبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ، ص ١٤ .
- (٨) نفس المرجع ، الصفحات ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٥٨٠ ، ٦٠١ ، ٦٦٢ ، ٧٢٥ ... الخ .
- (٩) راجع مثلا : احياء علوم الدين للغزالي ، وتعليم المتعلم طريقة التعلم للزرنوجي ، ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لطائس كبرى زاده ، وغيرها من المراجع التي سبق ذكرها .
- (١٠) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ، ص ٣١ .
- (١١) نفس المرجع ، ص ٣٥ ، ص ٣٧ .
- (١٢) نفس المرجع ، ص ٣٨ .
- (١٣) نفس المرجع ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .
- (١٤) نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ .
- (١٥) نفس المرجع ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ .

- (١٦) محمود أحمد نجيب : الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .
- (١٧) ابن أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٦٧٣ .
- (١٨) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .
- (١٩) برهان الاسلام الزرنوجي : تعليم المتعلم طريق التعلم ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .
- (٢٠) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٣١ — ص ٣٥ .
- (٢١) نفس المرجع ، ص ٤٧ ، ص ٦٨ .
- (٢٢) ابن أصيبعة : عيون الأطباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ٤٢١ .
- (٢٣) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .
- (٢٤) فرات مائق خطاب : الكحالة عند العرب ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٥ ، ص ١٦ ، رحمة الله مليحة ، الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٧٥ .
- (٢٥) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .
- (٢٦) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٨١ .
- (٢٧) محمد فؤاد توفيق : المسؤولية القانونية في الشريعة الاسلامية من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٥٤٤ — ص ٥٤٩ ، عبد الستار أبو غدة : « المبادئ الشرعية للتطبيق والعلاج » من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٥٩٠ — ص ٦٠٢ .
- (٢٨) الرازي : اخلاق الطبيب ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

— ٢٠٠ —

- (٢٩) ظهير الدين البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، مرجع سابق ،
ص ١٧٠ .
- (٣٠) ابن ابي عمير : عيون الاطباق في طبقات الاطباء ، مرجع سابق ،
ص ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ وغيرها .
- (٣١) ابن ابي نصر الطبري : كتاب منهاج الدكان ودستور الاعيان في
اعمال وتركيب الادوية النافعة للابدان ، مرجع سابق ، ص ٥ .
- (٣٢) ابراهيم الصياد : « نظرة الاسلام للطب » ابحاث واعمال
المؤتمر العالمي الاول عن الطب الاسلامي ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ،
ص ٦٥ .

خاتمة البحث : أو دروس مستفادة

حاولنا في الصفحات السابقة أن نعرض للاعداد التربوي والمهني للطبيب ، هذا الاعداد الذي نرى أنه كان من وراء تلك النهضة الطبية التي حققها المسلمون في فترة قصيرة من الزمان . ومن خلال الفصل الأول رأينا أننا لا نستطيع أن نفهم ازدهار الطب الاسلامي الا اذا عرضنا لتعاليم الاسلام التي تحت على طلب العلم بصفة عامة ، والتعليم الطبي بصفة خاصة . ان الامة العربية ما كان لها ان تنتقل من البداوة الحضارية الى هذا الازدهار العلمي والتعليمي في شتى المجالات ، دون تلك الدفعة الهائلة التي جاءت بها تعاليم الاسلام ، ولقد كان نصيب التعليم الطبي من تلك التعاليم نصيبا كافيا لازدهار الطب الوقائي ، والطب العلاجي معا ، والانتقال بسرعة من مرحلة الترجمة والاقتباس الى مرحلة الامالة والتأليف والابداع ، ولعل هذا يوضح لنا قوة استخدام الدافع الديني المقتئدى في بناء الحضارات . لقد كان الدافع الاسلامي قويا وهائلا بحيث استطاع أن يدفع المسلمين الى شتى ميادين العلم والمعرفة ومنها الطب ، اذ وجد المسلمون أن كل المعارف تزيدهم قريبا الى الله ، ومنها آياته ومعرفة به . ولذلك فعندما كان أبو الحسن الانباري الحكيم يدرس بعض الائنسكال الهندسية من كتاب المجسطي ومسأله بعض الفقهاء يوما ما تدرس ؟ رد بكل ثقة واطمئنان « أفسر آية من كتاب الله تعالى . فقال الفقيه : وما تلك الآية ؟ فقال الانباري : قول الله تعالى : « أولم يروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأنما أفسر كيفية بنائها » (١) . والواقع أن العلماء المسلمين قد اتخذوا من القرآن وتعاليمه نقطة انطلاق لهم لارتداد شتى ميادين العلوم والمعارف وكانوا يرون أن آيات القرآن تحثهم على ذلك . (انظر الملحق رقم ٣) ولقد كان ثمرة هذا الربط المحكم بين « القرآن » والعلم ، ومنه الطب أن نمت العلوم الاسلامية في ظلال الايمان ، فلم تعرف الالهاده ، وفساد الأخلاق ، واستغلال العلم من أجل تدمير الانسسان والطبيعة واشباع الشهوات الشخصية والقومية (٢) .

— ٢٠٢ —

ثانياً : ان التعليم المتخصص — ومنه التعليم الطبى لا يتم الا بعد ان ينال الطفل المسلم الجرعة الثقافية الاسلامية الكافية لتشكيل شخصيته الاسلامية . ويثقل « التعليم الابتدائى » الاسلامى مرحلة كافية لاتهام هذه العملية التربوية الهامة : « عملية التطبيع الاسلامى » . ولقد كان المسلمون على مر العصور ، وعلى اختلاف اقاليمهم يركزون على أهمية تلك المرحلة . وكان ثمرة ذلك افتتاج اجيال مسلمة من المثقفين ، وعلى اختلاف تخصصاتهم فيما بعد — تجمعهم ثقافة واحدة ، هى الثقافة الاسلامية ، وتوخدمهم قيم واحدة ، هى القيم الاسلامية . ومن هنا لم يعان المثقفون المسلمون على اختلاف تخصصاتهم الشعور « بالفجوة الثقافية » وانعزالهم عن العمامة كما يشعر المثقفون المعاصرون ، كذلك لم يعان المثقفون من أى نوع من انواع الازدواج الثقافى بين المتخصصين فى علوم الدين ، والمتخصصين فى علوم الدنيا كما نعانى اليوم فى ظل غياب عملية التطبيع الاسلامى الشامل (٣) ، بل أن المثقف المسلم لم يشعر بوخدة الثقافة فى داخل اقلية الجغرافى ، بل أحس بها حيثما تنقل فى أنحاء العالم الاسلامى كما تدلنا على ذلك أعمال الرحالة المسلمين وآثارهم الادبية التى دونوا فيها وقائع تلك الرحلات (٤) . وهذه النقطة بالذات تحتاج الى مزيد من الدراسة والمناقشة .

ثالثاً : ان التعليم الطبى الاسلامى قد توافرت له عوامل النجاح ، من حيث اقبال الطلاب على العلم والتعليم ، وتفرغ الأساتذة لحسن أعدادهم نظرياً وعملياً ، والعلاقة القوية التى كانت تربط الأستاذ بطلابه والتسهيلات العملية والحياتية التى كان يخطى بها الطلاب والأساتذة والحرية العلمية والاكاديمية التى تمتعوا بها ، وهى جميعاً عوامل يفتقر اليها التعليم الطبى فى أغلب الدول الاسلامية المعاصرة . ان كثيراً من طلابنا لا تتوافر لهم عناصر الحياة الضرورية فضلاً عن متطلبات الدراسة الاكاديمية من معامل ومراجع وتسهيلات مكتبية ودراسية ، وكثير من أساتذة الطب عندنا لا يجدون الوقت الكافى الذى يعطونه لطلابهم تفليها وتدريباً بسبب انشغالهم بعياداتهم الخاصة ، وسعيهم وراء الرزق حتى برزت الحاجة الى ضرورة تفرغ بعضهم لمزاولة « التعليم الطبى » (٥) .

— ٢٠٣ —

رابعاً : لقد كان الأطباء المسلمون على مستوى المسؤولية الحضارية عندما نجحوا في تعريب التعليم الطبي ، وعندما أثروا اللغة العربية بالمصطلحات الطبية الجديدة ، والذي يطالع المؤلفات الطبية الإسلامية لا يمكن إلا أن يشعر بالاحترام لهؤلاء الأساتذة الأجلاء . لقد احترمو لغتهم العربية واتقنوها ، وقدموا تعليمهم للعربية على سائر العلوم ، وبذلك كانوا قادرين على الترجمة والاقتباس والنحت والاشتقاق . وكانت من ورائهم حكومات مسلمة قد اتخذت « قرار التعريب » بدون تردد ، وبذلك في سبيله المال ، وأعدت من أجله المدة من مترجمين ودور حكمة .. الخ . وشجعت العلماء على التعريب والتأليف بالعربية . ويقارن الباحث بين هذا العزم وتلك الإرادة القوية وبين ما يبديه الجيل المعاصر : علماء وحكوماته من تردد في تعريب التعليم الطبي ، واهتمام على اللغات الأجنبية في التدريس والتأليف ، فيدرك الفارق الهائل بين علماء يحترمون لغتهم ولا يرضون باللحن فيها في مجالسهم العلمية ، وبين آخرين لا يكادون يحسنون النطق بها في محاضراتهم « (٦) فأنى لهم القدرة بعد ذلك على التدريس أو التأليف بها ؟ . نعم ان قضية تعريب العلوم ومنها الطب ، من القضايا الهامة التي يثيرها المفكرون العرب كثيرون ، ويعقدون لها الندوات والحلقات على المستوى المحلي والقومي ، وتتعدد فيها الآراء . ولكن من الواضح أن تلك القضية لن تحسم إلا بقرار سياسي على أعلى المستويات التشريعية في البلدان العربية ، مع إنشاء مراكز رئيسية للتعريب والترجمة والنشر ، وإصدار مجلات ومؤلفات علمية بالعربية لمتابعة حركة التطور العلمي العالمي ، ورصد الميزانيات الكافية لذلك (٧) . وما زالت تجربة المسلمين في هذا الموضوع تجربة تستحق اندراسة والتأمل .

خامساً : لقد استبدد الأطباء المسلمون أخلاق مهنتهم من أخلاقيات الاسلام العامة ، وبذلك نجا الطب الاسلامي من كثير من مظاهر انحراف الطب الحديث . فقد نشرت ريدرز دايجست على سبيل المثال في عددها الصادر في فبراير عام ١٩٨٢ : « أنه يمارس الطب في أمريكا ٥٤٠٠٠ طبيب وأنه من بين هؤلاء يوجد من ٢٠٠٠ الى ٥٠٠٠ طبيب يجب

الا يسمح لهم بمزاولة المهنة ، وذلك بسبب ادمانهم الخمر أو المخدرات ، أو لاصابتهن بانحرافات جنسية أو اختلال في تفكيرهم وقبواهم العقلية . كذلك نشر الجراح جن كريل كتابا سجل فيه خبرته على مدى أكثر من أربعين عاما في ميدان الطب ، سرد فيه سلسلة من الفضائح والمخازي التي ارتكبتها الأطباء مع المرضى ، وكلها أمثلة لفساد الذمة وانعدام الضمير حتى أن بعض هؤلاء الأطباء كانوا يجرون كثيرا من الجراحات ومنها جراحات استئصال اللوز والزائدة الدودية واكتياس الثدي والأورام الليفية من الرحم من أجل ابتزاز أموال المرضى . وفي معظم الحالات يدخل الجراح في روع المريض أنه يعاني من مرض خطير وأنه لابد من الجراحة لانقاذ حياته . وينقاد المريض تحت تأثير الخوف من حدوث المضاعفات والأورام السرطانية فيقبل اجراء جراحة هي في الواقع لا مبرر لها . وقد يحدث من هذه الجراحة مضاعفات تؤدي بحياته » (٨) .

سادساً : في موجة حماسنا للتعليم الاسلامي قد يظن البعض أنه يكفي أن ندرس مادة « الطب الاسلامي » في كليات الطب نتناول فيها تعاليم الاسلام في ميدان الطب والتراث الطبي الاسلامي ، والعلاج الاسلامي . الخ (٩) ، أو أن نصوغ دستوراً لمهنة الطب مستمداً من تراثنا الثريوى الاسلامي ، يتناول صفة الطبيب ، وعلاقته بالمريض وواجباته ومسئوليته . الخ (١٠) . ورغم أهمية مثل هذه الأمور ، إلا أنها تعيد لنا « الروح الاسلامية » في مؤسسات تعليمنا الطبي ، وفي مناهجه وممارساته . ان ما يحتاجه « التعليم الطبي » في عالمنا الاسلامي أكثر من ذلك بكثير : أكثر من اضافة بعض الموضوعات الطبية الى مناهجه ، أو وضع دستور اسلامي لممارسته . انه يحتاج قبل ذلك كله ومعه الى الطالب المسلم الذي احسننا اعداده اسلامياً من البداية ، ويحتاج الى الأستاذ المسلم العارف بربه ، ويحتاج الى روح اسلامية جديدة تسرى في تعليمنا الطبي أفراداً ومناهج ومؤسسات فتعربه أولاً بالكامل ، ثم تسير به السيرة المتميزة ، ان ابداع « طبيب اسلامي معاصر » ، تظله آداب الاسلام وتعاليمه هي مسؤولية هذا الجيل بدون شك ، وهذا الطب الاسلامي المعاصر هو القادر على أن يقدم للانسان المعاصر راحته النفسية

والفكرية ، وطبه الجسماني والروحاني في نفس الوقت . وفي ذلك يقول
 اهد الباحثين : « ان الطب المعاصر مهما بلغ من التقدم العلمى والعملى ،
 ومهما أنجز من وسائل هائلة في ميادين البحث والوقاية والعلاج ، ومهما
 أحرز من نتائج باهرة في ميدان الرعاية الصحية فإنه لم يضمن للانسان
 الراحة النفسية والفكرية التى لا زال يبحث عنها بين موجات الاثر وأمواج
 البشر . وان الطب المعاصر يشكو من نقائص خطيرة في المفاهيم وفي
 السياسة وفي المناهج كما تحكم عنه شهادات اكبر الاختصاصيين في الطب
 والاجتماع ، بينما نجد الاسلام طبقا لمبادئه العقيدية يعطى للانسان
 ولصحة الانسان معنى اشمل وأوسع وأعنى من المفاهيم التى سادت
 أو تسود في المجتمعات السالفة والمعاصرة . ويضئ للعلوم الطبية
 ولسياسة الصحة آمنا خلقية وعملية على قدر ما يطمح اليه الانسان
 في هذا العصر » (١١) . وتديما أكد ابن قيم الجوزية هذا المعنى عندما
 قارن بين « الطب الاسلامى » وغيره من أنواع الطب في عصره ،
 ورأى أن « الطب الاسلامى » اكمل الطب وأصح وانفعه ووضح ذلك
 بقوله : « ولا يعرف هذا الا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ثم قارن
 بينهما ، فحينئذ يظهر له التفاوت . وهم أصح الأمم عقولا وفطرا ،
 وأعظمهم علما ، وأقربهم في كل شئ الى الحق ، لأنهم خيرة الله في الأمم
 كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذى وهبهم اياه ، والحلم
 والحكمة أمر لا يدانيهم فيه غيرهم . وقد روى أحمد في مسنده من حديث
 بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على
 الله ، » فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه : في علومهم وعقولهم وأحلامهم
 وفطرتهم ، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم ،
 وأعمالهم ، ودرجاتهم ، فازدادوا بذلك علما وحلما ، وعقولا ، الى ما أقام
 الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه (١٢) .

مراجع خاتمة البحث

(١) ظهير الدين البيهقي : « تاريخ حكماء الاسلام » ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) قارن ذلك بآثار العلم عندما يكون مشبها بالدائع المادى العلمانى فى :

— Seyyed Hossein Nasr: Man And Nature, The Spiritual Crisis of Modern Man, Amandala Books, Unwin LTD, 1976.

— J. Bronowski: Science and Human Values, Harper Torch Books, New York, 1965.

(٣) راجع أسباب تلك الغربة وجذورها وأهم مظاهرها فى :

— Kalim Siddiqui: Functions of International Conflict, Asocio-Economic study of Pakistan, Royal Books Company, Karachi, 1975, PP. 7-37.

(٤) انظر مثلا : رحلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير ، ودراسة زكى مجيد حسن ، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٤٥ م .

(٥) عز الدين شكاره « نظرات فى تفرغ أساتذة الطب » « مهرجان المبعوع العلم الثانى عشر » ، الكتاب الثالث ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ — ص ٩٣ .

(٦) عبد الكريم خليفة : « تأهيل أعضاء هيئة التدريس للتدريس بالعربية » مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد المزدوج ٧ ، ٨ ، السنة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ص ٥ — ص ٣١ .

(٧) انظر فى ذلك :

مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد الاول ، السنة الاولى ، ١٩٧٨ ، الثالث والرابع ، السنة الثانية ، ١٩٧٩ ، والسابع والثامن ، السنة

الثالثة ، ١٩٨٠ ، مهرجان اسبوع العلم السابع عشر ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧٧ ، وعزة مريدن : تعليم الطب باللغة العربية ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٨) محمود أحمد نجيب : الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى ، مرجع سابق ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

(٩) انظر تفصيل هذا المنهج المقترح فى :

أحمد شوقى الفجرى : « الطبيب الاسلامى منهج دراسته فى كليات الطب ؛ مشروع تدريس مادة الطب فى كليات الطب ، أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٨٠٣ — ص ٨٠٧ .
(١٠) انظر فى ذلك :

وثيقة الكويت : « الدستور الاسلامى للمهنة الطبية » ، اعداد المنظمة العالمية للطب الاسلامى ، ص ٦٨١ ، ص ٧٠٠ ، محمود ناظم النسيبى : « قواعد وآداب مزاوله الطب الاسلامى فى التراث الاسلامى » ص ٦١٨ — ص ٦٢٢ ، محمد الطيب بسيبى : قواعد وآداب مزاوله مهنة الطب الاسلامى ، كما وردت فى التراث الطبى الاسلامى ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٧ ، أعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق .

(١١) أحمد عروة : « آفاق اسلامية لفلسفة وسياسة الصحة » ، أعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى ، مرجع سابق ، ص ٩١٦ .

(١٢) ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ .

ملحق رقم (١) *

الدخل العام للطبيب جبرائيل بن يختيشوع طبيب الرشيد

أتول : وكانت مدة خدمة جبرائيل بن يختيشوع للرشيد منذ خدمته والى أن توفي الرشيد ثلاثا وعشرين سنة . ووجد في خزنة يختيشوع ابن جبرائيل مدرج فيه عمل بخط كاتب جبرائيل بن يختيشوع الكبير ، واصطلاحات بخط جبرائيل لما صار اليه في خدمته الرشيد يذكر أن رزقه كان من رسم العامة : في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، يكون في السنة مائة وعشرين ألف درهم ، في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وستمائة وستين ألفا ، ونزله في الشهر خمسة آلاف درهم ، يكون في السنة ستين ألف درهم ، في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وثلاثمائة وثمانين ألف درهم . ومن رسم الخاصة في المحرم من كل سنة : من الورق خمسون ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم . ومن الثابت : خمسون ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم .

تفصيل ذلك : القصب الخاص الطرازي عشرون شقة . الملحوم الطرازي عشرون شقة . الخز المنصوري عشر شقاق . الخز المبسوط عشر شقاق . الوثني اليماني ثلاثة أثواب . الوثني النصيبى ثلاثة أثواب . الطليالسة ثلاثة طيالنس . ومن التسمير (١) والفنسك (٢) والقماقم (٣) والدلق (٤) والسنباب (٥) للقبطين (٦) .

وكان يدفع اليه في مدخل صوم النصارى في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم ، يكون في مدة ثلاثة وعشرين ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم . وفي يوم الشعانين من كل سنة ثياب من وشى وقصب وملحوم

* نقلا عن ابن ابي عمير : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ، ص ١٩٨ — ص ٢٠٠ ، الملحق يعطى صورة عن المستوى المعيشي المرتفع الذى عاشه الأطباء ، وخصوصا المشاهير منهم .

(م ١٤ — الاعداد التريوى للطبيب)

وغیره بقيمة عشرة آلاف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ، مائتي ألف وثلاثين ألفا ، وفي يوم الفطر في كل سنة من الورق : خمسون ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة : ألف ألف ومائة وخمسين ألف درهم ، وثياب بقيمة عشرة آلاف درهم ، على الحكاية ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة : مائتي ألف وثلاثين ألف درهم .

ولفصد الرشيد : دفتان في السنة كل دفعة خمسون ألف درهم من الورق ، مائة ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم .

ولشراب الدواء دفتان في السنة ، كل دفعة خمسون ألف درهم ويكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم .

ومن أصحاب الرشيد ، على ما فصل منه مع ما فيه من قيمة الكسوة وشمين الطيب والدواب ، وهو : مائة ألف درهم من الورق ، فيكون أربعمائة ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة تسعة آلاف ومائتي ألف درهم ، تفصيل ذلك : عيسى بن جعفر خمسون ألف درهم ، زبيدة أم جعفر خمسون ألف درهم ، العباسة (٧) خمسون ألف درهم ، إبراهيم بن عثمان ثلاثون ألف درهم ، الفضل بن الربيع (٨) خمسون ألف درهم ، شاطبة أم محمد سيعون ألف درهم ، كسوة وطيب ودواب : مائة ألف درهم .

ومن غلة ضياعه بجند يسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة قيمته ، بعد المقاطعة ، ورقا ثمان مائة ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ثمانية عشر ألف ألف ومائة ألف درهم .

وكان يضر إليه من البرامكة في كل سنة من الورق ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم ، وتفصيل ذلك : يحيى (٩) بن خالد ستمائة ألف درهم ، جعفر بن يحيى الوزير ألف ألف ومائتا ألف درهم ، الفضل (١٠) بن يحيى ستمائة ألف درهم ، يكون في مدة ثلاث عشرة سنة : أحدا وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف درهم .

يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرئيس ، وهي ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة وهي ثلاث عشرة سنة ، سوى الصلوات الجسام فانها لم تذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين ألف درهم ، وثمانمائة ألف درهم : ثلاثة آلاف وأربعمائة ألف درهم .

التذكرة : الخراج من ذلك ومن الصلوات التي لم تذكر في النفقات وغيرها على ما تضمنه المدرج المعمول من العين : تسعمائة ألف دينار ومن الورق : تسعون ألف ألف وستمائة ألف درهم .

تفصيل ذلك ، ما صرفه في نفقاته وكانت في السنة : ألف ألف ومائتي ألف درهم على التقريب . وجعلتها في السنين المذكورة سبعة وعشرون ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم . ثمن دور وبساتين ومنقذات ورقق ودواب والجمازات سبعون ألف ألف درهم ، ثمن آلات وأجر وصناعات وما يجري هذا المجرى ثمانية آلاف ألف درهم . ما صار في ثمن ضياع ابتاعها لخاصته اثنا عشر ألف ألف درهم . ثمن جواهر وما أعده للذخائر عن قيمة خمسمائة ألف دينار خمسون ألف ألف درهم . ما صرفه في البر والصلوات والمعروف والصدقات ، وما بذل به حفظه في الكمالات لأصحاب المصادرات ، في هذه السنين المقدم ذكرها ثلاثة آلاف ألف درهم . ما كابر (١١) عليه أصحاب الودائع وجهوده ثلاثة آلاف ألف درهم . ثم وصى بعد ذلك كله عند وفاته الى المأمون لابنه بختيشوع ، وجعل المأمون الوصى فيها فسلمها اليه ، ولم يعترض في شيء منها عليه بتسعمائة ألف دينار .

هوائى الملحق رقم (١) :

- (١) نوع من الفراء يتخذ من جلد السمور وهو حيوان يرى لونه احمر مائل الى السواد . وقد أطلق على جلده اسمه .
- (٢) فراء ايضا من جلد الحيوان المسمى الفئك وهو من جنس الثعالب وفروته من احسن الفراء .
- (٣) صغار القردان . ويقتصد هنا بجلودها .
- (٤) حيوان يقرب من السمور وهو اصفر اللون وبطنة وعنته مائلان الى البياض ، ويراد هنا فراءه .
- (٥) فراء حيوان اكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر ، لونه ازرق رمادى ومن اللون السنجابى .
- (٦) اظن انها أم جعفر البرمكى زوجة يحيى بن خالد .
- (٧) بنت المهدي وأخت هارون الرشيد . وذهب المؤرخون والشعراء مذهبهم فى الكلام عن علاقتها بجعفر البرمكى وانها كانت سبب نكبتهم .
- (٨) وزير الامين فيما بعد ، حسد البرامكة ودس الدسائس عليهم ونهى البغضاء بين الامين والمأمون . (ن . ر) .
- (٩) والد جعفر البرمكى ومؤدب هارون الرشيد ومستشاره .
- (١٠) تولى الحكم من قبل هارون الرشيد على جرجان وطبرستان والرى وخراسان . ومات سجيناً ، فى الرقة بعد نكبة البرامكة . (ن . ر) .
- (١١) عاتده وغالبه .

ملحق رقم (٢) *

ثبت باعداد الأطباء الذين ترجم لهم ابن أصيعة
منذ أول ظهور الاسلام واختلاف اقاليمهم

العصر والاقاليم والجنس	العدد
١ — طبقات الأطباء الذين كانوا في أول ظهور الاسلام	١٥
٢ — طبقات الأطباء السريانيين الذين كانوا ابتداء ظهور دولة بني العباس	٣٨
٣ — طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب من اللسان اليوناني الى اللسان العربي	٤٧
٤ — طبقات الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر	٨٣
٥ — طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد المعجم	٢٤
٦ — طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها	٨٥
٧ — طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر	٥٨
٨ — طبقات الأطباء المشهورين من أطباء الشام	٥٩
٩ — طبقات الأطباء الذين كانوا من الهند	٦

* عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مرجع سابق ص ١٦١ — ص ٧٦٨ ،
وسنلاحظ هنا تعدد مراكز التعليم الطبي في أنحاء العالم الاسلامي ، وكثرة
عدد الأطباء المشهورين ، حيث لم يترجم ابن أصيعة الا لذوى القعاليات
الطبية ، والدليل على ذلك أن عضد الدولة بعد انشاء البيمارستان في بغداد
طلب مشاهير أطباء بغداد فذكروا له أسماء مائة طبيب في بغداد وحدها ،
ص ٤١٥ ، والمقتدر عندما أمر بامتحان الأطباء الممارسين تقدم للامتحان
أكثر من ثمانمائة وستين طبيا بنوى من اشتهر بالطب ولم يمتحن ،
ص ٣٠٢ ، نفس المرجع .

ملحق رقم (٣) *

التصور الاسلامى للمعرفة

وقد احتوى القرآن أيضا على علوم الأوائل : من الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك .

أما الطب ، فمداره على حفظ الصحة واستحكام القوة واعتدالها ، أورد الصحة بعد اختلالها ، وحدث الشفاء بعد اعتلالها ، وأشار إلى الأول بقوله تعالى : « وكان بين ذلك قواما » (سورة الفرقان : الآية ٦٧) ، وقوله تعالى : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » (سورة الاعراف : الآية ٣١) ، وإلى الثانى بقوله تعالى : « شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » (سورة النحل : الآية ٦٩) .

وأما الهيئة ففى آيات ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بهش فى العالم العلوى والسفلى من مخلوقات ، وأحوال الشمس والقمر ، مثل قوله تعالى : « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » (سورة الاسراء : الآية ١٢) ، وقوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر » (سورة يس : الآية ٤٠) ، وقوله تعالى : « برب المشارق والمغارب » (سورة المعارج : الآية ٤٠) ، إلى غير ذلك ، بحيث لو أحصى لوجد جميع أصول الهيئة وزيادة عليها .

وأما الهندسة ، ففى قوله تعالى : « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب » (سورة المرسلات : الآية ٣٠) .

وأما الجدل ، فتسد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج

* نقلا عن طائى كبرى زادة : مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم ، مرجع سابق ، ص ٥٢٣ — ص ٥٢٦ ، فبمقد ان تحدث عن علوم اللغة وعلوم القرآن ، بدأ الحديث عن علوم الأوائل انتهى هى أيضا مذكورة فى القرآن .

والقول بالموجب والمعارضة ، وغير ذلك ، شيئا كثيرا . ومناظرة ابراهيم
نمرود ، ومحاجة قومه ، أصل في ذلك .

وأما الجبر والمقابلة ، فقد قيل ان أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام
وأيام لتواريخ أمم سألقة وان فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة الدنيا ،
وما مضى وما بقى ، مضروب بعضها في بعض .

وأما النجامة ، ففى قوله تعالى : « أو انارة من علم » (سورة
الأحقاف : الآية ٤) ، فقد فسر به بذلك ابن عباس . وفيه أيضا أصول
الصنائع وأسماء الآلات التى تدمو الضرورة اليها ، كالخياطة فى قوله
تعالى : « وطفقا يخصفان » (سورة الأعراف : الآية ٢٢) .

والحدادة : « آتوني زبر الحديد » (سورة الكهف : الآية ٩٦)
« والنساء الحديد .. » الآية .

والبناء فى عدة آيات .

والنجارة : « واصنع الفلك باعيننا » (سورة هود : الآية ٧٣) .

والفزل : « نقصت فزلها » (سورة النحل : الآية ٩٢) .

والنسيج : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » (سورة العنكبوت :

الآية ٤١) .

والفلاحة : « أفرأيتم ما تحرثون .. » (سورة الواقعة : الآية ٦٣) .

والصيد : فى عدة آيات .

والفوص : « كل بناء وفواص » (سورة ص : الآية ٣٧) ،

و « تسخرجوا منه حلية » (سورة النحل : الآية ١٤) .

والصياغة : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا »

(سورة الأعراف : الآية ١٤٨) .

الزجاجة : « صرح ممرد من قوارير » (سورة النمل : الآية ٤٤) ،

« المصباح فى زجاجة » (سورة النور : الآية ٣٥) .

- والفخارة : « فاوقد لى يا هانان على الطين » (سورة القصص :
 الآية ٣٨) .
- والملاحة : « اها السفينة . . » (سورة الكهف : الآية ٧٩) .
- والكتابة : « علم بالقلم » (سورة العلق : الآية ٤) .
- والخبز : « احمِل فوق راسى خبزا » (سورة يوسف : الآية ٣٦) .
- والطبخ : « بعجل حنيذ » (سورة هود : الآية ٦٩) .
- والفسل والتصار : « وثيابك فطهر » (سورة المدثر : الآية ٤) .
- قال الحواريون وهم القصارون .
- والجزارة : « الا ما نكيتكم » (سورة المائدة : الآية ٣) .
- والبيع والشراء فى آيات .
- والصبغ : « صيغة الله » (سورة البقرة : الآية ١٣٨) ، « جمد
 بيض وهمر » (سورة فاطر : الآية ٢٧) .
- والحجارة : « وتحتون من الجبال بيوتا » (سورة الشعراء :
 الآية ١٤٩) .
- والكيالة والوزن فى آيات .
- والرمى : « وما رميت اذ رميت » (سورة الانفال : الآية ١٧) ،
 « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (سورة الانفال : الآية ٦٠) .
- وفيه من اسماء الالآت وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات
 وجميع ما وقع أو يقع فى الكائنات ، وما يحقق معنى قوله تعالى : « ما فرطنا
 فى الكتاب من شيء » (سورة الانعام : الآية ٣٨) .

ملحق رقم (٤) *

الطبيب الحاذق صفاته وكيفية ممارسته للمهنة

(فصل) والطبيب الحاذق هو : الذى يراعى فى علاجه مظهرين أمرا :
 أحدهما : النظر فى نوع المرض : من أى الأمراض هو ؟
 الثانى : النظر فى سببه : من أى شئ حدث ؟ والمصلحة الفاعلة
 التى كانت سبب حدوثه ، ما هى ؟
 الثالث : قوة المريض ، وهل هى متوافقة للمرض ، أو أضعف منه ؟
 فإن كانت متوافقة المرض مستظهرة عليه : تركها والمريض ، ولم يحرك
 بالدواء ساكنا .

الرابع : مزاج البدن الطبيعى ما هو ؟

الخامس : المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعى .

السادس : سن المريض .

السابع : عادته .

الثامن : الوقت الحاضر من فصول السنة ، وما يليق به .

التاسع : بلد المريض وتربيته .

العاشر : حال الهواء فى وقت المرض .

الحادى عشر : النظر فى الدواء المختار لتلك العلة .

الثانى عشر : النظر فى قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة
 المريض .

الثالث عشر : أن لا يكون كل قصور إزالة تلك العلة فقط ، بل إزالة
 على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها . فمتى كان إزالتها لا يؤمن معها
 حدوث علة أخرى أصعب منها : أبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب .

* نقلا عن : ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، مرجع سابق ، ص ١١٢ -
 ص ١١٥ .

وهذا كمرض أمواه العروق ، فإنه متى مولج بقطعة وحبسه ، خيف حدوث ما هو أصعب منه .

الرابع عشر : أن يعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء الى الدواء ، الا عند تعذره ، ولا ينتقل الى الدواء المركب ، الا عند تعذر الدواء البسيط ، فمن سعادة الطبيب : علاجه بالأغذية بدل الادوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر : أن ينظر في العلة : هل هي مما يمكن علاجها ، أولا ؟ فإن لم يمكن علاجها : حفظ صناعته وحرمة ، ولا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئا .

وان أمكن علاجها : نظر : هل يمكن زوالها ، أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها ، فهل يمكن تخفيفها وتقليلها ، أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الإمكان قطع زيادتها — قصد بالمعالج ذلك ، وأمان القوة ، وأضعف المسادة .

السادس عشر : أن لا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ ، بل يقصد انضاجه ، فإذا تم نضجه ، بادر الى استفراغه .

السابع عشر : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان ، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود . والطبيب اذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجها ، كان هو الطبيب الكامل ، والذي لا خبرة له بذلك — وان كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن — نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوى العلل : يتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية أرواحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والاحسان ، والاعتبال على الله ، والدار الآخرة — فليس بطبيب ، بل متطبب ، قاصر ، ومن أعظم علاجات المرض : فعل الخير والاحسان ، والذكر والدعاء ، والتضرع بالابتهال الى الله ، والتوبة . ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل وحصول الشفاء ، أعظم من الادوية الطبيعية ، ولكن : بحسب استعداد النفس وقبولها ، وعقيدتها في ذلك .

الثامن عشر : التلطف بالمريض والرفق به ، كالتلطف بالصبي .

التاسع عشر : أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية والعلاج بالتخييل . فإن لحذاق الأطباء في التخييل أمورا عجيبة لا يصل إليها الدواء . فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

العشرون : وهو ملاك أمر الطبيب — أن يجعل علاجه وتدبيره دائرا من ستة أركان : حفظ الصحة الموجودة ، ورد الصحة المفقودة ، بحسب الإمكان ، وإزالة العلة وتقليلها بحسب الإمكان ، واحتمال أدنى المفسدين لإزالة أعظمهما ، وتقويت أدنى المصلحتين لتحقيق أعظمهما ، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج . وكل طبيب لا تكون هذه أخته (١) التي يرجع إليها فليس بطبيب . والله أعلم .

(فصل) ولما كان للمرض أربعة أحوال : ابتداء وصعود وانتهاء وانحطاط . تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يناسبها ويليق بها . ويستعمل في كل حال ما يجب استعماله فيها فإذا رأى في ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يحرك الفضلات ويستقرغها لنفضها ، يبادر إليه . فإن فاته تحريك الطبيعة في ابتداء المرض — لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتقريب وقع — فينبغي أن يحذر كل الحذر أن يفعل ذلك في صعود المرض ، لأنه إن فعله : تحريت الطبيعة لاستغلالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض وتقاومته بالكلية ومثاله : أن يجيء إلى باريس مشغول بمواقعة عدوه ، فيشغله عنه بامر آخر . ولكن الواجب في هذه الحال : أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخذ في استفراغه واستفصال أسبابه ، فإذا أخذ في الانحطاط كان أولى بذلك . ومثال هذا مثل العدو إذا انتهت قوته ، وفزع سلاحه ، كان أخذه سهلا ، فإذا ولي وأخذ

(١) الأخية بزنة أبيه : الحرمة والذمة . وهي أيضا مشهورة فيما تربط فيه الدابة . وإرادة الأول أظهر . بل هو المتمعن .

في الهرب ، كان أسهل أخذاً ، وحدته وشوكتة إنما هي في ابتدائه ، وحال استفرغه ، وسعة قوته . وهكذا الداء والدواء سواء .

(فصل) ومن حذق الطبيب : أنه حيث أمكن التدبير بالأسهل فلا يعدل إلى الأصعب ، ويخرج من الأضعف إلى الأقوى . إلا أن يخاف فوت القوة حينئذ : فيجب أن يبتدىء بالأقوى . ولا يقيم في المعالجة على حال واحدة : فتألفها الطبيعة ويقل انفعالها عنه ، فلا تجسر على الأدوية القوية في الفصول القوية . وقد تقدم أنه إذا أمكنه العلاج بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء . وإذا أشكل عليه المرض : أحر هو ؟ أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجزئه بما يخاف عاقبته . ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

وإذا اجتمعت أمراض : بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال : أحدها : أن يكون برء الآخر ، موقوفاً على برئه ، كالورم والفرخة ، فإنه يبدأ بالورم .

الثانية : أن يكون أحدهما سبباً للآخر ، كالسدة والحمى العفنة ، فإنه يبدأ بإزالة السبب .

الثالثة : أن يكون أحدهما أهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر .

وإذا اجتمع المرض والعرض ، بدأ بالمرض ، إلا أن يكون العرض أقوى كالتولنج ، فيسكن الوجع أولاً ، ثم يعالج السدة ، وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ ، بالجوع أو الصوم أو النوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل أو الشبه وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها ، نقلها بالحد .

المحتسويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة للبحث
١١	الفصل الأول : دور الاسلام وتعاليمه في ازدهار الطب الاسلامي
١٢	أولا : موقف الاسلام وتعاليمه من العلم والتعليم بصفة عامة
٢٦	ثانيا : موقف الاسلام وتعاليمه من التعليم الصحي بصفة خاصة
٢٧	— الاسلام والطب الوقائي
٣٨	— الاسلام والطب العلاجي
٤٣	مراجع الفصل الأول ومصادره
٥١	الفصل الثاني : الاعداد التربوي للطبيب عند المسلمين
٥٣	المرحلة الأولى : التعليم الابتدائي
	Primary Education
٥٤	— مؤسسات التعليم الابتدائي
٥٧	— أهداف التعليم الابتدائي
٥٩	— مناهج التعليم الابتدائي
٦٤	— طريقة التدريس
٦٨	— سن التعليم ومدته
٧٠	— المعلم
٧٣	— ادارة التعليم وتنظيمه وتمويله
٧٧	— تقييم التعليم الابتدائي الاسلامي
٨٥	مراجع الفصل الثاني ومصادره
	الفصل الثالث : الاعداد التربوي والمهني للطبيب : المرحلة الثانية
٩٣	المتخصصة
	Further Education

الموضوع	الصفحة
— مقدمة	٩٥
أولا : دوافع ازدهار التعليم الطبى فى المجتمع الاسلامى ...	٩٨
ثانيا : التعليم الطبى بين التخصص العميق والتخصص الضيق ...	١٠٦
ثالثا : مؤسسات التعليم الطبى	١١٠
١ — المساجد	١١٠
٢ — المدارس الطبية	١١٣
٣ — البيمارستانات	١١٧
٤ — منازل الأطباء	١٢٣
٥ — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا	١٢٤
Further Education	
رابعا : مناهج التعليم الطبى النظرى	١٢٨
خامسا : طرق الاعداد التربوى والمهنى	١٣٨
١ — الملاحظة السريرية والممارسة	١٣٨
٢ — القراءة الذاتية	١٤١
٣ — الملازمة	١٤٣
٤ — الاملاء	١٤٤
٥ — المناقشات والمناظرات والاستشارات الطبية	١٤٥
٦ — المراسلات الطبية	١٤٦
٧ — الرحلة	١٤٧
٨ — الحفظ	١٤٩
سادسا : عدد سنوات التعليم الطبى	١٥٥
سابعا : نظام الامتحانات	١٥٦
ثامنا : أساتذة الطب	١٥٩

الموضوع	الصفحة
تاسما : المرأة والتعليم الطبي	١٦١
مراجع الفصل الثالث ومصادره	١٦٤
الفصل الرابع : صفات الطبيب وحقوقه وواجباته	١٨٥
أولا : صفات الطبيب	١٨٧
(أ) الصفات الحسية أو الطبيعية	١٨٧
(ب) الصفات العقلية والمهنية	١٨٩
(ج) الصفات الأخلاقية وشرف المهنة	١٩١
ثانيا : حقوق الطبيب وواجباته	١٩٣
حقوق الطبيب	١٩٣
واجبات الطبيب	١٩٤
مراجع الفصل الرابع ومصادره	١٩٨
خاتمة البحث أو الدروس المستفادة	٢٠١
مراجع خاتمة البحث	٢٠٦
ملحق رقم ١ : الدخل العام للطبيب جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد	٢٠٩
ملحق رقم ٢ : ثبت باعداد الأطباء الذين ترجم لهم ابن أضيعة منذ ظهور الاسلام واختلاف أقاليمهم	٢١٣
ملحق رقم ٣ : التصور الاسلامي للمعرفة	٢١٤
ملحق رقم ٤ : الطبيب الحاذق صفاته وكيفية ممارسته للمهنة	٢١٧
المحتويات	٢٢١

صواب السطر ١٥ صفحة ٩٦ هكذا :

الصبي ممكنة له موأنية ، لكن ما مشاكل طبيعه وناسبه ، وانه لو كانت

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٤/٤٨١٤
الترقيم الدولي : ٣ - ١٢١ - ١٠ - ٩٧٧

تطلب جميع منشوراتنا من
مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير

بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى

ت : ٤٣٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤